

حيدر حيدر

رواية

الزمن الموحش

دار أمواج

* الزمن الموحش (رواية)
* المؤلف: حيدر حيدر
* الطبعة الرابعة شباط ١٩٩٣

* الناشر: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع -
هاتف 802389 - ص.ب 13/5264 - بيروت - لبنان.
* التوزيع: مكتبة بيسان -
هاتف 865126 - ص.ب 13/5261 - بيروت - لبنان.

حيدر حيدر

الزمن الموحش

دار أمواج

تقـــديم

– مراسيمُ دَفْن –

لأنَّ الزمنَ يقهرُ الزوايا الحادّة،
ويغلِقُ الجِراحَ
أريدُ أن أنسى الزمنَ العاريَ والقاتلَ،
زمنَ العصورِ الأُولى
زمنَ نتراتِ الفضّة المتآكلة،
ومفتّتَ العظام
زمنَ الفصامِ بين السُّرّةِ والتاريخ
زمنَ الإبرة المرتعشة بجنون
في ساعةِ الصفر
زمنَ الصِلات المشتّتة
زمنَ الحياةِ الزائفة
زمنَ الخجلِ من التمدّدِ في نقطةِ البلاهة؛
الزمنَ الذي حُشِرْنا فيه داخلَ الفقر
كما يمتلئُ المرءُ بالغاز والكهرباء؛
الزمنَ الذي انعكسَ فيه الخلودُ رأساً على عقِب
والذي لم يعُدْ فيه صولجانُ الموتِ ينقرُ أدمغَتنا.
الزمنَ الذي كنتُ فيه أسمَنُ بوحشية

وأنتفخُ تحتَ الشمس ؛
زمنَ الدموعِ والقلق
زمنَ المشي خلال النوم ،
الزمنَ الذي أُرغِمْنا فيه على اختراعِ أُذنٍ ثالثة
لكي نصغيَ بها
إلى ما يقوله قضيب الزمن
وهو يدقُّ رؤوسَنا
بقوته الشرسة
والذي انتَدَبَتْهُ الأبديةُ ليكسِرَ ظهورَنا.
ولكن...
لأن الزمنَ يُشفي تلك الجراحَ
ويسوّي الجراح ،
فإنني أرغب في تشييدِ دعامةٍ للزمن ،
أنا المنفيّ عن الزمنِ
والمطرودُ من العصور السالفة.
أريد الآن أن أُعيدَ إليه الكمالَ ،
أصير وتينَهُ المقدّس
لأرى كيف تتّسعُ أملاكي ،
وتستيقظُ أرضيَ المليئةُ بالظلال
وتفرغُ نفسَها كمخزنٍ بلا حدود ،
ينتظرُ مجيءَ العصور..

«شاعر من أفريقيا»

الفصل الأول

- ١ -

ها هم قادمون من الجبال والسهول زحفاً باتجاه المدن. في عيونهم غضب. وعلى جباههم غبارٌ ومجدٌ مُنتَظر. في الرياح تخفق راياتهم وأصواتهم الجليلة تملأ سمع العالم. تحتهم ترتعش الأرض، ونفوسهم مفعمة بالأماني والغبطة.

بخطى واثقة، كما يتقدم موج غضب نحو شواطىء مجهولة، يتقدمون. لواء فرحهم معقود وأنا حاديهم، ومعنا مَسرّة وبنادق، كتب وسجلاّت فقر، زحفاً باتجاه المدن التي سقطت تحت ضربات الطلائع الاولى.

بلهف حار نتقدم، ومعنا أغنيات واطفال. معنا اشواق كانت محتَجزَة، غير مُبالين بسياط الرياح والنبوءات العتيقة، مُعمَّدين بأشعة شمس جديدة هي ذي تشرق من خلف الهضاب الرمادية المنسية، مبارِكةً الفقراء والرعاة، المنبوذين والحفاة، الصُنّاع والمظلومين وجميع الذين هبّوا على صوت التاريخ فيمّموا شطره فجر ذلك اليوم المدهش.

الآن يبدو العالم صحواً أكثر من أي وقت مضى. صحو يشبه هدوء بحيرة غبَّ إعصار أزَّ ثم اقترب ثم هبّ بكل عنفوانه ووحشيته، وأخيرا توارى. كل ما بقي هو آثار أعصار عَبرَ داخل النفس مخلّفا الحطام والسكينة وبعض غبار الحزن الطللي.

إنني أتذكر ألآن بهدوء تام كيف نفخت الريح في تلك الأودية، كيف ضربت بكل شراستها وأنينها الموجع أبواب الكهوف المتناثرة والمظلمة، فأيقظت السُباتَ الدهري العميق لآلاف الأحاسيس التي كانت غافية، ثم فجأة لم يبقَ غيرُ الصدى النائح فوق البوابات التي عاودها صمتُها القديم.

مثل سراب خادع يلمع فوق سهوب بعيدة. سراب يمتد ويمتد، هكذا يبدو الآن ركام الحكايات، شفافاً، لا معاً، عصيًّا على اللمس، عصياً ربما على الادراك. حكاياتنا التي أفلت في غروب يوم كئيب مع شمس دمشقية تهوي بلا استئذان خلف قمة قاسيون الأجرد.

سيمضي وقت طويل قبل أن أستطيع ادراك كُنه تلك العلاقة الآثمة والطهرانية التي يخيل اليّ الآن أنها قد جمعتنا. إنني أستعمل كلمة الجمع لا الالتحام، لا لأن ما حدث كان محض صدفة عابرة. انما لأن الانسان يبدد عمره باندفاع حار شوقاً الى حالة دائمة من الاندماج الكامل مع شيء ما، ربما مع نفسه. لكنه يكتشف في النهاية أنه قد خاض حرباً خاسرة، أضاع خلالها شيئه ونفسه، وأن العالم ليس أكثر من أصداء تتردد كالنواقيس في كاتدرائية النفس المصدّعة.

الآن. وليس هناك غير صحراء بلا شجر ولا ماء ولا أنس، علي أن أكون متماسكا كقديس يستبطن في أعماقه زنديقاً، وأنا أنحدر الهوينا عبر رمال سرابية مسكونة بصمت الاصداء ورياح الخماسين الجامحة، الملتهبة.

عندما كانت بقربي في أصياف وشتاءات الايام التي تصرّمت الى غير رجعة، كان يخيل الي أن حضورها مُتّسِم بخاصية الخلود، ومن أجل هذا الاحساس الخفي كانت المشاحنات تعكر صفاء دقائق الزمن التي حوّمت في سمائنا، دون أن يضع أي منا في نفسه معادلاً سلبياً لذلك الاحساس المتفائل. وهكذا كنا نفترق طويلاً، ثم فجأة على غير موعد نتقابل وجها لوجه عبر شارع ما أو بيت، واذ بكل غفران الأرض المُسامح يشع حزناً ولهفة من عيوننا، فنغيب في عناق حار، لذيذ، عاتب.

لقد رحلت. غابت كحلم هاجَس النفس في ليلة صافية، ولم يبق غير الطيوف والتهويمات تهتز وتهتز مثل زلزال عميق عميق يرجّ الاغوار السحيقة فترتعش الذرات الباطنية التي فتتها هبوبها السافي الحزين عبر فصول النفس.

هل كانت حقيقة؟ هل كانت وهماً؟ هل كانت ريحاً؟ هل وجدت بأبعاد مادية أم ان الذاكرة هي التي خلقتها ولونتها؟ أم أنها كانت مزيجاً من الحلم والحضور والرمز؟

عندما سألتني: لماذا قلت جدار الزمن؟

قلت: معك دائما كنت أحس هذا الجدار.

كانت تجلس بقربي على الخوان المزركش، واذ راحت تحكي عن طفولتها، وحياتها الماضية المتعبة والحزينة، كنت أشتاف لحمها المحروق بشمس صيف دمشق الحار.

مذ عرفتها امتلكتني طفولتها النقية. كان لها شفة سفلى رائعة الوميض، مومئة، وكان وجهها مسكوناً بالأسى. وهي تحكي لم تكن تسألني، بدت غير معنية بسماع شيء مني. واستمرت تتحدث عن نفسها: الطفولة والمعاشرات اليومية، والناس الذين تخيلوا أنهم عرفوها.

واذا سألتها فجأة: اسمعي. هل أنت حُبلى مني؟

تابعت تروي حادثة أوشكت على نهايتها كأنما سؤال لم يُلقَ، وعبوراً قالت وهي تزمّ شفتيها: ليكن. سوف أرميه لك! واستمرت في حديث آخر.

الى ذاكرتي وثبت قصة طفلتها التي رمتها في القاهرة من زوجها الذي مات. قلت في نفسي: ربما هي الآن حقيقية أكثر من أي وقت مضى.

قليلة هي الاشياء التي كانت تعرفها عني. وفيما مضى كان هذا الاهمال النرجسي يسبب لي أذى خاصاً، لكن هذا الإحساس بدأ يتبدد بعد أن أدركت مركز إصابتها الداخلية. وبعد اكتشاف أن الإنسان يختنق وحيداً في هذا العالم.

أشياء كثيرة كانت مستورة علمتنيها دمشق: على الأقل ان ما في رأسي مختلف تماماً وان علائق البشر تشبه إلى حد كبير كثبيات الرمل.

شعرت بشيْ من السخف وأنا أبدأ الثرثرة عن طفولتي.

كان الحديث قد انتقل إلى المطر، وبرومانسية مبهجة قلت: المطر يخلق إحساساً بولادة الحياة بعد موتها في الصيف. ثم ثرثرتُ أشياء أخرى عن رنين المطر على الأسطحة، والنوافذ في الليالي العميقة، وإحساس الإنسان الطفل وهو يسمع ذلك الرنين.

وقالت: أحب المطر.

وإذ أوغلْتُ في الحديث عن أيامي في الأصياف التي مرّت بين قريتي وسهولها البحرية، وأبي الذي مات، وخيام الصيف التي كانت تهجع في ذاكرتي، وتعب الفلاحين الفقراء، شعرت بنوع من الذعر: «ها أنت ذا تتحدث أخيراً عن نفسك»!

– تحدثي أنتِ!

كانت تستلقي على الفراش، رافضة أن تتعرى تماماً وأنا متكئ بنصفي فوق جسدها الممدد، أتحلب شهوة لامتصاص جذعي ثدييها الصلبين المتقلصين، النافرين خارج قميصها الداخلي.

– ثدياك كالمطر. قلت ذلك بمجانية غير مرتقبة. ثم داهمني صمت مفاجئ إثر هذه العبارة غير المقنعة. واستطال الحديث منها.

إنني أذكر الآن كيف كنت أتصبّاها داخل كهفي القديم، متوهجاً برائحتها التي تشبه رائحة الزيزفون البري، مدركاً بعد لحظات بأنني مقبل على الانغمار في جحيم جسدها، مولدين شرارة تشبه الموت الفجائي، ينتصب بعدها حائط الزمن بيننا.

في نفسينا وعبر جميع الأيام، حاولتُ كسر ذلك الجدار، أو إحداث فجوة فيه، نطلّ من خلالها على معنى العالم المناقض للموت والملل، لكن محاولاتي معها لم تجدِ. لقد بدا محالاً مستعصياً على الإدراك أن أخرجها من سجنها النفسي، الشديد الإظلام.

وتابعتْ حديثاً كانت قد بدأته عن حياتها. فجأة توقفت ونهضت عن الفراش متكئة بكوعيها، ومن وجهها أطلت شراسة.

قالت: لست أدري لماذا أدخل غرفتك وأنا أعلم أننا سنفترق قريباً.

– هل قلت: نفترق؟

– أجل. قالتها بثقة مطلقة كقرار حاسم بدا أنها اتخذته منذ زمن قريب.
واستطردت: أنت تعلم أنني مطلقة فقط. أليس كذلك؟

– وأعرف أن زوجك مات.

– مات قتلاً يا سيدي. هل تعرف هذا؟ أجل. وأثر ذلك أصابني قرف لا حدود له من الرجال جميعهم. لهذا كنت أتساءل منذ لقائنا أول مرة لماذا أدخل غرفتك وأنام معك؟

وكما يرنّ صنجٌ نحاسي وهو يقرع بعنف، رنّت كلمة القتل في كل بقاع نفسي. بهدوء سحبت كوعيها وأراحت رأسها على المخدة: ولكن كيف حدث ذلك؟

– قتله أخوه بطعنات خنجر من الخلف ليستولي عليّ وعلى ماله.

فوق اللحاف كنا مستلقيين الآن. ثلاث مناطق من جسدها عارية، وزندي يحتوي عنقها، ورائحتها تهب متغلغلة عبر مسامي، بينما صدرها المرمري يجتاحه نذير نشيج.

كانت رائحة الموت الكريهة تموج على حواف رائحتها المثيرة، وكان واضحاً في تلك اللحظة أن النفس تجاهد لإبعاد رائحة الموت، وان القرف الذي شال وعكّر الصحو الذي كان، قد أخمد على مهل نار جسدها.

راحت عيناي تجوبان بعض مناطق السقف، وصورة القتل تتناوب مع صور أخرى ما عدت أتذكرها بكل تفاصيلها، فقد كانت سريعة الامّحاء فوق سطح السقف الكامد، وكانت تلك الصور تأتي تباعاً وخلالها تظهر «منى» وتختفي، تارة في ثوب العرس وتارة متشحة بالحداد، تتناكبها أكتاف بشر قلقين لا ملامح لهم.

ظللت هكذا مسترخياً محدِّقاً في الصور الغريبة والتي تتوالد بلا أي ضابط، وهي ملتحمة بي تتنفس ببطء، حتى غفوت.

□

– منذ سنوات قررت التلذذ بعذاب نفسي. لم يعد بإمكاني الانتماء إلى أحد: الحب هيه. قل هل تستطيع أنت أن تحب؟

– قادر أن أحبك طبعاً!

– إسمع لا اريد أن أسبب لك جرحاً. يكفي ما في النفوس من جراح. بالنسبة لي انتهت هذه الحكاية السخيفة.

كنا نجلس الآن متواجهين هي على الخوان وأنا على كرسي، وفي ذلك الوقت كان الرحيل هاجسها الأبدي، ولم يكن يبدو أن موت زوجها هو الذي يقلقها، وتناولت من محفظتها صورة: أنظر. كم هي رائعة!

وحدقت في الصورة. تذكرتُ أطياف السقف، وأن هذه ربما عبرت وهوّمت في ذهني. صورة أختي التي ماتت بالربو وهي طفلة وحزن أمي المرير عليها، وتوضح لي أن أختي قد عبرت بين الأطياف: تشبهك. ما اسمها؟

– ميسالينا.

– أين هي الآن؟

– في القاهرة.

واستعادتها. ملياً حدقت فيها، ثم ضمتها إلى صدرها: لا أحد في العالم يستحق حبي إلا ميسالينا.

– لماذا لم تأتي بها معك؟

– أخذوها عنوة بعد موت أبيها.

بعد صمت قليل سألتها: هل تشعرين الآن أنك ما عدت منى الماضية؟

وتنهدت. لفت ساقاً فوق أخرى: بل صرت أشعر بلا جدوى أي شئ.

في ساعات الصحو أتساءل: ما نفع الإنسان من كل حياته ومن كل الإخلاص الذي يُفني عمره فيه. لقد عشت حياة صاخبة عرفت خلالها أنماطاً مختلفة من البشر. عاشرتُ الجميع في مخادعهم السرية، معهم سرت في الشوارع وتألمت لآلامهم عندما جاعوا وطُوردوا وسُجنوا وضُربوا، فماذا كانت النتيجة؟ حياة طويلة بدت ككذبة. كنت مخدوعة ومُهَانة. هل تصدق لو قلت لك: أتمنى أحياناً لو أنني ولدت خارج هذا الوطن؟!

بهدوء كنت أستمع إليها، وقد ارتدت فستاناً معرقاً ربيعياً يحبك كلية جسدها، كانت وهي تحكي تداعب ذوائب حزامه.

قلت مازحاً: فستانك رائع. لكن جسدك أكثر بهاء. هل سمعت هذا في الماضي؟

في عيني ثبتت نظراتها. وبطفولة مزدهرة، مفعمة بالسخرية، ابتسمت ولم تُجبْ.

كان الناس يعبرون فوق الأرصفة، وكنا نراهم منَ النافذة، والريح الصيفية الجافة تحرك أعالي الأشجار.

بهدوء تقدمت نحوها. بين راحتي رفعت وجهها المنكبّ على الأرض: لماذا تبكين؟

بين أناملي انسابت قطرات ساخنة. مسحت عينيها بظاهر كفي، وبحركة عذبة خفيفة دغدغت شفتيها: هيا ابتسمي منى. ابتسمي. لست وحدك الجريحة في هذا العالم.

– ٢ –

دمشق لا أروع ولا أحزن. كبنيلوب تبدو في هذه الأيام الحبلى بالتوقع. وحيداً أعبر الشوارِع. متفرجاً على القامات وراصداً الضمير التحتي لهذه المدينة العجائبية. المدينة الشبيهة بصندوق الدنيا.

ها قد مضى زمن لا بأس به بعد أن طوّحت بقدميكَ فوق أرض الشام، وعبرتَ تحت الأقواس العارية من الباب الشرقي للمدينة. لقد تمّ الدخول بلا أية مراسيم إلى الوطن الذي توهّج زمناً في مرسح الذاكرة.

التحدث عن القهر الداخلي والدروب الملتوية، يحتاج كثيراً من الشجاعة، ولأن الأمور ما عادت تسير على النحو الذي تريد، صار الخيط الفاصل بين الشجاعة والقبول معرضاً للاحتراق في أية لحظة.

– «المهم أن تحتفظ إلى أكبر مدى بالتماسك واستمرار الرصد بسرية خاصة».

بلا أي تخطيط مسبق كنت أضغط بعنف زر الجرس. فَجَأني وجه مسرور التابوتي وقامته الحَورية: أهذا أنت؟

– ملعون دينك مضى أسبوعان ولم نركَ!

وإذ أنهى احتفاله المبالغ، علقت له ابتسامة نبتت على شفتي وأنا أنحدر على الدرج نحو قبوه.

– مرحباً. ودخلت.

الغرفة رومانسية، في جدارها مكتبة، محاطة بأرائك وطنافس. وعلى الجدران لوحات كلاسيكية، وفوق النوافذ ستائر من طيلسان برتقالي.

– أين كنت؟ سألني.

– في دمشق.

ونهنه ضحكة عفوية لا تعرف الخبث. ثم انفتل خارجاً من الغرفة. ودخلت زوجته.

– هاه... مرحباً. عاش من شافك. كيفك؟

وسلّمتْ.

ابتسمتُ. رفعتُ إصبعي محيياً: وسط.

هدلت شفتها السفلى الرقيقة وهي تجمع تنورتها الضيقة، وجلست. أمدّ يدي ومن جيبي أنتش لفافة. أتذكر أن علي أن أقدم لها سيكارة: خذي من هنا. نشعل لفافتين ويرتفع خيط من دخان.

تعبرني حالة ركود. نسيان خاص. توقع جديد لأشياء جديدة. ويقبل مسرور.

ملياً نتحدث. قليلاً جداً عن الأدب، وكثيراً عن الوطن والثورة والناس. ثم نصمت.

خلال ذلك تتحرك زوجة مسرور قاطعة صحراء الصمت.

رويداً يثقل الجو فيزحف صمت مفاجئٌ، فيستلقي مسرور بطريقته البدوية ممدداً فوق كنبة عريضة.

– لماذا تتصرف هكذا؟

تقول ذلك بحنق امرأة تحب أثاثها.

ويرنو إليها هازاً رأسه، ويبتسم.

– النساء هن النساء. أقول ذلك بطريقة مازحة.

وهي تتميز غيظاً تقول: أي نعم. النساء هن النساء!

أتبجّح هازئاً: لهذا أقول دائماً أنا عدو النساء الحميم. وتقهقه فترج ضحكتها العفوية البلهاء في سماء الغرفة: معلوم. كلكم يقول ذلك. وأي منكم يشتهي حتى طقّات كعوب النساء على الأرصفة.

من البعيد عبر الليالي الدمشقية الساحرة، يوقَعُ رنينٌ خاص. ضربات موزونة: واحد. اثنان. واحد. اثنان. وأنت وحيد تعبر في سحر المدينة وسكونها الجليل على إيقاع الرنين يستيقظ توحدك وحنينك لسرير دافئٍ فيه امرأة سخية كالمطر. حلم. مجرد حلم.

إذ تعود ديانا حاملة القهوة تمحّي الصور التي عبرت. أقول: هو زوجك الذي يشتهي، أما أنا فأترفع عن هذه الكبائر.

وترمقني وهي تقدم القهوة: أنت طبعاً لا. نبي مرسل.

وأنده: ليتني نبي مرسل. كان للأنبياء أكثر من أربعة نساء و... ينهض مسرور من ضجعته وهو يقهقه قبل أن أتم الأعداد العشرية: ملعون دينك. لا تكفر يا أخي في هذه الأيام العصيبة.

أقول وأنا أمجّ سيكارتي: مسرور. هل نسيت أنك ثوري؟

فيسأل: وهل الثوري كافر؟

– الثوري علمي.

وترتفع الضحكات.

منذ أشهر تعارفنا. حدث ذلك إثر زواجه من ديانا، وبعد أن تحولت دمشق إلى محطة ثابتة للذين هاجروا من حيفا وانطاكية، والذين قدِموا من الصحاري والجبال فجر ذلك اليوم.

- ٣ -

أقسى الساعات صيفاً في هذه المدينة، من الثانية ظهراً حتى الخامسة. ساعات الزمن الميت. خلالها تحس بارتخائك العضوي والنفسي، تكاد تخترق نقي عظامك حرارة هذا الصيف الجاف، وأنت تنسحب فوق الأرصفة مثل جثة أنتنها العرق والضجر.

كل شيءٌ مكروه ومُعاد: الناس والأبنية، أصوات السيارات وواجهات المخازن. وأنت.

وحدهن النساء يشعرنك بالطراوة، يخفّفْنَ من وطأة هذا الجحيم الخارج من الأسفلت والجدران وضوضاء السيارات.

رائحة مني تلفحني عبر الهواء الساخن، أشم رائحة جلدها من اندياح عرق ابطيها. متجاوران في الباص وساقانا متلاحمتان، وحوار خفيف سرّي، غامض ولذيذ، تحدثه الساقان مع حركة الباص الرتيبة.

– فرحٌ لأننا معاً. أهمس لمنى. وبتساؤل عينين طفليتين تنظرُ إليّ، وتبتسم. أشعر بأنها لم تلتقط ما قصدتُ إليه. أوضحُ لها باقتضاب أن الحب في بلادنا لصّ يتوقع المداهمة.

وتضحك ثم تعقب: ولكني الامسك بلا خوف. هل تريد أن أقبلك داخل الباص من أجل التحرر والتقدم؟

أرفع حاجبي كرد فعل مباده. أتذكر حركتي فأعود لأرسم مشروع ابتسامة. إذ ذاك تمتد أصابعي وأقرصها من فخذها فتنهنه بداية ضحكة تقطعها قبل أن تكتمل. تهمس: سأنده. يا عباد الله يا غيرة الدين. هذا الفاسق يقرصني!

– إياكِ وحق شجر السبكي والكهف لو سمعوك لرجموني.

ومن أعماق صدرها تخرج ضحكة حقيقية. يطغى الفرح على وجهها فيورّده. تباعد ساقها اليمنى: إياكَ أن تلامسني هاه. نحن شرقيون والبنت قيمتها بشرفها.

أسألها مازحاً: هل باستطاعتك أن تشرحي لي أين يتمركز السيد الشرف؟

مواربا أحدق في حضنها كاتماً بسمة على وشك الإنفجار. بعينين خجلتين افتعلت ملامحها تنظر نحوي: أنت إنسان إباحي. أخلاقك مشبوه فيها ولهذا هددوك بالطرد من وظيفتك.

– وأنتِ يا مجدلية العصر؟

بحرارة تتحرك في المقعد، تكاد تثب عنه، تحسّ كأنما طعنت. تدافع بحمية امرأة شرقية تقمصتها فجأة: أتحداك. العربية الحرة تموت جوعاً ولا تأكل بثديها.

– إسمعي لا جوع ولا عطش ولا بطّيخ. الجنس ألحّ من الظمأ والجوع، والتي تتحدثين عنها خرافة صحراوية انقرضت. في هذا العصر وجبة وفستان بروكار وعلى الشرف السلام.

وفي جيبي أسل أصابعي فتصدم مفتاح البيت. ألوّح به أمام وجهها. تستبشر عيناها: هذا لي. هاه؟

– مرحباً يا عربية حرة. وتنفجر ضحكتانا. وإذ تخطف المفتاح، تكون غيمة المزاج قد ولّت.

عبر زجاج الباص يلوح حي السبكي الضيق. عربات الفواكه والخضار، حوانيت البيع المتلاصقة، وبائع العرقسوس، وبيتنا القديم.

–، وأنا أعبر هذا الشارع في غيابك يغمرني حنين دافئ.

بين أصابعها تفتل مفتاح البيت الجديد، ثم تدسه في حقيبتها: لم يبقَ منه غير الذكريات.

– لو نعود!

ويجتاز الباص الحي الهاجع في قرارة الذاكرة.

[]

الماضي. ذلك التوق المفعم لم يبقَ منه سوى الروائح. تهب الآن خارجة من أعماق بحيرة الزمن، راسمة تموّجات أثيرية فوق سطح النفس. أي ألم خاص يجتاحك وأنت لا تستطيع خلقه من جديد بعد أن تصدع!

غير أن الأسئلة تبدو غير مجدية، ولا الحسرات. لقد انكسرت فقرة من فقرات العمر. تمَّ رسم ذلك في فصول متعاقبة.

الفصول التي تلتهب فيها الأزهار ثم تذبل ثم تسقط، ولا شيْ آخر. الغرفة باردة وصغيرة تحتوي سريراً وخواناً وطاولة حديد عليها بعض الكتب. بعد أن تناولت شيئاً من الخمر ارتميت على السرير وفتحت الراديو منتظراً قدومها.

ولا أخفقَ للقلب أو أرهفَ من انتظار امرأة في غرفة ضيقة. الزمن يشبه قناصاً منزوياً في مكان ما، ربما في الحركة أو الصمت أو في وقع حذائها على البلاط، وربما في جيب من جيوب الرأس. وأنت مرهف كحدّ الموسى تسمع دوي اللحظات، تكاد تلتقط دبيب نملة تعبر في الخارج أو الداخل، وحول نفسه بعد أن اختُزل العالم وتقلّص إلى غرفة معزولة كالجحر، يدور الوقت. هنيهات تومض، تحسّ أنك تعبر أرضاً ملغومة والانفجار متوقع في أية ثانية. وفجأة يدوي، ينفجر ممدداً من رأس المفتاح الذي صدم القفل الآن إلى رأسك.

إذ ذاك ينجلي كابوس الزمن.

معها يدخل فرح العالم. تبدأ الجدران والأرض والسرير مزهوة بوجودها.

– إنهض لا تتغافَ. الوقت قصير.

وبعنف تهزني من كتفي، رامية اللحاف نحو الحائط. أتململ فأراها واقفة على أرض الغرفة. بحيوية تتحرك. تقلب الكتب. تدير إبرة الراديو. تشعل لفافة. وأخيراً ترتمي قربي: أرسلتك أمك من الضيعة إلى الشام لتنام؟

أطوقها فيقع ظهرها فوق صدري، أطوي رأسي وأغمرها بقبلة: متى تنتهي هذه المطاردة الزمنية؟

– هيّا. هيّا. لا وقت لدينا. تتخلص من ذراعي وتبدأ طقوس التعرية.

[]

– حلمت يوماً أن نلتقي ليلة بكاملها منى!

– لماذا؟

– في الليل أنت مسرة عذبة. جسدك ضوء. والليل في غيابك بارد مخيف.

– أخاف الغروب!

– بل تخافينني. أشعر بك تنزلقين مني كسمكة في بحر.

ونصمت.

– هكذا أنت لا تتبدلين.

– ماذا تعني؟

– عندما نحاذي حافة جروحنا الداخلية تهربين. يخيل إليّ أحياناً أن العالم في رأسك مشدوخ يشبه أرضاً شققها صيفٌ قاس.

وتضحك.

– لماذا تضحكين؟

– لولعك بالتحليل السخيف.

– كيف نفهم الآخر؟

– ولماذا تريد أن تفهمه؟

– كي أعرف طريقي إليه.

– لا تتعب نفسك. حلق كطائر في أية سماء واسقط فوق الشجرة أو الأرض التي تختارها. إزرع العالم بجناحيك لأن الزمن يتقدم لاختطافنا.

كانت تهرب عندما نوشك على الدخول من بوابة المدار المفقود بيننا، خائفة أن يرى أحد ما دخيلة نفسها ويطل على جراحها.

نزلنا من الباص. طوقتها بذراعي ونحن نعبر شارع أبي رمانة. كأرنبين كنا نثب، أصابعي تنزلق تحت ثوبها وتدغدغ ظهرها الأملس، والناس يعبرون.

لم تقل شيئاً. واجتزنا الشارع. صرنا في فيْ الصفصاف المدلّى فوق بردى. وفجأة قبلتها خطفاً. كان الظل الذي تغلغلنا فيه قد أثار رغائبي. ضغطت خصرها النحيل، وتجاوزتنا سيارة مرق نورها على وجهها. انعطفنا في الشوارع الشحيحة الضوء، وبين حين وآخر كان عابرون يجتازوننا، ولم أفك الطوق عن جسدها الملتحم بي، وبدا ذلك لذيذاً وعذباً، يعطي إحساساً بالملكية رغم التوجس من كلمة: دعني.

فتاتان أجنبيتان مرتا. قلت: هما فرحتان لا شكّ!

– من؟

– الفتاتان وهما تريانا مطوّقين. هكذا العشاق في بلادهم. حب في وضح النهار والليل.

زفرت ضيقاً: لا تقسر نفسك بشيْ من أجلي. وحاولت التملّص.

في التو سقطت ذراعي، كأنما أصيبت بطلقة.

دهمني حسّ الانخطاف والعودة، فكابرت. كنا نسير بعيدين قليلاً.

– منى... ! وتوقفت.

في الظلال كانت تسير، وحيدة، لا مبالية. لخطواتها إيقاع بطيء مكسور.

وددت أن أمزق الظلال والحزن بصوت يرج المدينة: لماذا أنت هكذا؟

لكنني قطفت ورقة خضراء، فركتها بعنف حتى صارت كذرات الرمل.

فردتها على سطح كفي وقذفتها في الفراغ المظلم.

استندت على ظهر جدار، فأحسست شيئاً في نفسي يتهاوى، فتهاويت ببطء على الرصيف.

– «التكوين الإنساني لماذا هو معطوب؟ أين يكمن الخلل في تلك الخلايا البشرية التي تبدو محصنة ومستورة؟ ثم أنا لماذا أسقط هنا بالذات أمام مخلوقة اشتهيت قبل لحظات الانفراد بها تحت سلم عمارة مظلمة؟».

كانت الآن بعيدة. وراحت تتباطأ. فجأة اتكأت على جدار بعيد في ظل غيضة ياسمين.

ضمّدت إحساسي، وسرت منكفئ الرأس أعدّ مربعات الرصيف، مصغياً لخطواتي وهي تدق إيقاعها المتعب. حاذيتها. تحللت مقاومتي، وفي جسدي سرى وجع شهوي غفور. وكبرق، اجتاحني احساس اقتيادها والغياب في ظل ممر قريب. فجأني صدرها الذي كان يجهش فانطفأ البرق.

– ٤ –

تلوح دمشق وجعاً متشحاً بالأسى يغطي سهول النفس، ينعكس على وجوه الناس وعلى الأيام التي مضت. يخرج من العلائق الثابتة بين الآخرين وفوق هذا الوطن المخضب.

أي جيل موسوم هذا الذي ارتمى هنا، فوق أرض تتمخض قبل أوانها: بالثورة، والفكر، والعشق المراقَب؟

تُرى كم هي المسافة النفسية بينه وبين ما يريد، في وطن ما يزال منشداً نحو تراثه وارتكاساته القبلية والدينية؟

سمِّه ما شئت. هذا الطالع من كهوف العالم القديم، تحت شموس العصر الجامح الذي سبقه، مطلوب منه أن يستشهد أو ينسحب.

في الحالة النوّاسية بين الشهادة والانسحاب، كنت أقع. وفي هذه النقطة الحرجة كنت أبحث مع منى عن شيْ آخر في دمشق. وقط لم أكن أبتغي مجداً.

وفي دمشق كنا نحيا معاً في ذلك الزمن. كنا عاشقين من نوع خاص. وقبل أن نستيقظ من رومانسية الصلة التي توهمناها راسخة، فامتدت شعيراتها الماصّة إلى أعماق تراب النفس، كانت دمشق ما تزال تحت ملاءة الكشف. نظرياً كنت أتصور أشياء غامضة عن المدن المركزية، حيث العالم يجيش بالعظمة والمعاناة والفهم الخلاق. وعملياً كان الريفي المقيم فيَّ، يبدو في وفوده على دمشق مذعوراً، صغيراً، لا يعرف بعدُ كيف يعوم.

بين هذين التصوّرين كانت أرجوحتي تتحرك، محاولاً أن أعرف ما أجهل. أن أصل إلى التوازن والسكينة الداخلية التي أُنشدها من خلال ازدحام نوايا العالم في رأسي.

وإذ جلسنا إلى طاولة الخمر في النادي الصيني، شعرت بقربي من تلك النوايا.

كانت خمرتنا العرق. ووجهانا متقابلين، وبيننا كانت الحرية. ولما رشف قليلاً من الخمر قال: عيناك نفاذتان.

وقلت: لكن وجهي كما ترى يحمل نعشاً.

وإذا كبا وجهه فوق الطاولة ليقطع الرغيف هَمْهَمَ: كلنا محمولون. وانقض على الطعام كنمر مجوَّع.

– غريب!

رفع وجهه سائلاً.

– إنك تأكل بجوع من يرى الطعام لأول مرة في حياته. من يراك الآن لا يصدق أنك أديب.

غصّ باللقمة وهو ينفجر بضحكة مفاجئة وسعل: الأديب لا يأكل؟

– بهذه الطريقة؟ غير معقول!

– على أية حال أنا لدي جوع دهري يعود إلى الطفولة. قل لي يا غاندي العرب كيف تنظر إلى الأكل؟

أقول: مهمة قسرية ينبغي إنجازها بسرعة.

يردف بشوشاً: يكفي تصوفك بمنى. هل وصلت صوفيتك حدود الأطعمة أيضاً. الأكل كالمرأة ينبغي الإقبال عليه بالشهية ذاتها يا قدّوس. ألم تقرأ كيف كان أبطال همنجواي يقبلون على الطعام؟

وامتعضت من هذا التشبيه السمج. لكنه استمر يناكد: الطعام. الطعام. مذكور في القرآن والإنجيل والتوراة من الأسماء الحسنى. صلوات الله عليه، وعليه السلام، وكرّم الله وجهه، كانوا يقبلون على المائدة كما يقبلون على الصلاة والنساء.

أشعلت لفافة وناولته فرفض: مع الخمر والطعام السيكارة تستر الشهية. وتذكرت مزاجه الحاد.

[]

تلك الليلة الغريبة. كم تبدو الآن بعيدة لا بالزمن الموضوعي الذي مرّ إنما بقسوة الأحداث التي انشرخت في رأسينا. شظايا من الزجاج تتراكم جارحة مسننة على طول درب الزمن بين دمشق التي كانت، ودمشق الآن. انهيار في وضح النهار تمّ بلا استئذان.

كان وجهي ينضج بالبشرى وأنا أواجهه، وكان هو شبيه طفل سُرِّح من بيت حُوصِر فيه منذ وقت طويل، فانطلق عبر مرج من الأعشاب والزنابق والفراش. بحيوية لعب وضحك واحتسى خمراً، واذ اكتفى سرحنا في تلك الليلة.

ذلك السريان الليلي الخدِر يجتاح الخاطر الآن، يختلج كقصيدة دندَنَ المقاطع الأولى منها على أنغام شبابته التي شجَتْ وانتحبت عبر غربة طولها بطول العمر كله.

لم يكن القمر قد سطع من خلف التلال القائمة من الشرق، لكن النجوم راحت تتوهج بكل طفولتها. كانت القرية قد هجعت كقتيل متدثرة في تابوت الصمت خلفنا. ونحن ندبّ على الدرب المقفر نحو البراري؛ لم يكن يسمع غير صوت الخطوات والصرير المتواتر لجنادب الحقول، وذلك الندبُ الرائي للناي.

كنت أعتقد أنه مسحور بالعالم الغامض الذي أحاطنا بالأشجار الكثيفة وعتم الوديان، وبين آن وآخر كنت أتوقع كلمة ما تخرق صمتنا الذي امتد طويلاً وسط هذا الظلام الأصمّ.

كسهل أسطوري ونحن نرتقي هضبة مطلة، فجأنا البحر. أمامنا استوى، متوّجا بكل المهابة والاسرار كإله لا نهائي واثق متفرد، وخلفه أفق مسدود.

في الظلام شبه المضاء لمحت عينيه منغرستين في ذلك السهل المرتاح هناك. حرفاً واحداً عن ذلك العالم الطقسي، لم ينبس. واذ شعر بأننا قد صرنا وحيدين التفت الي: هنا لن يسمعنا أحد طبعاً؟ وابتسمت: إلا البحر وهذه السكينة. وأفضى بالسر.

كل ما أذكره في تلك الليلة أنّ الدهشة امتزجت بعدم التصديق. كان بودي أن اصرخ وأبكي وأسأل. لقد ولد في داخلي شيء خيل الي انـه مات منذ عهد قديم. اليعازر من جديد يبعث: الثورة على الابواب إذن!

– الشمس تشرق من جديد كما يقول بابا همنجواي. هاه. احفظ لسانك وصنْهُ حتى يأتي ذلك اليوم. هكذا تقول تعليمات الحزب. بامكانك أن تسرّ للبعض. أنا متأكد انك فرح.

– من كان يصدق أن محترفا للحزن مثلك يأتي بكل هذه الغبطة القاتلة ويقذفها هكذا فجأة. اجل انني فرح يا عزيزي. فرح ومسحور كهذا البحر ولكن...

– اعرف. اعرف. كنْ متأكداً واحتفظ بالسر. هذا يكلف غاليا.

بعد أن سرنا في طريق العودة انحلتّ عقدة المفاجأة والدهشة. سألته كيف صمت كل هذا الوقت. كان قد اكتسى حالة مريحة بعد انكسار طوق الصمت، فبدا منشرحاً وأفهمني بأنه كان سينفرد بي في نهاية السهرة بعد أن تكون صبايا القرية وشبابها قد ناموا مع الدجاج. واذ سألته: لماذا أضفت شبابها؟ قال ضاحكاً: تمويهاً يا كاشف الأستار. العياذ بالشيطان من نواياك الإبليسية.

في البيت كان الاصدقاء ينتظرون عودتنا. لم يبال بهم. سألوه بعض الاسئلة فأجاب بشكل فظّ وأردف: معذرة أنا نعس ومتعب. على عجل ارتدى منامته واستلقى على السرير. شبك كفيه تحت رأسه وراح يحدق في السقف. بعد حين تناول الناي. توحَّد معه ورمى بالآخرين في قاع النسيان.

لقد تصرف في تلك الليلة كممثل يُتقن دوره تماماً.

كان النادي محتشدا، وفي عبّ الأشجار المنتشرة على حوافيه عُلِّقت مصابيح كهربائية صغيرة بألوان مختلفة راحت الريح تهزها، وفوق الأشجار انفسحت سماء مضاءة.

أفصحت له عن رغبتي في التعرف على المثقفين، فأنا أسمع عنهم وأقرأ لهم فقط. فقال وهو يلكز الزاوية اليسرى من فه: سريعاً ما تملّهم. أنانيون وعدوانيون ومنقسمون. دعك منهم.

قلت: أنا لا أعرفهم. وابتده غامزاً: لكنك تعرفني.

في الايام الاولى من تعارفنا توجست منه. كان لا يُجارى في المماحكة والقدرة الخارقة على اصطفاء الكلمات، وكان يمتلك طاقة خاصة للنفاذ نحو الداخل. منذ الدقائق الاولى للقاء كان يجهد في استقطاب قراءاته وتجاربه ويبدأ لعبة التحليل.

وسواء أكان مصيباً أم مخطئاً فسوف تسمح له وتنكمش أمام طغيان أحكامه المتميزة. كان في صوته وطريقة حديثه رنين مقنع يرغم على الاستجابة له.

بعد أن انتهى من الطعام مسح أصابعه بقطعة خبز. تجشأ وهو يتناول لفافة وطلب ان أشعل له. سألته لماذا يتهم المثقفين على هذا النحو وهو منهم، فهز رأسه قائلاً بأنه لا يتهم أحداً وان المثقفين في البلدان المتخلفة يعيشون عالة على المجتمع: حفنة ثرثارة تتحدث في النظري بعيداً عن واقع وآلام الناس. القراءات الضحلة حولتهم الى ممثلين كاريكاتوريين وأدعياء يرون العالم من أعلى. أنا لا أدينهم ابداً فقط أشرح حالتهم النفسية وانا أهوى علم النفس التحليلي، هذا كل ما في الامر.

قلت: وماذا عنك؟

واخترقني بعينين فيهما بريق غريب، ثم انخطفت عيناه مغطياً ارتياحه بضحكة تحمل ايقاعاً مؤسيا: نخبك. ورفع كأسه. بعد امتصاص الخمر امتعض: أية خمرة رديئة وسامّة هذه!

– العرق أقل المشروبات مضايقة في النهار القادم.

– منذ متى تشرب الخمر؟

– بالتحديد لا أذكر.

– تبدو سكيراً أصيلاً.

– بالوراثة ربما.

– هل كان يشرب الخمر؟

– بالخمر مات. ظل يحتسي الخمر طوال أربعين عاما حتى تسمّم الدم.

– كان خائباً في حياته لا بدّ!

– اذكر له كلمة لا تنسى: حياتي ليل طويل لا فجر له. سأموت ولن أرى يوماً أبيض قالها منذ زمان طويل في خيمة قرب البحر. يومها كنت صغيراً لكنها انحفرت في ذاكرتي كموته.

– يبدو أنك ورثت ذلك الليل. وأردف: حياة الانسان في العالم–كما يقول ماكبث–حكاية يرويها أبله مليئة بالصخب والعنف.

كانت الجلبة في باحة الحديقة تزيد ثقل الجو المحيط الذي طوقنا، واقترحت أن نخرج الى الشوارع هرباً من هذا الضيق.

في شوارع دمشق المضاءة والمعتمة، ترنّحنا. قليلاً تحدث، وكثيراً بدت الجهامة والاسى في روابي وجهه المحروق. وبشبابته توجّع بأحزان دمشقية سكنته منذ أيام الجامعة.

كان يسير قربي، لكنه كان وحيداً كغصن مقطوع من شجرة ماتت. ولكنه كان عاشقا.

– عندما تصبح المرأة وطناً ورواية وأماً. بكآبة رمى جملته في الفراغ. وهو ثمل بأحزانه، ووجع خيباته الماضية التي ركمها الزمن داخل كهوفه.

– وعندما لا تطال ذلك الوطن!

كان السكون يوشح دمشق. وانعطفنا عبر الازقة الضيقة.

مذ نال شهادته الثانوية فقدَ بيته وهاجر. حتى الاصدقاء والمدن ظلوا غرباء. وقليل من الامان نما في نفسه، ولقليل من صحابه ركن، واحتوته المدن الغريبة، لكن دمشق ظلت عشيقته السرية التي لا يطالها. كانت موئل حكاياته القديمة، والمدار الذي يصحبه بعيداً عن وطن طفولته بعد أن ماتت أمه وانطوى أبوه في تراب الذاكرة.

– مذْ ماتت وانا أعشق جميع النساء بحثاً عنها. نادراً ما أرى أحلاماً، لكن جميع أحلامي كوابيس.

– هل تراها في أحلامك؟

– دائماً ارى نفسي معها.

– وامتد صمت. قطعته: لماذا يحدث ذلك؟ أنا أيضاً ما أزال أرى أبي الذي مات منذ أربعة عشر عاماً في أحلامي. وقال: أرى نفسي داخلاً فيها.

– وأنا أراه ينهض حياً ويعود الينا. نادراً ما أرى أمي.

– ربما كانت أمك سيئة. أما أمي فكانت ملاكاً.

– وابوك؟

– كان اصماً.

[]

ليالي دمشق مرايا وأشواق ومكمن أسرار. بعد الثانية عشرة يهمي صيفها الياسميني العليل، فيورق الجسد بالحيوية والحركة، تتظلل النفس بالاسى وبعشق وهمي منتظر، يشيل في النفس شوقاً لامرأة وحيدة في غرفة يانعة بالضوء الباهت ومسرات الجسد. حلم. مجرد حلم.

ها هم يعبرون. يترنمون فوق الارصفة وفي عرض الشوارع. مخمورون. عشاق. مقامرون. وحزانى، يضرمون النار في هشيم الزمن فيتألق ظلام دمشق بالذكرى والوجع السرّي.

– دمشق مدينة الوجع.

– دمشق مدينة الف ليلة وليلة.

وانفتل نحو بيت اخيه.

سمعت خطواته تدق الدرج بايقاعات موجعة، بينما كنت أنكفئ وحيداً نحو غرفة «امينة».

ثلاث نقرات على خشب الباب الموصد. أنَّ السرير ثم خمد، ووهنت خطواتها الفزعة. صرّ الباب بوجل، وزمقت في العتم. عانقتها والخمرة في رأسي وهج ودوار.

ضممتها بقوة فانطوى لحمها مضغوطاً تحت وطأة جسدي. تحت ثوبها الليموني الناعم، بحركة غريزية، أدخلت ساقي اليمنى، تخلصتْ من وحشيتي الشهوية، وابتعدت قليلاً وهي تهمس: لم ينم بعد. على مهلك.

– ما زال ساهرا يشرب؟

وأومأت برأسها، ثم قادتني نحو الخوان الملتصق بالجدار. جلسنا متلاصقين. لحمها الطري تحت يدي، وفي الظلمة انطلقت كلماتنا المجنونة: كالمعتاد أنت مخمور أبـداً.

وقلت: أحترق شوقاً اليك.

– دائما في جسدك حريق.

– ما ذنبي إذا ماكنت شهية كفطر البراري يا أميرتي الجميلة.

وقرصتني مبتسمة بعذوبة من تتلقى عشيقاً في أواخر الليل، لن يلبث أن يُلهبَ جسدها الغافي الحزين.

– انت شهواني.
– وأنت مثيرة.
– تلتذ معي؟
– احس بالموت.
– وبماذا تشعر ايضا؟
– بدوران الارض واهتزازها.
– وبعد الدوران؟

وضغطتُ ما بين ساقيها مبدِّداً الجواب. رفعتها ومددتها على الخوان. همست مُحرجةً وهي تلتفت نحو السرير: انتظر ما تزال مستيقظة؟

كانت ابنتها مستلقية على طرف السرير وقد دفعت اللحاف وطوته تحت قدميها، مستديرة نحو الجدار كأنما تفسحُ لنا عن غير ما قصد.

– خائفة.
– متى يرحل خوفك؟
– اخاف حتى الموت. عندما نتزوج تصبح حلالي وأماني.

بعيداً أوغل اصابعي. أدعها تسوح عبر مروج حريرية عذراء، وبيدي الاخرى اجمعها صوبي ثم أغور فيها. كلها ملكي. كذلك الليل والعالم. في جميع ذرات جسدي يرتقي شوق طبيعي يطلب التلاشي. كنت مسحوراً معمداً بالبهجة. ممركزاً في هذه اللحظة التي تشبه الغياب المطلق.

وما كانت تملك مشيئة.

منذ عامين سقطت ارادتها في بيت آخر قائم في الضواحي بين الاشجار والنهر، عندما ودعتني الى الباب.

في تلك الليلة قبلتها فقط، بحمى متوحشة على فمها وعنقها ووجهها وخلف أذنيها وبين ثدييها. وفي ذلك المساء عرفت أول ذهول جسدي كما عبرت فيما بعد؛ بقيتْ اسبوعاً مدهوشة لا تصدق ما حدث، وفي نهاية الاسبوع استفاقت عارية بعد ان اعطت جسدها ونفسها بحرارة امرأة لها زوج مخمور مسنّ، هجرَ مخدعها منذ اكثر من عشرين عاماً.

على الارض مارسنا الجنس الانساني العذب، وكامرأة مهجورة، جسدها لم يتفتح بعد، كانت حارة وحيوية.

في الغرفة المقابلة كان زوجها يسكر ويسعل. نور غرفته يرمي رشاشاً من ضوء نعس نحو غرفتنا.

[]

وغبّ جميع الليالي التي جمعتنا، كنت اشعر بالذنب. لا لأنني اعطي جسدها المهجور الغبطة والحياة، انما لانطفاء حي لها بعد موت الحيوان الناغل تحت جلدي.

وفي القرارة ما كان هناك أي اثم ديني رادع؛ كنت أبقى كحجر بعد أن ننتهي، احدق في فضاء الغرفة والظلام، والطفلة النائمة، ثم أنعطف الى نفسي، كابحاً رغبة لعينة تهيب بي أن اهرب عارياً في شوارع المدينة، بعيداً عن هذا الاسترخاء وعن هذا الزمن الذي تحجّر بيننا.

واذ اعجز، يصرخ بي وجع غاف: لو نعود الى الثواني الاولى، الى لحظات ما قبل الموت. ونظل هناك!

في صمتي وبعد ان تمّحي اللغة على تخوم الجسد، تحضر منى، فيطل ذلك الانهدام القائم بين عالمين متنائيين عطبهما الكوني عصي على الرأب. تتحول الاسئلة والحوارات الداخلية الى نوع من صكوك الغفران والتأنيب.

هي ذيْ رمم العالم القديم، والشموس الجديدة، وروائح القيم المضادة للرغبات، تحاول ان تطل من مداراتها، فتتحول النفس الى ساحة حرب.

أأنت تخدعها اذ تقول لها: أحبك؟ وأنت تود أن تقول: أنت ثأري الخاص. وبطفولة امرأة سحقها الزمن، تحكي لك انها هجست بك منذ اعوام طويلة. منذ دخل البرد والوحدة وهجعا في سريرها. وانها كانت غريقة تغوص نحو القاع يوما اثر يوم كحجر منسي، وفي الاحلام كانت تراك مقبلاً عليها فاتحاً ذراعيك لتضمها الى صدرك العاري وتسحبها نحو سطح الحياة، الى الدنيا المضاءة بكل افراح الانسان.

– كنت احس انك مسافر ولا بدّ أن تعود.
– أنا؟
– أجل انت بلحمك ودمك. عيناك نفسها وشفتاك وصوتك الدافئ.

وتمسح وجهك بأصابعها الرقيقة، تغلغلها في الشعر والصدر، ثم تمسح وجنتيك وتهمس: حبيبي متى نتزوج؟

كالصفعة يهوي السؤال. اسأل منى السؤال نفسه فتصمت تدير ظهرها وتمضي.

لحظات وأتخلص من طوق ذراعيها، ومن اصابعها الهرمة. أتجه بهدوء نحو الباب وهي تودعني. خطواتنا واهنة والليل داخل جسدينا خرابة مهجورة: قبلني.

مع الجسد كان الحوار. حدث ذلك تعثّراً. حرف واحد لم يكن له معنى بعد طقوس الخرق. ولو قلت لها الاصحّاء وحدهم المؤهلون للزواج ونحن عارض مرضي، لاعتقدت انني اخاتل هرباً منها.

من اجل ذلك استمر احساس الخيانة وتعمّقَ الاثم. وعلى مدى الزمن ظلت منى وريثة الله في أعماق نفسي وظلت أمينة الجرح.

[]

وفي زمن ما كانت أمينة صبا مشرقا كشمس تولد في صباح شتوي. كانت تموج برغبات تنزع لتسرح تحت الشمس: تخرج متى شاءت. ترتاد السينما والبراري المعشبة. تحب من تنتقيه في الاماسي والنهارات في الشارع والمقهى، في غرفته الخاصة وفي بيتها. واذ تتعب منه وتضجر، تهجره وتبحث عن مسرة اخرى.

لكن أمينة كانت تعيش في عالم يراقب بصيص عينيها، ووقع قدميها، وتسلل خصلة من شعرها خارج حجابها الكالح. طفلة سقطت خطأ في بيت متعصب يوما، في وطن متعصب، وكان الرعب الذي ساح مع دمها منذ الطفولة، هو الرجل الذي صوروه لها. الرجل الذي يفترس الطفلات على دروب المدرسة وفي البراري والسينما. لذا كان عليها ان تتوارى داخل بيت ثقوب نوافذه كخرم الابر، توصوص منها في ساعات الغفلة بانتظار بعلها الشهم.

وقالت: عندما نَمَوْت وأفعمت الرغبات الصغيرة جسدي ونفسي، اختارت لي أمي زوجا يزيدني عشرين عاماً. رجل تافه، غبي يعاشر العاهرات، ولا يعود الى البيت إلاّ ثملاً.

وتضيف: لم أعرف اللذة الا معك. ثم تردف عبارتها بضحكة ماجنة تخرق طبقة الحياء.

وأقول: في البدء مانعْتِ

– حياتي حبل من خوف.

– لكنك امرأة بديعة التكوين.

– زوجي حمار.

– لماذا لم تفصحي مذ عرفتني؟

– المرأة لا ترتمي في حضن رجل ولو عبدته من الوهلة الاولى.

– ولكن لماذا لا يتخطى الانسان خوفه اذ يرغب؟

– المرأة هنا لا تستطيع وأنت تعرف هذا.

– أليس الحرمان أقسى من جحيم الخوف؟

– دائما كنت أرى عين والدي والنبي تراقبني.

وقلت: ما الذي كانت تقوله؟

– الحرام.

– اليس حراماً أن تموت حياة انسان مثلك في مغارة مظلمة ليس فيها غير الاصطبارات والالم؟

– الدين يقول ذلك.

– والانسان ماذا يقول؟

– الله يقول: اياكم والغواية انها من عمل الشيطان. امي علمتني ان اقرأ آية الكرسي عندما يوسوس لي الشيطان.

– وهل كنت تنامين بعد ان تلعني ذلك التعس السيء الحظ؟

تضحك. واذ أسألها ان كانت تعرف من هو الشيطان؟ ترفع كتفيها نفيا: لا أدري!

– انا ادري. من سجنوك وقوّسُوا حياتك وحرفوها عن مجراها الطبيعي هؤلاء هم الشيطان. اعني اسرتك المحترمة ورعب النبي.

– انت شيوعي كافر. وتضحك بخوف باطني.

أهمّ بها حاضناً جذعها العلوي. أضغطه بعنف. وانا ألتحم بها أودّ لو أقول لها شيئا عن سوية الصلات البشرية والحرية التي تنبع من الداخل وتعطي الوجود معناه. لكني ادرك أن مفردات اللغة بيننا هي محض حركات عضوية موقوتة.

– انا ارغبك وهذا كل ما في الامر. وأهجع جوارها.

في غرفته انطفأ النور فانتبهنا. وعلى غرفتنا الموسومة بالحرام، خيم عتم له رائحة الخيانة. في الظلمة بدونا شبحين. توقع خوفها ان يطرق باب غرفتها. وخيل الي انني اسمع خفق خوفها الراعش. على الباب وقفت منصتة لصدى الخطوات. كنا مصلوبين على خشبة الصمت في حركة الزمن القلق.

مضت لحظات كحّ خلالها بصوت مسموع. ثم خمدت الاشياء وغاب الخارج.

في الظلام التام، داخل ليل دمشق الرخّي، عامَ البيت. كالحجارة كنا نغوص في بحر الليل، فجأة دقّت ارض الشارع خطوات قرب النافذة. تنصتنا. راح صوت الخطوات ينأى.

وبحذر شقت النافذة المطلة على الشارع ثم أغلقتها: الحارس الليلي. قالت الكلمة بهمس.

فوق رشاش الضوء الشحيح المرتمي من المصباح الاحمر، وقفت. وبحركة أمان وشوق جديد ازهرا فيها، رمت ثوبها. كانت تقف الآن في رشقة الضوء. جسد ثلجي مرشوم بالظل والوهج. كان الجسد ينادي الآن.

وبحيوانية دافئة، تمددت على مسار الضوء، فوق سجادة الغرفة، وراحت تتلوى وتئن.

قالت النفس وهي تقبل: «هي ذي المرأة الشرقية المزدهرة في ليل عبق عندما يسكن خوفها التاريخي وتشتعل.»

— ٥ —

قد يكون هذا حلماً أو حقيقة، لا يهم. زمن العربي يمضي بينهما. لكن السؤال الابدي الملح: لماذا نولد ناقصين؟ واذ لا نجد جوابا، نمضي عبر دروب ملتوية، حافلة بالانكسارات، والشكاوى، وايقاعات الاثم.

خلال ازمنة متعاقبة، نبني جسوراً. أحد ما لا يودّ أن يكون الضحية عن قناعة، وأبداً نصطدم، نتشتت نحو جميع الاتجاهات، صوب كل الرغبات ونقول: لعله الدرب الذي ينجينا فنصل!

ونخسر. يربح الزمن ونخسر. تظل الدروب كما كانت، ويتيه ذلك الذي من فرط ما حُرم، يستمر باحثاً عن النجاة واليقين مفتشاً عبر جميع المنعطفات عن نفسه التي عطبها التاريخ والوراثة والتأمل المثالي الأخرق.

عندما كنت اعتقد انني اتخطى، كان يخيل الي انني اخسر عمري في كل خطوة، شبيه كرة تضرب جداراً صلباً وفي كل ضربة تنقص المقاومة، يتهشم جزء من الكرة بينما يظل الجدار قائماً لا يتزحزح.

ورغم التساؤلات عن امكانية خرق هذا الحائط الناهض داخل النفوس منذ آلاف الاعوام، كان الاستمرار في محاولات التخطي يعطي تبريراً لاستمرارية الحياة نفسها ضد الخدع وضد هاجس الانتحار.

وفي تاريخ الوطن والتاريخ الشخصي لن يسألك احد: ماذا تريد؟

واذا ما سأل فليتحدى. ناشراً في وجهك زنخ فرديته التي ألفها وألهها خلال الاعوام الطويلة العريقة، خافياً في ظلالها كل عجزه وكل سقوط قومه: ما تريد ليس ما يجب ان يكون. ما يجب ان يكون هو ما أراه أنا.

وفي ذلك الصباح والفرح قمر ساطع ينير كل سهول النفس ومنحدراتها، سألت

تلك الام الوحيدة : الى اين تتركنا وترحل؟ وفي ذلك الصباح أجابها فرحي : الى الشام.

وقالت عجبة : الشام! وماذا لنا في الشام؟

قلت وانا اودعها : طلعت عليها شمس الفقراء التي لن تغيب بعد اليوم.

وتمتمت وهي تدمع : ليكن الله معكم. يا بني لا تنسَ نفسك في تلك البلاد. تذكر يا بني أنّ الغربة غدارة!

وقبل ثلاث سنوات أذكر كيف كان العالم في رأسي نقياً، مفعماً بآمال بلا حدود، وكيف كنت احلم بمنى : حريتي ووطني وزوجتي وطعامي وشوقي للمسرات النهارية والليلية.

آه. كم اشعر الآن بالمرارة. وكم يؤرقني الجرح وانا أرى الشمس وهي تميل مكسوفة وقد لوثها غبار الاعوام، لطّخها الزمن حتى كدت انكرها، وانا ارقبها في حجرتي المغلقة عاجزاً عن مسح ركام الغبار عنها، قاصراً عن ردها الى طفولتها الاولى التي أسرتني فاستوطنت أشعتُها اعصابي.

ولكن ما فائدة كل هذا الأسى. كل هذا الانتحاب الذي تحول الى نوع من الممارسة السادية لأجيال تسير مقهورة محنية يسوطها ماضيها وإرثها البالي. الاجيال التي وسمتها منى بانها ملوثة بلا استثناء؟

التصدع حدث وكفى.

ولكن هل كان ذلك في أعماق النفوس؟ ام أن التجربة هي التي مخضَتْهُ بحكم النقص؟ ام انه محض تشوش ذهني نتج عن استطالة المثال الكبير في الرأس؟ ام هو العجز التاريخي؟

زفيف الريح في الخارج. كل الابواب تلوح موصدة. ودمشق كعبة المثقفين والانقلابات المفاجئة وقطب العالم، صامتة تحت ضربات الريح، بعد ان هاجرت منى من النفوس وانطوت تحت غبار الذاكرة.

وتحت الريح وطن ما عاد كما كان، كما لونته الاحاسيس ووشّته بألوان الحرية والخبز والمجد والأفراح الدائمة. مقيم هناك في أماكن غريبة، سرية، متربصة، يخفي تحت ابطه مدية ورصاصة. في عينيه ضجيج إدانة وتوجس، وعلى وجهه سيماء ذعر وإرهاب.

توقع انفجار سيحدث اليوم أو غداً.

[]

على شرفة بيت أخيه كنا نسهر. تحتنا الشارع وفي مواجهتنا عمارات متلاصقة. وفي الطابق المقابل راحت حركة دائبة لصبية وأختها الصغرى، تستهدف انتباهنا. وفوق المدينة تقوست سماء مبهجة.

صامت. وهو في أتم حيويته يتحرك بين الشرفة وداخل البيت.

– راقبْ نازك.

ورفعت رأسي. كانت عيناه مفعمتين بوميض خاص.

قلت : كم تقدر عمرها؟

– أحد عشر عاماً.

– والأخت؟

– تجاوزت الثامنة عشرة.

– من تشتهي؟

– الأختين.

– في سرير واحد؟

وشالت قهقهة : كل نساء العالم لا تكفي الجياع.

وناولني لفافة ثم أشعل لي ولهُ. كانت اللفافة مغروسة في زاوية فمه اليسرى. نترها ونفخ الدخان فاتحاً فمه كعصفور جائع : اللفافة تعويض عن الثدي.

كغمامة عبرت منى. صبوة حادة ارتسمت على محيط العمر فوشمته. عصيّة على الأخذ، عصية على الهجر، وأنا من الداخل وحيد كذئب في صحراء.

– أنتَ حزين.

واختفت الغمامة. كان يقرر جملته بثقة.

قلت : المثقفون هنا كطحالب البحر.

غرغر ضحكة مبتسرة : بالتأكيد لم تكن تفكر بالمثقفين.

وقلت : ليس ذلك مهماً. المهم ماذا نقدم نحن. خمر. ثرثرة. تحليلات اندفاعية. حفرٌ مضنٍ عن الحرية والمرأة وأشياء أخرى لا تطال. آه. أي سخف!

– نقدم الحزن المختمر أليس هذا كافياً؟

في الفراغ قذف اللفافة. وهي تهوي وتقـع محدثة بعض الشرر فوق

الاسفلت. ظل يراقبها حتى خمدت. وإذ حدق في الأفق الشاحب رأيت كآبته: نحن مقذوفون في فراغ.

وفي ذلك الغروب ندخل في أول نقاش حاد حول الفرد والحرية، حول الثورة والمجتمع، وحول التنازلات الخاصة والعزلة وبداية الانهيارات.

يبدو «راني» مماحكاً كعادته. من خلال وعيه الشخصي يفسر الثورة رافضاً التنازلاتَ التي تؤدي إلى الإصلاح تحت غشاء من الواقعية المناقضة للثورة، محتجاً على هذه المقايضات اليومية الموسومة بالخوف من التغيير الجذري: الثوري يحرق كل الهشيم الكاذب ولو أدى ذلك الى إحتراقه في النهاية. إذا لم تتغير العلاقات القديمة فنحن نبحر في سفينة مصدعة تتخللها المياه يوماً بعد يوم والنتيجة هي الغرق.

– نظرياً هذا صحيح. ولكن هل نستطيع؟

– لا تتحدث عن الظروف الموضوعية. هذه مقولة الجبناء. هناك خريطة رُسِمت عبر الماضي بشكل خاطئ وأنا أملك القلم والتصور الذي ينبغي أن يكون. ما الذي يمنعني من رسم هذه الخريطة على النحو الصحيح؟

– الناس ليسوا خطوطاً. والمجتمع ليس تعبيراً في مرتسمات الحبر!

– إسمع حتى الآن لا أعتقد أنك إنسان تبريري. أنا أخاف مثل هذه الزمرة إن لم أقل أنني أرفضها وأحتقرها. قد تحتاج العملية تضحية ومخاطرة وانا أرى الثوري فدائياً ونبياً. أنا أرفض السياسي المناور.

يهمد راني. يبدو عليه أنه بذل جهداً طارئاً استقاه من عالمه التجريدي، ومن باطنهُ النفسي وحقده على تراكمات الكتب، والكذب المحشو به تاريخ العرب فأصابه منه رذاذ. نحو نازك يرنو بعينين ترميان سترها الخارجي. يتناول شبابته وتتنامى موجعات الحزن.

ليس سهلاً أن تعمّر صلة، ومع راني يبدو ذلك رهيفاً كحرف الشفرة، وكما تبرق وتتداخل ألوان قوس قزح، كذلك كان يبدو طقس نفسه.

بعد أن تعب من العزف، تناول سيكارة واستدار بعيداً عن مرمى الصغيرة.

عن روايته التي يكتبها، حكى أشياء مثيرة وحميمة إليه. تحدث عن الإبحار العميق نحو داخل الأشياء، عن الهواجس والكوابيس وكشوفات اللاشعور، والمعاني المستنبطة من خلال الضعف البشري والعلائق السرية.

وإذ علقت أنها على ما تبدو رواية سوداوية. احتجّ غاضباً: بل هي رواية قومية بطريقة الإلتزام النفسي عبر الخلل الإنساني.

واستطرد: الوحدة العربية لن تقوم إذا لم يستطع اثنان ابتناء وحدة بينهما.

بيننا لم تكن مسافة. كنا ندخن باستمرار وبحيوية، والجو مترع برائحة صميمية.

كانت العلاقة معه ذات نكهة خاصة. تحس من خلالها أن العالم خصب، واسع لا يحدّ. ورويداً تبدأ حواجز التوجس والإحباط بالانهيار. وفي مكان سري من الداخل تحاول تلك الصلة أن تزغف كما ينمو الفجر.

– «حياة الإنسان متاهة والنفس فصول». قلت ذلك كأنما أهمس لنفسي. وبدا ذلك احتمالياً يخص من اختاروا الابحار إلى ما وراء الظواهر، الذين أسماهم رامبو «الملعونون»، والذين يدمّرون أحاسيسهم للوصول إلى العالم الحي المقفر.

كذلك حياة منى، كانت تبدو لي حالة زئبقية عصية على الركون والسكينة. جيشان دائم.

[]

لعبة الكلمات والنفس، والرصد المرهف الشبيه بحافة مدية للناس والعلائق والأحاسيس الخاصة، والهجرة الدائمة تحت جلد الأشياء، لعبة مسلية ورائعة، تخلق إحساساً متجدداً برؤية العالم، معمداً بالدهشة والامتياز. تعطي العمر طعماً خصوصياً يشبه دينامو يولد باستمرار شحنات ما أسماه لوركا «الروح المبدع».

معاً كنا نحس نبض الحياة المتدفق في عروق النفس؛ كنّا كلونين في قوس قزح.

نزلنا الدرج وفوق اسفلت شوارع المدينة، سخنّا.

دمشق مدينة ككثير من مدن العالم: عمارات من حجر، وشوارع يعبرها الناس والسيارات. أماكن خاصة وعمومية، بيع وشراء، لكن الوجه الآخر يغفو تحت الجلد الظاهر. يشفّ ذلك الجلد إذ يغيب الإنسان عن سطوح أشيائها ويهيم في ليل صامت شفاف.

من خمارة قريبة تناولنا خمرة. وإذ ابتعدنا عن أبراج المراقبة قال راني: إفتح يا عزيزي الشبل.

بأسناني فتحت السدادة وقذفت بها، وناولته. شرب فامتعض. تناول شيئاً يؤكل من كيس ورق.

شارع وشارع، ثم آخر وآخر. نسوح ونشرب ونثرثر.

– جيل خرع نحن. قال.

– لماذا لا تقول محروم، لم يرتو من حليب الثدي.

– والعصر إن العربي لفي خسر.

– ألسنا احتجاج العصر؟ قلتها بدراماتيكية ساخرة.

– ضد من؟

– ضد أنفسنا.

– أنا أرفض الإدانة. الإنسان مسوَّغ أمام نفسه.

– أنا لا أدين. لكن الإنسان حرية.

– إنساننا صفر.

– والوطن؟

وقال بنزق: يا أخي مصاب أنت بعقدة الإثم؟ لوثتك السياسة.

– أبداً. فقط أود لو أستطيع أن أفعل شيئاً من أجل وطني. وكنا قد انتقلنا إلى ساحة الجد.

وقال غضباً: كيف تفعل وأنت معزول. وأنت لا شيء في حساب الزمن والوطن والتاريخ؟

وقلت جاداً: ينبغي أن نغتصب الحرية.

قهقه وهو يدفق الخمر في جوفه: الوطن امرأة ورواية وصبوات تتحقق.

وقلت: وهو أيضاً انخراط في عمل قاتل. (كنت جاداً أكثر. الداخل تحرك وانخرقت طبقة اللاشعور).

ونخر: موت مغامر من أجل لا شيء. نحن منفيّون يا سيدي الثوري. خريف عابر في فصول الزمن العربي!

غمرني حزن وشعرت بحصار. كان رأسي موشكاً على الانفجار.

عن سياج حديقة المزرعة وثب وصاح: هيا أيها الفدائي!

على المرج الندي استلقينا. كان القمر فوقنا قطعة من نارنج، والحديقة مضاءة والشجر ساكناً.

– نخب الأحبة!

وغبّ طويلاً. نترت الزجاجة من فمه: تريد أن تقتل نفسك بطريقة سخيفة!

– ماذا بقي لنا غير الخمر؟

أشعلنا لفافتين: أحلم أن نتشرد سوية ونجوس كل مدن العالم. تصور أن يمضي عمرنا هنا في هذا الكهف النتن!

– هنا مكاننا.

– ما الذي نفعله؟

– الحفر في جدار الكهف حتى الإدماء لفتح كوة صغيرة للشمس. (كنت أرد على سلبيته ولوني الخاص في قوس قزح) وصاح وهو يقهقه: الوطن: ها. ها. يا للوطن المسكين المُوطأ. قال ذلك بحزن فاجعي، فداهمتني رغبة نحيب.

بشبابته أمطر لحناً ريفياً شديد الكآبة سامَرَ الصمت وأوقد الحزن. كنا ندخل الآن نسيج الليل والوحدة النفسية. تذكرت طفولتي النائية، وأصدقاء الطفولة الذين تاهوا. قلت: غنّ لنا هيهات يَا بو الزلف.

غبّ الكلمة أهمت دمعة حارة. سالت حتى شارفت فمي. ذقت طعم وطني الخاص. على غير توقع أيقظنا ظل الحارس الليلي مرتسماً على العشب.

[]

منى. مدينة السلام المبنية في الذهن بعد أن انفجرت مدن الواقع فصارت شظايا. بواباتها المخلّعة ممرات للريح.

ومنى سلام مفقود. سراب ألهث وراءه قبل هبوطي دمشق.

عرفتها قبل أن أراها، وفقدتها قبل أن أكتشفها. لكأنها علاقة مجتثّة ومتصلة في آن. ابتدأنا من نهاية الأشياء وانتهينا في لحظة البدء.

عندما كان علينا أن نعيد تركيب صلتنا على ضوء حالتنا الجديدة، بعد أن بدأنا نفهم الحدّ الفاجعي الشبيه بشفرة الموسى، كانت منى قد استأصلت من نفسها كل أمل بإصلاح الأمور، وهكذا بدت عاجزة عن إعادة أي تركيب آخر. كانت

تقول لي في ذلك الوقت: لا بد أن الإنسان يتشظى كلوح زجاج يهوي من الطابق العاشر. هذا ما يحدث في النهاية.

لشد ما أشعر بالمرارة الآن وأنا أحاول استحضار الصورتين على شاشة ذاكرتي: منى الحلم ومنى المبدَّدة.

المرأة التي كنت أتصورها مغتسلة من أدران قومها، بعد أن تمرست بكل صنوف العذاب والآلام التي طهرتها فكونتها من جديد. كنت أعتقد أنها أقوى وأكثر تماسكاً أمام الصدمة، بل كنت أذهب إلى أبعد من ذلك متخيلاً أن هذا الانتهاك هو الوسيلة الناجعة لشفائها وإعادة خلقها على نحو إرادي، تلعب فيه علاقتنا وحواراتنا الصريحة دوراً أساسياً.

لم يكن باستطاعتي أن أعتقد أنني سأخسرها يوماً رغم إلحاحها الدائم على هاجس الرحيل، وإذ كنت أقول لها أنك تهربين من شئ هو محمول في المسامّ والدم، وأن هذا الشئ سيعود إلى الظهور في أي مكان آخر، وهذا الهاجس ليس أكثر من وهم في لعبة قديمة حاولها الآخرون وخسروا فيها، كانت تردّ بأنني أريدها لنفسي، وأن الرجل هنا مهما بالغ في محاولة انعتاقه من قيود قومه، هو في النهاية يريد المرأة له. يرغب أن يكون ماضيها نقياً وأن تطيعه كعبد. إنها عقدة الآباء والأجداد القدامى الذين ورّثوا أولادهم وأحفادهم فكرة الطغيان. وأضافت وهي تدير إبرة المذياع: أنا أعتقد أن أي رجل في شرقنا إذا لم يكن طاغية لا بد أن يحمل في دمه بعض صفات الأنوثة. وهكذا ترى أن الذنب ليس ذنبنا. أعني لسنا أحراراً كما ينبغي. لست أدري لماذا كنت معها وضدها في الوقت نفسه. ولكي يتوضح هذا الإبهام المختلط علي، كنت أحلم بالخروج معاً من هذه المدينة التي بدت لي وكأنها قد ضربتنا بلا شفقة في مركز من مراكز الإحساس فأفقدتنا بعض صوابنا.

كانت فكرة الرحيل معاً ذات حدين: الفوز بها لأنني أصبحت أحبها على نحو شبه مرضي تاخَمَ حدود الهوس. وثانياً لتحقيق ذلك الوهم الملحّ وهو أنني ومنى نستطيع أعادة بناء كوننا بشكل جديد خلاق.

كان التصور الثاني شبيه حلم أسطوري. يحمل الكثير من الرومانسية في جانب من جوانبه، وفي الجانب الآخر منه –وهذا ما كان يؤرقني– كان يبدو لي أصيلاً وحقيقياً. كنت مأخوذاً دائماً بهذه الفكرة: كل ما هو غير متحقق، يظل حلماً

رومانسياً حتى يتحقق، لا فرق في ذلك بين تناول فنجان قهوة أو الصعود إلى القمر.

في هذه الحالة الخاصة والصعبة، كانت منى هي الضمير الثاني الراقد تحت طبقات الثلج خلال الأعوام الممضّة من النسيان وممارسة الألعاب الشخصية.

كان الوقت غروباً ونحن في الغرفة التي لا تعرف الضوء. منى تدخن بحيويتها العصبية وأنا أحتسي بعض البيرة الممزوجة بالعرق. طلبت منها أن تشرب قليلاً فرفضت. قالت: سأعدّ بعض القهوة. وخرجت إلى المطبخ.

مع الزمن تحولت هذه الغرفة المعزولة عن العالم والشمس إلى ما يشبه المعبد لنا نحن الإثنين فقط. وفي أصائل عديدة كانت تأتي إلى هنا في غيابي. تقرأ أو تكتب شعراً أو تستلقي، وإذ لا أعود تترك بعض العبارات القصيرة أو زهرة ياسمين في صفحة كتاب، وأحياناً تكتفي ببعثرة الكتب على الطاولة أو السرير.

عندما عادت حاملة القهوة، رنوت إليها. بدا وجهها في لون الشفق وعيناها ترسلان بريقاً كانت أشعته تضيْ الغرفة وتضيئني. وهزني فرح غامر: أنها هنا ما تزال!

وهي تصب القهوة حاذى وجهها وجهي فطوقني وهجُها ورائحتها. على خدها الأيسر لثمتها فلم تبدر منها أية حركة. وبهدوء استمرت تصب القهوة.

وضعت لي فنجاناً قرب كأس الخمر ثم تناولت أخرى لها وراحت ترشف: سيكارة. أشعلت لفافتين وناولتني واحدة.

كانت الغرفة ترسو في محيط من الهدوء، تقطعه رشفات خافتة، وإذ استطال الصمت سألت: أيه. لماذا لا تتحدث. أتظل مبحراً؟ ولكزت خاصرتي بطرف سبابتها: عندما تكتئب يبدو وجهك مماثلاً لوجه رجل يساق إلى ساحة إعدام.

– بدأت أحس بالنني.

بدت الجملة وكأنها سقطت سهواً. كأنما شئ فائض هوى فلم يترك أثراً. تناولت منى الراديو الصغير وفتحته. كانت الموسيقى هي الرد اللاشعوري على جملتي. أحزنني برودها. هذه اللامبالاة التي تتقمصها في لحظات الشدّة. قلت: أتعتقدين أنني أبالغ؟ واكتسى وجهها بغلالة ألم. ضغطت بطرف أسنانها شفتَها السفلى ثم تنهدت: لا بد أننا نعذب أنفسنا دونما جدوى.

أوضحتُ لها أننا لم نقرر شيئاً منذ التقينا. فقط نلهو بعواطفنا ونبدد الزمن بهذه اللقاءات التي تشبه المخدّر. لو قررنا فقط أن نكون معاً، أن نظل معاً، لكان من الممكن تخفيف وطأة المنفى: هذا ما أشعر به على الأقل.

ضحكت بمرارة: أتعتقد جاداً ذلك؟

خيل إلي أنها تهزأ من فكرتي، فسألتها عن وجه الغرابة في الموضوع بعد أن تصدعت الآمال وابتدأ النزع داخل النفوس. رمقتني بتركيز. أغلقت الراديو: إسمع أنت أما حالم أو مجنون! هل سمعت في تاريخ حياتك أن باستطاعة اثنين أن يبنيا العالم من جديد؟ ثم أنا وأنت من الذي قال أننا نملك كامل حريتنا؟

كانت تتحدث بصوت طبقاته وصلت أوجَها وهي تسأل سؤالها الأخير.

في ذلك الغروب الذي أذكره الآن جيداً، اجتاحنا حوار عقلي حادّ ومرير حول الحرية والهجرة واللوثات الداخلية التي راكمتها سنوات الطفولة والاضطهاد والارث. وكانت وجهة نظرها مركزة حول ما سمّته البقع السوداء التي تلطّخ النفس. البقع التي استعصت على المحو.

لقد أوضحت لي يومذاك بأن تلك الندوب العميقة تتحول مع الأيام إلى أصفاد زمنية تأسر الإنسان وتؤطره داخل قواقع لا يقوى على الخروج منها، وهذه القواقع تتحول بفعل الاعتياد إلى قوانين نفسية معترضة، قوانين مستترة تتمرد على المادي والرياضي في الحياة أحياناً. هذه القوانين قد تعطب الوجود البشري وتخلخله.

وأذكر أن فكرتي في الرد عليها يومذاك كانت تتلخص بأن الإنسان اليقظ الذي يحتاز ذاكرة وقادة لا تنطفئ، هو الذي يبقى في مواضع الخطر حفاظاً على حيوية التغيير. ليس المغامر بل الثوري، ولا بد من التفريق بينهما. ومن أجل أن نكون هكذا لا بد من خرق اليومي والتاريخي بلا خوف. لا بد من عبور النار الداخلية في محاولة تطهيرية، بذلك تتألق النفس وتظلّ في مركز الوهج. وعلى هذا النحو يمكن أن نتخلص من العكر القديم.

كانت منى تبتسم على نحو طفولي. قالت: إنك تتحدث كشاعر. هذا إذا لم أقل أنك تنسى الوضع الفَردي والظروف التي تحكم حركة كل إنسان. وسألتها إن

كانت تعتقد أن القوانين النفسية التي أشارت إليها، هي التي تحكمنا فقط. وكان ردّها يدور حول ردود الأفعال الآنية والزمن المستغرق في تفريغ الرغبات الذاتية. ثم

ختمت فكرتها بأن الزمن الذي نحيا فيه ربما كان حلقة بين الانحطاط والتألق الذي أشرت أنا إليه، وقالت بأن التعثر قد يستغرق أكثر من جيل.

كنت أشرب بهدوء، وكانت الخمرة تتلاشى عبر هذا الحوار العقلي الذي اشتبكنا فيه، وقد نسي كل منا أن الزمن الحقيقي بين رجل وامرأة في غرفة سرية يُبدد في أمور أخرى ربما كانت أكثر جدوى.

لكن منى كانت قربي. بيننا بضعة سنتيمترات وقد لفّت ساقاً فوق أخرى شابكة أصابع يديها الناعمتين تحت ركبتها، فبدت بوجهها وشفتيها الكرزيتين، وهذا الإنفساح العالي من صدرها وساقيها، إمرأة يشتهي أي رجل ولو كان قديساً أن يركع أمامها مبتهلاً لهذا البريق الخاطف، الخارج من كل جسدها أشعة وروائح. آه. الجنس الطاغي ليس إلاّ. لكن منى الأخرى كانت هناك. تنأى كقطار ينشر عبوره في المحطات دخاناً يمتصه الفضاء، مخلِّفاً صفيراً داوياً حزيناً، تردد صداه الأودية والسفوح. قطار بعد أن يغيب خلف المنعطفات لا يظل منه في قرارة الذاكرة غير ذلك الرجع الحزين المصدي.

[]

هوذا الزمن بيننا. سيف من صوان مسنون، لا هو يفرينا ولا ينكسر. كنا نبدو منفيين داخل قلعة، شبيه حشرتين متنائيتين في نسيج عنكبوت، وأية حركة لمحاولة الخروج كانت في النهاية التفاف مزيد من الخيوط حول عنقينا.

كان بودي أن أشرح لها هذه الفكرة. أن أقول أن العنكبوت يقترب وعلينا أن نفعل شيئاً ما ولو أدى هذا إلى الموت، غير أن الفكرة بدت غير مقنعة، ومن خلال حس المنفى والصدوع الداخلية، شعرت بأننا أصغر من الحياة التي قُذفنا فيها، أو أن قدراً لعيناً، كنت دائماً أرفضه، يطوقنا، ويبني بالثواني والدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين، ذرات هذا الحائط الوهمي الصلب الذي يقوم على أنقاض عمرينا.

وفي زحمة طغيان هذا الشعور القاهر تتساءل: كيف تنجو من هذا الجحيم؟ امرأة لم تقل يوماً انها تحبك وعبر كل ثانية تمر تشتهي أن تنحلّ فيها وتنحلّ فيك. تفتّتها إلى جواهرها الأساسية الأولى، ثم تعيد تركيبها من جديد صانعاً الصورة التي تريد.

ولكن من الذي يملك القدرة على الخلق وبثّ الروح في الشئ الذي ولد بطريقة خاطئة، من نطفة حملت كل ذلك العطب المُشرب به الدم؟

لشد ما يبدو ذلك طوباوياً رغم أنه يبدو وكأنه الحركة الأساسية لتمزيق شبكة العنكبوت والخروج!

ليل دمشق مسرة خصوصية. داخله تسوح. تحلم. تتذكر وتحزن. ترسم في فراغه الحميم ما تشاء من الصور مشيداً جمهوريات من فرح وعدل، وعلى مدى كثبان الأماني ترتفع عبر هذه الليالي في صحاراك وصحاري الآخرين.

إنه الزمن يلف ويدور. تارة كالحبل حول الرقاب، وتارة كالاعصار. كلمات. كلمات عمّا ينبغي أن يكون ولا يكون، وسباق حار من خلال التصورات. لهفاً صوب أشياء لا تجيء. ارتسمت في الذهن يوماً اثر يوم، تخرج من الداخل فتصطدم بالفراغ والجدران ووجوه الآخرين، لكنها لا تلبث أن تنكمش مع بداية أول ضوء لنهار ساطع آخر، منتظرة هبوط ليل جديد لتقذف مرة أخرى.

هل هو زلزال فردي وجماعي هذا الذي ترتعش به تلك الأراضي البور بعد أن انتظرت طويلاً موسم الأمطار وليس غير الشمس والظمأ؟

[]

وفي ذلك العصر الملحمي، كانت تلك الإرتسامات والإشارات المبهمة، تبدو وكأنها نوع من هتك الستر، في حين أن رموزها الخفية وسرها المغلق، كانا يلوحان كبقعة زيت أخذت تنتشر فوق جميع السطوح مشيرة إلى الخطر، نازعة في الوقت نفسه إلى بلوغ نوع من السكينة والخلاص اللذين طُعِنا قبل سن البلوغ. في أعماقي كنت أحس ذلك البطء في النمو. كان ذلك الشعور الكسيح يجتاحني بعد لقاءاتي مع منى، كذلك عندما كنت أنتهي أنا وأمينة من الفعل الجنسي متمددين كجريحين في مستطيل الصمت داخل فراغ العالم الموحش.

عندما كنت أتجه إلى غرفتها في سحر الليالي الدمشقية الساكنة، كان رأسي الدائخ المتموج يهجس لي أنني ربما اكتشفت نقطة ارتكاز على خريطة جسدها. وأنا أمضي، تنحل فيّ ريح وسكينة المدينة غلالة من أمل حانٍ، فأغفل عن لمعان الضوء فوق الشوارع، وحفيف الشجر، وهذا الصمت السحري، ثم لهفتي وتلك المرثية الصامتة لفجيعة نفسينا أثر انتهاء لعبة الجسد.

ها هي ذي. تقف في الحجرة، وقد ارتدت غلالة شفافة. مجد صباها الغارب قمر على حافة الغياب، تسبح في نهر من الضوء البرتقالي، هو جسري إليها؛ مادة ذراعين بيضاويين مزغبين في ملمس الحرير والعشب. تتلقاني وتقودني إلى سرير أخضر، لوقع جسدينا عليه صوت أخضر، ولحركة جسدها ورائحتها إيقاع أخضر، ونغيب. تتهمني منى بالولوع الجنسي. فأدافع عن نفسي: لا ليس بهذه الدرجة. أنا أحس في أعماقي عرقاً من الصوفية. منى، ألم تشعري يوماً بذلك؟

تقول: لكن الصوفي لا يشتهي الجسد. وتبدأ مشروع ابتسامة. وأقول جاداً: أبداً. صوفي عصرنا يشتهي الجسد والنفس معاً. أنا عنيت بالصوفي الاخلاص حتى التلاشي.

— ها. متصوف مودرن. وتبتسم. أتمم جملتي: ولكن واأسفاه ما أنا بطائل أيها. أفكر أحياناً أنك كالماء عصية على المسك. تنهض وعلى وجهها سيماء كآبة. عارية تماماً على حافة السرير. تنزلق قليلاً. قدماها تتأرجحان. تتوقف الحركة ثم تمد طرف سبابتها تخط خطوطاً فوق بشرة فخذها. أراقبها مستنداً بظهري على الجدار: تكتبين شعراً أم تحصين من اضطجعتِ معهم؟

انزلقت نهائياً عن السرير فلاح كفلها يهتز. اشتهيتها مرة أخرى. عندما هممت أصيح بها: عودي. كانت قد تناولت ثيابها وبدأت ترتديها بانفعال بادٍ.

قبل أن يموت أبي بالتسمم الخمري في الدم، كان يسمي النساء بالعلق: هؤلاء اللواتي يمتصِصْنَ دم الرجل من ظهره!

أتراه كان يدرك أن زمناً غريباً بلا لون ولا طعم ولا رائحة، سيقبل. زمن له كل الألوان وكل الروائح وكل الطعوم وقد اختلطت بكوكتيل غريب. فقط كان يتنبأ بالحرب لأن الكتب السرية كانت تقول ذلك. ولكنه كان يشف ويصفو كينابيع القمم عندما تخترقه الخمرة.

[]

هذه الغرفة الجانبية التي تطل على الشارع فيها امرأة بعمر أمي. وجهها قريب من وجه أمي. دائماً أرى ذلك بعد أن ننتهي، وفي هذه الغرفة أيضاً طفلة في الثانية عشرة. عالمها المدرسةُ والعابُها. إنها تصنع ألعاباً ودمى ولوحات ولا أبرأ منها. تقول: انظر إلى هذه اللوحة! ثم تريني الأصل: قطة تتوسد حضن طفلة تطعمها. تحدثني سميّة عن قطها الصغير. تناديه فيهرّ وهو يهرول واثباً إلى حضنها. تمسد شعره

الأسود فيموء: فريد ينام معي لكن أمي تنزعج منه. صنعت له فراشاً هناك في الزاوية. ثم تسألني بغتة: عمّو. إننا لا نراك إلا لماماً لماذا؟

- العمل سمية.

- نتمنى لو نراك دائماً. لو تسكن معنا. ثم ترنو خجلة نحو أمها.

- وأنا أيضاً حبيبتي أرغب ذلك من كل قلبي.

- تعال إلينا. ماما تريد ذلك. أليس كذلك ماما؟

أمينة تتنهد. تخاتل بكلمات مبهمة مع سمية. أقول لأمينة أن سمية طفلة رائعة فتقول: لكنها بلا أب.

هو هناك بين الحيطان العالية. ذئب جريح في قفص ضيق. الخمرة وحدها تبدو المفتاح الوحيد إلى الصحارى والواحات. افاق بلا مدى تمتد، وفوق العشب غلمان وحوريات وأصداء الزمن المنقرض.

وكان لأيوب عصر وفورات تشبه غضب البحر. مزارع وخدم وأحصنة وأسفار. الأرض بطولها وعرضها كانت في ركاب أيوب السرحان. من أجله تشرق الشمس ويتلألأ القمر وتغني فاتنات (الأوريان بالاس) وهو يدفع ويدفع ويدفع. يشرب ويصرخ، ومن فندق إلى آخر. من مدينة إلى أخرى مع الشلة التي اختارها واختارته. كان أيوب سيد الزمن القديم.

كذبت على أمينة: أنا مريض. الطبيب قال: لو تزوجت فستموت. أنت مصاب بروماتيزم القلب.

وكما تحنو أم التصقت بي وطوقتني. قبلتني على خدي وصدغي وشعري. تناولت رأسي وأراحته على صدرها، وراحت تمسد شعري. كنت أحس وجيب قلبها تحت رأسي. سألتني: إذن لماذا تفعل الجنس بهذه الغزارة؟

وسألتها ان كنت أفعله أكثر مما ينبغي، فرفعت أصابع ثلاثة وهي تنهنه ضحكة: كما يفعل الفحل.

- ثلاث مرات في الليلة الواحدة. آخ لو رآك الطبيب! واندغمنا في ضحكة خافتة مشتركة.

طوقتها بحيوية ضاغطاً بلاطة ظهرها. ورحت أمرغ أنني تحت ذقنها وفوق جلد رقبتها وبنشوة قلت:

أنتِ أعظم امرأة في العالم.

فجأة ردت: عندما أكون عارية. هاه!

أجبت: إذا كان سيدك عفيفاً أنا ما علاقتي؟

- وإذا كنت يا مهذب شهوانياً أنا ما ذنبي؟

هكذا كنا نكتشف اللعبة. كل منا بطريقته الخاصة لحظات السكينة والهبوط. اللحظات التي تبدو لامعة وهادئة كسطح بحيرة اصطناعية.

- ٦ -

أنت شهواني ليس للجنس فقط، إنما لكل الأشياء التي تضجّ في أعماقك. تلك التي ضُغِطت بمكبس الزمن والتي ترتسم الآن كسراب عبر طرقاتك فلا تصل إليها.

آه. هؤلاء القوم. انك تفكر بهم كثيرا وهم متخلّون عنك منذ زمن. لقد بدأت تهتز وتتقطع علاقتك الجدلية معهم. انها علاقة من طرف واحد. ولكن لماذا دفنوا حياتهم الخلاقة على هذا النحو المفجع واستعاضوا عنها بما يشبه الحياة؟

ولم يكتفوا بذلك. ها هم يتحولون الى قضاة وجلادين. ولكنك تتقدم. يخيل اليك انك تتقدم. تقول: ليكن . سأحيا كما أريد فحياتي تعنيني وحدي. تريد أن تنسلخ اذن منسحباً الى طرف قصي. ولكن أين يقع ذلك الطرف المضيء؟

ومن غيابة الذاكرة تحضرها. تحاول ان تشرح لها لماذا العربي في المنفى. كانت تسمع في الوقت الذي تبدو فيه غير مهتمة. بين حين وآخر تعلق على الحديث بنكتة او ابتسامة قائلة: انك تعقد الامور وتبالغ اكثر مما ينبغي. العربي مصاب بعقدة استحلاب الالم.

لكنني اقول: بل انت منفية اكثر منهم جميعاً وترفضين الخروج من منفاك. رحيلك هذا الهاجس اللعين يسد كل أبواب التفاهم بيننا. كوني معي مرة واحدة. منذ سنوات وكل منا يحكي بلغة مختلفة. لغة منفصلة. لكنها كانت تصمت. فقط تتحرك. تنقل شيئا من مكانه. تفتح كتاباً او تقوم بحركة رقص مبتورة او تمشط شعرها القمحي القصير باصابعها الوردية متلعة رأسها الى الاعلى والخلف. لم تكن تستطيع التوقف عن الحركة لكأنها مسكونة بألف جني. كان ذلك يعوّض قليلا عن

الجيشان الباطني الذي لا ترغب في الافصاح عنه، بعد ان بدأت تدرك شكي بعلاقاتها المستترة مع الآخرين.

كانت مجانبتي لهذا الموضوع تسبب العذاب والراحة معا لكلينا. فحتى ذلك الوقت وبعد أن خرجت شكوكي الى دائرة الضوء، لم أكن مقتنعا بجدوى مصارحتها. وفي لحظات وحدتي بعيدا عنها كنت افكر: من أين اوتيت تلك القوة لخلق هذا التوازن بيني وبينهم؟ ولماذا ترتضي ان تكون لنا جميعا دونما حس بالاثم؟

كنت أهرب من الحاح كلمة: بغيّ، لا لأنها لم تكن كذلك، انما لانني كنت ارفض لها أن توطأ على هذا النحو الخسيس باجساد الكذبة والشهوانيين والحمقى والمراهقين، هوءلاء الذين عشقوا رغباتهم العابرة في طفولة جسدها البراق. لقد زرعوا في ارضها الخصبة بذور الشوك والصبار ثم خانوها بلا ندم.

عندما كنت أصل الى هذه المنطقة من حالتها، أتذكر وضعها المنشطر، لحظة تزحف رائحة الجنس الى أنفينا متسربة من احتكاك مباغت لليدين أو الفخذين. اذ ذاك تنطلق شرارة من مكان، فتتوهج العيون ويبدأ القلب ضرباته المتسارعة. كتيار تجتاز الجسد رعشة تتلوها رعشات، وتتحول الغرفة الى غابة والسرير الى عشب، ويبدأ هطول المطر والروائح، فالنار.

في ذلك الوقت الفاصل بين الموت والخلود، بين الحلول بكل ما هو حي وجامد على سطح الارض، والغياب داخل طيف ملون هلامي وصاعق، تنقسم مني متحولة الى شهيد في حالة نزع كأنما يستل روحها ملاك معذّب بينما يغتصب جسدها شيطان.

[]

من أطرف الامور ان هذه الافكار السيئة والمحزنة، كانت تتنامى وانا أغادر حجرة امينة في اماسي دمشق الأسية، عابراً شارع الصالحية وحي المزرعة المظلل باشجار السنسرخت وغياض الياسمين، والمهجور من الناس بعد ان يخمد وجيب الجسد. اثر ذلك كنت اتساءل: هل كانت افكاري نوعا من التبكيت؟ وهل انا سيء في علاقتي مع امينة؟ والذي بيننا هل هو حرام ام شظية ثأر؟

كانت احساسات الخلق حادة. ان تصنع شيئا وتتعلق به بعنف قائلا: هذا خلقته انا. انه لي.

وان لا تنفِّذ فقط وتطؤك الاوامر وانت منحن كغصن تحت ريح، رافضاً الذين طفوا على سطح التيار وانجرفوا.

ثم. مسراتك، حريتك، أرضك الصلبة، أين هي في ريح الضجيج الأعمى؟

وكردّ فعل ربما، كنا نبدد حياتنا بالخمر والكلمات، في محاولة يائسة للتعبير عن الحرية، ومع تسابق الزمن تتشتت طاقاتنا، ويمُسَخ جنين الخلق والفعل؛ تلاشيه وتهرسه قطارات الايام السريعة.

في «الاليزيه» التقينا صدفة. عرفه راني علي. وانا أصافحه تملّيت قامته المديدة، وصدره العريض، ووجهه الناضج صحة وشهوة: الشاعر العذري سامر البدوي.

وضحك راني: شبلي عبد الله.

فجأة أطلق سامر شتيمة. تناول كأسي ورفعه: نخبك ايها الريفي الخجول. وعبّ.

باقتضاب ابتسمت. وانطلق يتحدث بعفوية وفضائح. كنت صامتاً وسط مجموعة من المثقفين، بينهم شعراء وروائيون ومسرحيون، شبيه دودة انكمشت امام خطر حدسته. مذ قدم الى طاولتنا، هيمن على الجو بالسخرية والسياسة والضحكات المشرعة، وبدا حوار راني معه مباحاً وهجومياً. قلت لنفسي: أذو الجثة هذا شاعر؟

كحيوان صحراوي مضى عليه دهر بلا طعام، هجم على المائدة. كان يشرب ويأكل ويتحدث بثقة لها طابع الاجتياح، كأنما العالم ملكه والحاضرون حاشية.

وسأله راني: أراك وحيداً على غير العادة، أين حريمك سامر؟

وبهق وجهه امتعاضا: اسمعوا. اخونا يريد ان ينكت. يا اخي انت تصلح لكتابة قصة وتشبيبة ناي وبسّ.

ورد راني: وأنت لا بد انك تصلح لجمع اسماء عشيقاتك في دفاترك الشعرية.

ابتلعها: اضحكوا يا اخوان ولو كانت سخيفة.

وقال آخر: سامر استعاض عن الاسماء بارقام الهواتف.

وعقب آخر: رأس سامر مقسم.

قال رابع: مهلا يا جماعة. سامر تحول الى عاشق رومانسي. عشيقاته في هذه الايام دون الخمسين.

وشالت ضحكة مثقفة. نشق بأنفه ثم نهَدَ ثم بصق على الارض: لا بد ان السيدة والدتك المحترمة قد باحت بالسر اخيراً.

واذ شعر انه مركز الهجوم، فتل الحديث باتجاهي: راني. السيد.شبلي صديقك الزمّيت لماذا يبدو صامتا على طريقة همنجواي في باريس؟

وقال راني: يستمتع بطلاوة احاديثك الشعرية.

أشعل لفافة «كنت» بقداحة «دوبوّن» أنيقة، ثم زفر الدخان وتوجّه بعينيه الشهويتين نحوي: أخي لا تفتعل البراءة ولا تحتم بها. أيام قليلة وتفضّ دمشق بكارتك. تلوثك ولو كنت المسيح. هذه مدينة الخمر والسياسة والموت والنساء.

طبعاً النساء بتحفظ.

وابتده راني: منك!

– يا اخي ما قصتك انت. محامٍ عنه؟ لسانه بطول لسان الكلب ويستطيع أن يجيب.

ضحك ثم استطرد: عفواً اذا كان التعبير فجًّا. أنا لا اعتذر من أحد ولكن باعتبارك ما تزال بغواً لا بأس. انا هكذا.

وعقب راني: افضل من ان يكون بغيّاً!

جو الكهف اسباني، ذو طعم حار، يفيض عذوبة ووجداً. في ساحة الرقص امرأة تتلوى برقصة ايقاعية لها سريان شهوي مؤلم في اجساد الرجال. سامر البدوي منتش بالحديث والشرب وتحلق زمرة المثقفين حوله، وانا افكر: «كيف قذفت في هذا العالم الغريب؟»

أية وحشة واي ضيق لا يمكن الافصاح عنهما. أحسست انني ضئيل، مرمي في متاهة. عبرتني فكرة المغادرة بعيداً عن العيون والناس والوجوه المخيفة: «لماذا بي ذعر من البشر الشديدي الملامسة حتى لأكاد أشعر بهم يهبطون بثقلهم علي؟»

تملكتني رغبة الجري في الشوارع والخروج الى البراري الموحشة، وانا أحدق في المرأة التي تتلوى كأفعوان.

كانت الرغبة في كل مكان، وكانت لها رائحة تُشمّ في العيون والاجساد، في جدران الكهف وفي الخمر، وفي وجهها المتأجج. كانت تلبس فستانا مشمشيا محسوراً فوق الركبتين، يظهر بلاطة ظهرها الياقوتي المحروق، ويبدي قليلا من أرومة ثدييها الموقعين بارتجافها علاقة تمتد منهما الى أعماق الرجال.

وهي ترقص حافية، بدت تواصل لعبة نرجسية، فيها مهارة، وبين فينة واخرى كانت تغطي عينيها بأصابعها بذلك الخفر الأنثوي المفتعل.

كان الضوء شحيحاً. ثمة غلالة صقيع تلفح الوجوه والجلد العاري.

وهذه الموسيقى التي تنشر الروائح أكثر. النقاش مستمر في عالم صاحب ملفع بضباب خمري بينما سامر البدوي سيد هذا العالم، مستمر في تأكيد وجوده الاعظم.

عن الشعر والصداقات والنساء والخمر، حكى. كان يبتسم بعذوبة حينا واحيانا بمرارة، وهاجموه، واثنوا عليه.

وقالت النفس: «ماذا يحكي انسان خائف مثلي في محيط يتقن بحّاروه العوم وهو لا يتقن السباحة بعد؟»

وانضم الى الحلبة نساء ورجال. وهمس لي راني: رقصة التانغو الحالمة!

كانت الموسيقى حنونة، وداهمني حزن خاص. حزن رجل وحيد. كم كانت مني بعيدة الآن. مذ عرفتها حلمت ان نلتقي في كهف ليلي هادئ، وحيدين داخل زاوية مظلمة وصامتة، احدثها وتهمس لي، اضمها بحنان بعيد عن الشهوة، نبوح وتعلمني رقص ناس مدينتها، ثم نبحر عبر الليالي الدمشقية المفعمة برائحة الياسمين ورائحتها. نخرج الى الضواحي ونتمرغ فوق العشب ثم نتيه على غير هدى نحو لا مكان محدد في هذا العالم.

وحضر رجل مثقف ومعه امرأة عرفنا بها سامر البدوي. سلمت وجلست قربه. ناولها كأسه فاحتست بأناقة، وبوداعة مفتعلة راحت تتحدث.

كفّ سامر البدوي عن الثرثرة، فبدت الارض وكأنها قد توقفت عن الدوران في رأسه، وراح يتملى المرأة باحتفال متعبد. طلب لها خمراً وقدم سجائره وأشعل لها. وضمر الحضور.

لكزني راني هامساً: ما رأيك؟

– امرأة اساسية. قلتها بعفوية.

وغمغم ضحكة لكلمة اساسية: آه يا كاهن اللغة. يا فاسق!

أولوُها جميعاً اهتماماً مركزياً. وسألوها عن كتبها وماذا تكتب الآن ورأيها في القصة العربية المعاصرة ومدارس الادب، وردت باقتضاب وهي توزع ابتساماتها على الحاضرين. تحدثت عن الادب الفرنسي بشكل خاص، وعن حياتها في باريس وانها تكتب الآن رواية باللغة الفرنسية. كانت تتحدث بعذوبة امرأة تعرف ضعف الرجال وتهالكهم، وتعرف نفسها جيدا. واحتدم جدل حول مدارس الادب وحول الالتزام، وأفصحت عن رأيها بانها ترى في الالتزام فخاً وهي ترفضه إن كان يعني القسر.

وسألها سامر: ماذا تعنين بالقسر؟

– التعسف الايديولوجي.

وقال مثقف ببجاحة فوقية: الحرية مفقودة. فرد سامر بنزق: نحن نفكر بعقل اوروبي.

ردّ راني: عندما نمتلك قدرة التحليل نمتلك قدرة الكشف. الاديب مغامر يرود مجاهل النفس. انساننا العربي يقيم تحت ركام من الدهور المتخلفة الناقصة، والمأساة تكمن في انعدام الرضى. في النقص الكوني لأن نطال الاشياء الطبيعية وهذا يبدو مستحيلا. الامور الصغيرة مستحيلة. ثمة سدود وموانع ممتدة من سماء آلاف السنوات متغلغلة حتى الاشعار الماصّة في نفوسنا فكيف نكون اسوياء ازاء هذا الحجر الوجودي؟

قالت المرأة: هذا صحيح. لسنا اصحاء.

واذ اشعل سامر لفافة ونفث دخانها، تململ يريد ان يقول شيئا.

خلت الحلبة بينما استمرت موسيقى كلاسيكية مريحة، واذ قال احدهم: معظم المثقفين معزولون عن الشعب ونحن لا نفهم الشقاء الحقيقي. شقاء ابطالنا شقاء ميتافيزيقي.

نهد سامر: ليست عزلة بقدر ما هي عجز. انا اوافق راني الى حد ما،

ولكنني انظر الى الموضوع من وجهة نظر الخيانة احيانا. لماذا انتحر ماياكوفسكي ابان الثورة مثلا؟

قال راني: لأنه خاب. تحطم مثال ماياكوفسكي بالثورة فلم يعد لوجوده في عصره اي مسوّغ.

لقد قال يسينن قبل الانتحار: «يبدو ان شعري ليس ضروريا هنا ويبدو انني لست ضروريا انا الآخر ايضا». هذا ما اراد ان يقوله ماياكوفسكي قبل لحظة انتحاره.

انهمر زمن الكمد، بانت على وجه سامر كآبة وملل. شعر بأن عليه أن يتحرك. كان محاصراً بضيق ظهر في حركاته. جرع ما تبقى في كأسه. شكرتنا المرأة ومضت. وفي اثرها مضى سامر دون ان يقول كلمة.

□

عندما خرجنا الى الشوارع كانت دمشق تغتسل بصحوها التام. مفعمة بالصمت العذب، لرائحة جسدها الغجري طعم رطب.

قال راني: يا لدمشق الرائعة!

تحت ظلال الصفصاف الباكي سرنا محاذين لأحد فروع بردى الراكد. دندن راني حزناً شفافاً وشى برائحة انسان يكدح بحثا عن الطمأنينة. في الغسق الدمشقي الموحش رن نداؤه المبحوح، طالبا أنساً لا يجيء.

واندلح صوت نايه مغمّسا بالأسى والمرارة القديمة.

خلال برهة صمت سألته: راني هل انت كئيب؟

اجاب ملوّحاً برأسه وتابع اناشيده الجنائزية الخاصة.

كنت أتملى النجوم والشجر والشوارع الممتدة المرشوقة بالاضواء. تمنيت ان تكون منى معنا.

قال: الم تعجبك المرأة؟

- قليلاً.
- الم تثر اهتمامك.؟

قلت: ليس كثيراً.

لكنها امرأة مدهشة سمّيتها أساسية. هل نسيت؟

وثبت نحو شجرة سنسرخت. شممت رائحة الورق الذي قطفته. عبرتني رائحة الطفولة ورائحة أوراق خضراء قرب ساحل بحر مهجور.

قال أبي: من يحيا في البراري تصفو نفسه كهذا الفضاء. ومن يحيا في البراري يرتاح من ضغائن الناس.

وعلى شاشة الخمر والتذكر عبر وجه أمي الشبيه بوجه أمينة.

قال راني: لها زوج في باريس هجرته وتحب شاعرا في بيروت.

وارتمى ظل امينة على ساحلي. في حجرتها الآن ترتقب يقظتها قدومي الطارق. انا المخمور الناشد نساء العالم في حضنها المبهج.

- «الى متى يستمر ذلك النشدان».

وقال: أنا اشتهيها.

وبدا أسَانا لعنة وقعت علينا منذ اعوام طويلة، ربما لا يعرف بدؤها. لست أدري كيف خطر لي أن العربي يستلقي في تابوت محكم الاقفال، ومن داخله يحلم بالشمس والنساء ونفض الغبار وخيوط العنكبوت التي نُسجت حوله. بعنف أتخيله يدق الجدران للطلوع من العتم. تدمى قبضته وهو يقرع لكن سمعه يظل موقراً بالقهر والصلوات والقوانين التي استنّت لزجره عن الحرام. القوانين التي وضعت من خارجه.

ويرج صوت راني سمع الشوارع: لتسقط أخلاق السائمة. الموت للشرائع وليعش المارقون.

واقول: لو سمعونا؟ انتبه!

وصاح: السجن أشرف من الحياة الموسومة. أنا من انصار باكونين والموت للدولة.

قلت لنفسي: اصرخ يا عزيزي راني وتوجع فالعالم أصمّ كأبيك.

في الشوارع والازقة طوّفنا. غنى راني بشبابته ومرّ صمت وكلمات محزنة. تبعثرت الحسرات الصحراوية في فضاء مدينة تضم اكثر من نصف مليون

بشري يعيشون اكثر من مليون فاجعة ؛ يسكرون ويتزوجون وينامون ليهدهدوها.

- «نام يا حبيبي نام تادبحلك فرخ الحمام».

فجأة داهمنا فجر دمشق البنفسجي، خجولا فتيا كطفلة تتفتح، فهرم المساء فينا. رفع راني اصبعه مودعا، وانكفأ.

- ٧ -

دمشق ولياليها، حزني والوطن الجريح. ثم منى.

- من كل الذكريات التي احملها، انتِ ومواطن طفولتي. هذا ما تبقى.

قلت ذلك وانا اقدم لها حفنة ياسمين حوّشتها من غيضة وانا اعبر ارصفة المدينة.

شمّت رائحتها ووضعتها على كرسي مجاور. كنا نجلس يومذاك في ساحة بيتها، والقمر يتسلل من الشرق فارداً ضوءه على جزء من الساحة والجدار، ولم يكن في البيت سواها.

من داخل غرفة نومها كانت تأتينا موسيقى خفيفة، وبين لحظة واخرى كانت تدخل الى البيت ثم تعود ومعها منفضة او تربيزة، وكان يبدو عليها انها قصّت شعرها منذ أيام، وطلَتْ قسماً منه بطلاء مذهب راح يلمع تحت ضوء القمر. كانت هي المرة الاولى التي تقدم فيها على تغيير من هذا النوع، وتوجست ان اراها في مرات قادمة تطلي وجهها وشفتيها.

خلال غدوها كنت صامتا ادخن متكئا بكرسي على الجدار، محدقاً في الفضاء المُنار وشجر الشارع. عندما جلست ربتت يدها على ركبتي: هيه. الى أين وصلت؟

وانتبهت. كان معها دفترها الصغير، فتحته وراحت تقلب صفحاته: كتبت قصيدة وداع. هل تسمعها؟

وأومأت موافقا فبدأت تقرأ بصوت حار ما لبث ان خفت وراح يرتعش. وهي تقرأ توزع بصري على وجهها المنور الاسيان، وعلى اناملها وهي تقلب الصفحة بين اصابعها المرتجفة.

في ذلك المساء احسست بالحزن يكاد يرشح من شقوق الجدران، ومن الضوء

المنهمر فوق بلاط الفناء، كانت القصيدة لميسالينا ولدمشق ولجميع الذين عشقوها وتاجروا بطفولتها، وللذين لم يدركوا لماذا سترحل.

بعد ان انتهت تناولت لفافة واشعلت لها. عن التربيزة تناولت الدفتر. أعدت قراءة القصيدة واذ وصلت الى عبارة «متعبة تبدو الشمس فوق مدينتي. إنها تسير بترهل يشي بالموت. قلبي مرهف وعيناي تبحثان عن عينيك في صحارى مجهولة المدى بلا ماء»، تصورت مدى فجيعتها بنا هذه التي انسكبت يوماً فوقنا كمطر شتائي خصب فبللتنا، ثم مضينا عنها، فمضت وهي تديننا جميعا.

في تلك الليلة فاجأتني بانها سترحل بعد ايام، تاركة دمشق نحو مكان اعتبرته احد اسرارها الخاصة، ولكنها وصفته بانه مريح وعذب ولن يكون مملاً على اية حال. وسألتها: أهو الملل أم الانتهاك؟ فابتسمت بهزء: ربما كلاهما معا. ومرة اخرى دارت الاسطوانة القديمة بيننا، عن عبث الهجرة والزواج ومحطات الحلم المفقود، واذكر انني شعرت بالرعشة وبشيء من العار وهي تقول: انك تنسى انني ارملة واسمع يومياً الاصوات القذرة وهي تنالني. عالم دمشق ما عاد يتسع لي. في كل ليلة أشمّ في مخدتي وثيابي رائحة الاقذار. لقد تلوث وتسمم كل شيء هنا.

كان شعور الوحدة في غيابها يطغى علي وانا مستلق في كهفي المقفر، فأتخيل مرارة هذه العزلة، وضعفي في هذا الزمن الخائن. لم تكن الكوابيس تغادرني في تلك الليالي. كوابيس طاغية خانقة أرى فيها انني محاصر في شعاب ضيقة وحفر لا قرار لها. واقف على حافة منحدرات عميقة مزروعة بالصخور، وخلفي مطاردون وانا لا استطيع ان اجري، ثم ارى ابي بوجهه الاصفر المحروث باثلام الموت يناديني كي اعود الى سهول الطفولة وخيمة البحر وانا عاجز عن العودة، أمضي عنه عبر بحار مظلمة مليئة بهوامّ البحر. احاول ان اصطاد اسماكا بشصوص هلامية. فأهوي في البحر وأوغل في الاعماق وورائي حيتان واقراش جائعة. وفي تجاويف الصخور اعلق. فينتقل الكابوس الى صحارى وبرار لا عشب فيها. حيوانات ميتة، وعول وغزلان وأرانب وطيور سود تحلق في سماء حادة. تطاردني الطيور فأسمع انفجارات واتعثر بقتلى فأسقط. عبر الصحراء اشعر بجثتي تنجرّ وانا منكبّ على وجهي وخطوط دم تمتد كالافاعي ثم تتحرك. تطير الافاعي في آفاق رمادية وصفراء. فأتذكر في الحلم بان هذا الافق المغبر يذكر بيوم من ايام الحرب. مذعوراً اصيح: منى. منى. أين أنت؟ يضيع صدى صوتي في الغبار. وتستمر المطاردة. واصحو.

بعذوبة شهوية كنت أتملى الزغب النابت تحت سالفها المرشوق بالضوء. واذ حاولت أن أزحزح صخرة الحزن الملقاة فوقنا بكلمة: سيفتقدك القمر! نظرتْ الي ثم الى القمر الذي بدأ ينحدر خلف احدى العمارات: تحلمون اكثر مما ينبغي.

— ستبعدين لكننا لن ننساك!

باستخفاف تهز رأسها وتقول: لا شيء في هذا العالم لا ينسى. الناس هنا يغوصون في آبارهم بما فيه الكفاية.

أقول: نحن ناقصون. لا بد لك ان تفهمي ذلك.

و بعيني وعلة مقهورة، أصيبَ قلبها بيتم مبكر، تتنهد. لا تجيب. بهدوء أمد يدي. أنيم نصفها الاعلى فوق حضني بينما النصف الآخر يتمدد على الكرسي. يتصالب وجهانا. تتسلل أصابعي لتمسح خديها وصدغها ونحرها. وأنا أفرد خصلات شعرها القمحي، افعمتني رائحة انفاسها وقد عكرتها رائحة الصباغ: لم يكن شعرك بمثل هذه الخشونة فيما مضى.

مسدت حاجبيها وأنفها الصغير: وستفتقدك دمشق. منى!

في الضوء التمع بريق راح يترقرق تحت الجفنين، تمرد لحظة، ولمّا رفّتهما انحدر خط متعرج احسست بدفئه يعبر رؤوس اناملي.

لقد عاد الحزن يشعل المكان بينما انطفأ ضوء القمر وغاب.

وانا اخرج، كنت ما أزال مبلـلاً بالكآبة. وثباً اجتاز الشارع. وجهي مغروس في الارض والناس يعبرون. نحو جميع الدروب التي عبرنا: «الى أين؟»

ودمشق تيه. كذلك منى. صحراء من العطش والجوع واللهفة. تضيع فيها ولا أحد يسأل: من أنت؟ كيف ولماذا جئت دمشق في هذا الزمن الضيق؟

منذ قامت هذه الحجارة، وشمخت، كانت ممراً فقط.

مقبرة للذين حكموا، والذين عشقوا، والذين جاؤوا من الاقاصي. خطر ذلك في الذاكرة شبيه ومض قاتل.

هي ذي حديقة السبكي مزدهرة بالضوء والهجران البشري. هنا لم يبق الا المكان والروائح وهبوب الزمن القديم. وفي كل غروب كانت تأتي ومعها مفتاح، وانت مستلق على فراشك تصلي لقدومها الاصيلي، صلاة المغرب. هوذا صوت حذائها يضرب بلاط الممر. ويئن الباب.

— منى!

بما كان يمتلئ المكان. تعمر الحجرة بالفاتنة الدمشقية المورّدة كالشفق. فتزدهر الاحاسيس وتتلون. تهب بقدومها كل أفراح الحياة مشتعلة في النفس والحجارة.

وتهزني. تقذف اللحاف: أيها الكسول المتغافي.

في غرفة معزولة عن ضجيج العالم يورق نشيد الفرح والتملك. أتململ نافضاً غبار النوم الكاذب، ثم أثب مسحورا لأتلقاها داخل هذا الجحر الصغير الذي يؤوينا. تتحرك. تقلب الكتب ثم تتناول زجاجة بيرة، وتفتح الراديو.

– انا جائعة.

تحضر الطعام وتبدأ المسرة.

تقرأ شعرا بدائيا. تسألني: ما رأيك؟

ابتسم اغماضا. ندخن. أقول: لديك امكانية.

– سأكون شاعرة هاه؛ احلم بوطن من الشعر.

– بل بوطن من الانس. أنت مستوحشة.

بمحايدة ظاهرية تضحك. اتملى بشرتها المعجونة بالثلج والنار، ثم شفتيها وهما تمصّان اللفافة بعصبية وتوق.

اقبلها بعبودية خاصة، ويبقى وجهها الساكن بلا تعبير، فأطوق خصرها واضغط بعذوبة: نحب... نحب ماذا منى؟

– نحبنا.

– ومن نحن؟

ونرفع كأسينا. يضيع السؤال. تتحرك حركة مقصودة مفلتة خصرها من يدي. وتدير مجرى الحديث نحو عالم آخر.

– «لماذا يحدث ذلك»؟

أتساءل في سري، رانياً الى تعابير وجهها بحسرة خائبة.

هذه المرأة قائمة قربي، تلامسني، داخل اربعة جدران، تحت سقف، فوق فراش فيه رائحتنا الآن وقبل. أشم رائحتها في الحجر، وفي هلام الغرفة، في الكتب والاواني، وعلى الحصير والمخدة. ألمسها، أمسد شعرها كما الام للطفل وأحتسي الرائحة من النحر والثديين والأبط، ومن مرج ظهرها اللامع الفسيح الممهد.

مرة ايضا، وايضا، لا الجسد يجيب، ولا النفس.

تتنفس فقط كمن يُحتضر. بحشرجات قسرية تتململ كأنما تستشهد. دونكيشوت السهول الياقوتية، المبحر عبر جحيم الجسد، والموت اللذيذ، ينكسر طعيناً في ساحة حرب.

– الم تعرفي الجنس منى؟

– ....

– قولي ما الذي تحبينه؟

باشمئزاز: هيا... يجب أن ننتهي من هذا القرف!

وتتملص كمن يختنق بحبل مسموم.

وهي ترتدي تنورتها على عجل، تبتسم هزئة من كل قيم العالم. تصمت ثم تقول: لماذا تسأل؟

– لماذا تخافين الجنس؟

– هل ينبغي أن أقول أنكم مغتصبون؟

– هذه الأنتم القذرة. كم هي مؤذية!!

– بيننا مليون سنة ضوئية. أنت لا تفهم احياناً كما ينبغي..

– بل بيننا اللطخ الداخلية.

يحزن وجه منى المظلم اذ يتعثر بالجنس. أقتتل مع نفسي كي يُضاء. ومع الايام كانت كالاثلام تنحفر في ذاكرتي، واشمَةً ممرات النفس بعلامات لا تنسى.

— ٨ —

في دمشق تبدو الاشياء حادة كحرف السكين. ثمة نذير تتوقعه يحدث في اية لحظة. وفي جميع النهارات والليالي نبتلع تلك السكين الواقفة في الحلق. السكين التي لا تسقط وتنهينا.

ودمشق ليست كما اشتهيت وتصورت: اوقيانوساً مزدهراً بالغبطة والكشوفات النبوية.

أصوات البيع والشراء. النساء الشهيات ينتصبن امام عينيك ورغباتك المكبوتة بقامات كالقصب ثم يختفين كحلم. الخمارات، والمقاهي، والسيارات المجنونة، والناس غير المهمومين ما بقي البيع والشراء. ثم هذه التي دُعيت زوراً: الثورة.

الحياة تجري باسم الله مجراها ومرساها.

ووحدك تعتقد انك حامل هموم العالم، تبحث في المداخل والمخارج، في الزوايا والتكتلات، وفي الكلمات والوجوه، عن شيء مخبأ ترومه امانك الخاص.

محطات. محطات. ولا امان. والغبطة الروحية تبدو وهماً خادعاً. مدينة بحجارة وبشر، وأينما وُجد البشر تنوخ الاحزان. وتعبر. تتوقف قليلاً ثم تمضي. القطار يمضي، ومن النوافذ ترى الزمن. الناس والاشياء تمحوهم سرعة القطار، ويمضون. والريح تحمل الروائح فقط. وتتساءل: «ما معنى هذا الجسد ان كنت لا تصل»؟

وينفجر الشوق لامتلاك العالم. يتبدد داخل حوافي الجسد. يضوعُ وتشم الروائح فقط. وسامر البدوي وحده يتمرد خارجا من منطقة الروائح.

زمن قاس بيده سوط. يسوقك من بوابة البيت الى مستنقع الوظيفة، ثم الى الشوارع والامكنة الاخرى. مهرولاً تحت غمامة كثيفة توشك ان تمطر كذباً وخدائع.

يكاد صوت رعدها يدوي فيك، فيه، فيهم: احد ما ليس في مكانه الطبيعي. أحد ما لا يستطيع ان يكون ما يود أن يكون!

وفي سري احببت سامر البدوي. وفيما بعد حزنت من أجله ثم اكتأبت اكثر لأنني لم استطيع ان أحبه كما أريد.

لم يكن صعباً اكتشاف فسحة بؤرته المركزية التي تمتد لتطال الآخرين، ولا حماسته لخلق إشعاعات مغناطيسية، تقول ساحة الانا فيها: مني تصدر قيم الأشياء واليّ تعود.

لكن هذا التدرن الأعلى لا يمزّق علاقتك به بعد أن تفهمه جيداً. سيتمّ ذلك بعيداً حتى لا تصبح شاشة يعرض عليها مغامراته ومهرجانات ألعابه الصغيرة.

في بيته سقانا ويسكي ناشفاً بلا أي مزج، وأسمعنا موسيقى، وشعراً له.

قبيل الفجر انسحب راني، هارباً من الجوّ الجاف الثقيل. واذ عرفت ذلك متأخراً، أحسست بالغربة والحنق. حتى انبلج الصبح، وأنا أدور في شوارع الطرف الشمالي من المدينة. في رأسي المصدوع طنين لا يتوقف، وفي عظامي استوطن كل برد الفجر. ألفّ الشوارع ولا أعرف كيف أعود إلى البيت. وفي دمي شهوة مخمورة لامرأة تنتظر وحيدة في حجرتها.

– متى تكتب الشعر؟

– عندما يتعتعني السكر. آنذاك يصير العالم طيفاً ورؤى فأدخل هلام الألوان والصور المتراائية.

– لعل هذا يفسر ضبابية شعرك.

– ليست ضبابية. أنا أكتب بالرائحة واللون والوجع.

– الوجع الخاص!

– ومتى كان الشعر غير وجع رؤيوي شديد الخصوصية؟

– لدى معظم الشعراء العرب القدامى على ما أعتقد.

– أبداً. في شعر طرفة إحساس أبدي بالموت، وصبوة ذاتية للخروج والرفض لعصره. أمرؤ القيس كان صوت الفرد الذي يرغب امتلاك العالم من خلال رغباته. النوّاسي أيضاً. الشنفري وعروة، ذؤبان العرب ماذا كانوا غير ذلك الصوت الخاص الذي ينمو في النفس وبعد حين يصدي بوجعه.

- كانوا استثناء!

- هؤلاء هم شعراء الأصل. لقد تخلصوا من سرطان المديح والهجاء والوصف السخيف المتمثل في مدرسة البحتري وجرير والفرزدق إلى آخر القافلة المعروفة.

- لكنك تبدو مغرقاً في الذاتية. يخيل لقارئك أحياناً أنك تهلوس.

- ربما. الشعر رائحة وطعم وموسيقى. تماماً كما تنتشي بموسيقى موزارت لأول مرة دون أن تعرف عنه شيئاً. الشعر لغة سرية. نوع من الغيبوبة الصوفية تبحر على متنها دون أن تسأل إلى أين.

كان الآن على تخوم حالة كتابة الشعر. وجه دام يتألق بحمرة خاصة، وعيناه تلمعان كعيني قط بري متأهب. وراح صوته يقرع كصنج من نحاس بينما يداه تتحركان في الفراغ حركة افتراسية، وفي ربى وجهه امتزجت القسوة بالامتلاك. كان منفعلاً بضعف بادٍ.

واذ سألته: في شعرك لا يبدو أي أثر للثورة، رجّ ضحكة واثقة. غبَّ شيئاً من الويسكي واشعل لفافة «لوكي» ثم نشق: ماذا تعني بالثورة؟

- الالتزام بالجماهير. ألست منخرطاً في الحزب؟

- أحياناً تبدو خبيثاً رغم ان هذا لا يبدو عليك. يا عزيزي المثقف المتغابي من الذي قال لك ان الشعر صدى للجماهير؟

- وهل هو صدى نفسك؟ أنا ماذا تعنيني حياتك الشخصية المبجلة؟ ثار. رفع صوته. ضرب بيده المنضدة. اتهم. قدم تقارير مشوّشة عن رامبو وبودلير وأبو لينير وبيرون. لكنه ظل متّهماً فغادرته.

حياة مفعمة، مرتعشة غريبة. ارتمى في جحيمها يوماً، ومع الزمن صارت طقسه الأبدي. قفصه المحكوم بالعيش فيه.

ومن راني إلى سامر البدوي تمتد مسافة من العلائق البشرية. راني مسحها واستطال فوقها، بينما كان سامر يرعاها بثوانيه لتصله بعالمه الفردي، وتراثه الجنسي.

بحياته فقط أقنعني. بهذا الاخلاص اللانهائي لما يرغب جسده الفاشي الذي استعبده.

[]

أمسكتني يد. بصعوبة فتحت عيني. نشب الصداع، وجرتني أمينة إلى الحجرة.

- أهكذا تفعل بنفسك؟ سمعت الجملة كطنين. تمتمت كلمات ناشفة. وارتميت على الديوان: كم الساعة الآن؟

- الخامسة. أين كنت؟

- في الشوارع.

- أنت ثمل.

- متعب وأود أن انام. متى يستيقظ؟

- منذ ساعة نام.

وباستسلام تمددت، غير عابئ بما قد يحدث.

بين النوم واليقظة سمعت سقّاطة الباب تسحج، وأحسست لحافاً ناعماً يغطيني. ثم لا شيء.

بعظمة الموت وكراهيته، قام من قبره. خطا نحو بيتنا القديم، خطوات وئيدة كمن يمشي في الهواء. كنت أراه وما كان باستطاعتي أن ألمسه. كان ميتاً وحياً في مكانين مختلفين. رأيته يطوف حولي ويرفرف بأجنحة شفافة. يقترب ثم يبتعد كأنما في وجهه كلام يود الافصاح عنه لكنه لا يقوى. وسألته لماذا مات هكذا بغتة وتركني وحيداً، فأشار إليّ بأنه لم يتركني، وفهمت انه يراني أبداً ويشاهد حياتي. وبدا لي هناك على حافة الضوء والظلمة أسيّاً غير راض. وسألته ان كان راضياً عن حياتي وهل حياتي رديئة. وماذا تقول عني أوراق الباطن والظاهر التي ابتلعها فارتسمت ألواحاً أبدية على جدار جمجمته.

وقلت: ألا يكفيك أنني ورثت عنك الخمر وحب النساء، وأن عصور الرداءة الدونكيشوتية لا تنتج فرساناً كالذين حلمْتَ بهم وأنت تصبّ شهوتك فيها، وأنني وقعت في المغريات وفي حبائل نفسي التي وصفتها بالأمّارة بالسوء. وأنا لا أرغب أطفالاً من امرأة، وما عاد باستطاعتي أن أعود إلى البيت.

ورأيته يشير نحو امرأة قريبة تشبه أمي ونهاني أن أبتعد عنها. وهلوست بأنها امرأة وحيدة تهدم بيتها، وأنا أحاول أن أعيد لها بناءه من أجلها وأجلي. ودخلنا في حوار مشوش غير مفهوم حول الحلال والحرام، والخير والشر. وبدأت هالته

النورانية تشحُب وتنسحب. كان متشحاً الآن بألم عميق وبجراحه، وبدأ يغيب. وصرخت: لا تتركني. خذني معك. وهزئ مني، ودنا نحوي فغطتني نظراته باحتقار شاحب، ثم استدار وراح يخطو في الفراغ. وقلت: امضِ. أنا أكرهك وأكره أمي وأكره بيتي القدّيم. عد إلى قبرك. عد. وفي غمرة من ضباب اختفى وحضر وجه أمينة متعباً، ضارعاً، ثم حضر وجه منى، ألِقاً، حزيناً. وامتزج الوجهان داخل عالم غريب مسحور. ورأيت مرجاً من عشب أخضر قرب ساحل بحر بعيد. استلقينا متعانقين بين الأعشاب. كانت الأعشاب رطبة والمياه تجري قربنا. وكنت ظامئاً كأنني ابتلعتُ صحراء. عندما أيقظتني أمينة كانت تمد لي كوباً من العصير، واذ استفهمت بعيني منها قالت: كنت تصيح: الماء.. الماء..

- ٩ -

ذات مساء داهمتني فكرة صياغة نظرية عن الانسان العربي، سميتها بيني وبين نفسي: التعويضية. واذ قرأت قليلاً من علم النفس التحليلي وآدلر، انكفأت وقلت: لا جديد تحت الشمس.

كانت الحياة في دمشق قد انحرفت عن مجراها الطبيعي، بعد أن تاهت مني وابتعدت. وتعثرت بأمينة.

لقد حدث انحراف فردي تعويضي، نحو جداول فرعية اسمها: الخمر والجدل السري والبحث عن النساء والأرصدة وميتافيزياء الأحاسيس المنفية وسائر الثرثرات الأخرى.

بدا ذلك رداً فاشلاً ضد التبريرات الواقعية الملونة بالكذب، وضد القصور. وفي الوطن الذي تغلغل في مجرى الدم، كانت الأنماط تحترق بهدوء وسكينة في عربة العطالة.

لقد تلوث الزمن.

وفي ذلك الزمن كنت أشعر بأنني متوحد ومنني كشجرة في قفر، في مهبّ ريح سموم.

ولأنني صممت أن أكون نفسي، رفضتُ وثائقَ التبرير، فكرة الضحية للأجيال المتقدمة على انقاضي.

في لحظات الصحو كنت أتململ كمن سرى فيه سمّ، سائلاً اللاشيء: كيف حدث ذلك؟

في النادي التقينا. عاتبته لأنه تركني في بيت سامر وحيداً. وفسر هروبه بملل الجو، وكان حزيناً في تلك الليلة.

- ضاجعت أمينة صباح ذلك المساء.

وزعق فرحاً: معلوم. عوضت أيها الشبل اللعين عن غيابي. اشهد أنك قمت بعمل ثوري عظيم.

وقلت: حدث ذلك صدفة.

نهنه: في علم النفس لا يوجد شيء اسمه صدفة.

- إلى متى ستظل تطاردني بالرفيق فرويد؟

قهقه لكلمة رفيق: علم النفس التحليلي يقول ذلك: أنت كذاب. ما سيحدث جاهز في اللاوعي. ايه. احك لنا كيف كانت أمينة؟

- لماذا لم تقل الرفيقة أمينة؟

وأشرعنا ضحكتين تناسلتا في لحظة واحدة، ثم قرعنا كأسينا.

يصح جسدي عندما أضطجع مع تلك المرأة. أشعر وكأنني خارج من حمام بارد في نهار قائظ. في أزمنة الرداءة تختفي الأشياء الجميلة. حدست بذلك وأنا أسوح في بحار جسدها المجهول: كيف لم يكتشف زوجها الغبي هذا الجسد الفائض بالنعم والخيرات الالهية؟

- أليس حراماً أن يهجر ذلك الجسد من أجل الخمر؟

قال راني: يا سبحان الله. يا أخي خُلِقَ الانسان ملولاً!

[]

راني بوجهه المحروق، بعينيه العميقتين، وكلماته المنبوشة من أعماق الفهم النفسي للانسان، يعيد بعض الطمأنينة. يعطيك مسرة خاصة في عالم مقلوب يمشي على رأسه.

- حياتنا الطبيعية تحولت اسراراً بفعل التعامل مع المحرمات والتوق النابع من حاجة الجسد والنفس.

- يحيا التعويض في العالم الثالث.

وفي ذلك المساء يفيض شجَناً عن التي يحبها. بولَه حكى بعد أن شرب كأسه الثالثة. كنت صامتاً أكثر الوقت لهذا الذي تلوح فيه بشائر الضعف البشري المقدس.

كانت المرأة تنسكب نحو اغواره فتحيي أحزانه النائمة في أرض مقفرة، واذ يفور حزنه يصير حيوياً شفافاً كالدمعة، آنذاك يلمع الانسان فيه منبثقاً من خلال كل ذلك الوشل والركام الطافي فوق سطح حياته.

قرأ لي رسالتين في تلك الليلة، احداهما منها والأخرى منه. وتحدث عن أزمة الرضى والاكتفاء. عن الطفولة المحرومة وحنان الأم، وعن الفشل صديقه الحميم، «ولينا» الخائفة الا ترضيه.

على وجهه لمحت الرعب يمشي. قانع وخائف، لأنه اعتاد الفقدان واختار الغضب النفسي، حتى أزمن النقص فيه، بدا موجعاً ومذعوراً من قناعاته الموبوءة بالشك.

ولست أدري كيف تحلل راني في تلك اللحظة الخاطفة، وامتد تحت سماواتي الملعونة بالرصد حتى صار جيلاً موسوماً بلعنة دهرية تسحقه صخور الاحباط، يسقط ألف مرة ويقوم، وفي كل سقطة يخسر شيئاً من جسده ونفسه.

عبرنا جميع الشوارع التي نحبّ خباءها العتمي. غنينا أحزاناً لدمشق الغلسة. جلسنا على الأرصفة. بكينا. صرخنا.

قال راني دامعاً: لو ان لينا معنا الآن!

صمت.

- أحلم بحياة مفعمة نعيشها سوية.

رنوت إلى النجوم الذهبية اللامعة.

- ستكون لك غرفة خاصة في بيتنا، تنام فيها مع أمينة ومنى. ما رأيك؟

تحركت الريح بشجن مسائي، تغلغل في حشا أيامي التعسات. أرسلت صفيراً غامقاً امتزج مع أنين الريح. كنت منفطراً من الحزن.

وهاجس راني الليل بشبابته: «هيهات يا ام الزلف. لينا يا عينيا».

قطفت زهرة ياسمين. ناولتها له: هذه للينا.

في الفراغ قفز بطفولة غنائية وقبلني: ياأعذب من في دمشق.

وسرحنا في الليل. صبيين فقدا الهناء. رانيين إلى الطمأنينة الهاجعة في الغرف النائسة الضوء.

فجأة سألته: هلا حدثتني عن المرأة الأخرى؟

وحكى بشجو: متزوجة ولها أطفال. فاجأتها يوماً وكنت مغلفا بشوق حقيقي إلى امرأة: أريدك يا أنجليك. كان ذلك في ليل معتم وهي في ثوب نومها الشفاف، أصابها مسّ من دخولي المفاجئ. ودّت أن تصرخ فكممت فمها. سحبتها إلى غرفتها الخاصة. كان هناك سرير وأرض مفروشة وكنت مبلّلاً بالمطر. بعد صمت أشعل لفافة وتابع:

تعرينا. أنا عريتها بيدي هاتين. كانت ما تزال في بحر ذهولها عندما انتهينا.

– ألم تخفْ؟

حرك رقبته يميناً وشمالاً. توقف فجأة: لم أخف؟ سمعت الخوف يخرج من حلمتي ثدييها ومن أظافري. كان يختلج في الثواني وفي الأنفاس وعلى سجادة الغرفة حيث تمددنا، صار للخوف أرجل وعيون وآذان. تصوّر أن تقتحم بيت امرأة ضابط في غيابه: لقد تقمصني الموت لكن الجنس كان أقوى.

– كانت رائعة؟

انجاب حزنه لحظة فصهل كمهر فوق مرج أخضر. مد ذراعيه في الفضاء وجرى مسافة، ثم توقف: أتسأل أيها الزنديق عن امرأة دمشقية ان كانت رائعة؟ كانت ذهولاً جسدياً يُشَمّ ولا يلمس. أم...أم...

حمحمَ واثباً في الهواء، بكل انتشاء الانسان، وفجأة سكن. ومن سماوات خفية، انهمر الحزن. شطر لحظة الفرح المباغت، ووُلدت اليقظة

لماذا الفرح ناقص فوق هذه الأرض الملعونة؟

إزاء حديقة «المدفع»، رحت أسير ببطء، مُكِبًّا نحو الأرض أعد مربعات الرصيف تحت الضوء. تحرك نسيم صيفي رخاء هزّ سكينة الورق الأخضر فوق أشجار الحديقة.

– راني. أنت نادم؟

لم يجب. انكبّ هو الآخر فوق سياج الحديقة. فبدا مطوياً كجنين في رحم أمـــه.

وأنا أسير تذكرت حديثه عن الأحلام العارية مع أمه، والندم الذي يطارده مذ ماتت، وندوبه الداخلية.

– أنت تنتحب!

ونهض. مشى نحوي مترنحاً ثم تخطاني، وراح يدق بايقاع وجيع أرض الرصيف.

[]

بتهمة العطب ألقي القبض عليك. دمشق قالت لي ذلك وتاريخك الوراثي. ثم الحب المفقود.

– «أين يوجد المثال؟».

– في براري المنفيين الذين اختاروا مناطق الخطر.

ويوما وددت أن تجري الأحداث كما يجري النهر، بعيداً عن ردود الفعل والثارات.

كما الإبرة المغناطيسية تتجه نحو الشمال، اتجه نحو غرفتها. الخمر، أم الرغبة، أم شوق حنان الأمومة، أم صوفية الليل، توجهني مأخوذاً منوّماً نحو المرأة التي جرثمت جسدي؟

ضوء الغرفة ينتشر من خصاص الشباك، والمطر ينهمر، كذلك ضوء غرفته هو الآخر.

لما تنم. هو أيضاً يكرع الخمر، وحيداً مقرفصاً فوق جلد خروف متّسخ، قرب مدفأة حطب موشكة على الخمود.

تحت المطر أتوقف. ثم باسم العطب والتوق، ادخل.

الطفلة سهرى. تحية محترمة. سؤال رصين يحمل أقصى النبل الظاهري.

–كيف المدرسة سميّة؟

ثم جلسة متماسكة فخورة بالشرف والحياء الفجّ.

– نحن لا نراك إلا لماماً. قالت الطفلة.

– العمل حبيبتي. أسافر في إجازات ومهمات باستمرار.

– لكن نحن نود أن نراك دائماً.

أبتسم.

وفجأة تسأل أيضاً: لماذا لا تأتي وتسكن معنا؟

بعينين حائرتين أدور في سقف الغرفة. أسأل نسيج العنكبوت المتدلي من زاوية

السقف أن يسعفني بجواب. أقول كاذباً: أسكن مع أصدقاء في بيت واحد وأحياناً تأتي أمي.

– لماذا لا تأتي أمك وتزورنا؟

أمينة يكاد يغمى عليها. تود أن تصيح بالبنت: أن اصمتي. تتجهم: سمية. آتني بالسماور من المطبخ.

وإذ تطبق سمية باب الغرفة، تثب أمينة كغزالة عطشى. تشرق ابتسامتها مغموسة بشهوة مستورة. تغنج حولي قليلاً، ثم ترتمي في حضني وتغرس شفتيها البارّتين في شفتي. تطوقني بقسوة جنسية مفعمة بالأمومة. ثم تدور بردفيها في حضني. وإذ اعتصرها تموء ثم تزقو بدلال دمشقي: أووه. أنت قاس علي. تعذبني بغيابك الطويل. قبلني. وأمتص شفتيها بشهوة ولدت الآن.

إذ يقبل خوفها، تنهض. وجهها مورد، وعيناها تلمعان ببريق مستسلم. تنفتل بعيداً عني وتغمز نحو غرفته، رافعة يدها الفارغة مشيرة إلى الاحتساء اليقظ.

– أعرف. اسمعي سآتي اليوم.

وتقول همساً: لكنه يتأخر. منذ أسبوع يسهر حتى الثالثة بعد منتصف الليل!

تهب في الجسد رغائب الطبيعة، وشهوات الدم المحرور فأصرخ فيها: اسمعي. سآتي ولو كان ينام معك في فراش واحد.

كمهرة صغيرة فرحة، تقبل سمية. راسمة ابتسامة أزلية لا تغيب.تنط فوق سجادة الغرفة معلنة بحركاتها الترحيب بقدومي.

تفرد ذراعيها وهي قادمة: ماما..

تعترضها بعبوس: سمية!

– دعيها. لماذا تصرخين بها هكذا؟ الأطفال لا يُصرخُ بهم.

تشعر أنني آمرها كزوج، فتصمت.

– عمّو. لدي لوحة جديدة رسمتها في المدرسة.

– أرينيها.

وأبدي إعجابي باللوحة. أشير بملاحظات هامشية عن اللون والمنظور بينما أمينة تعدّ القهوة.

أنا وأمينة حالة هوس. قطبان: موجب وسالب يتجاذبان. أفكر بالحرام الموروث، والصبوة الدمشقية الممتعة، وخسائر الحروب الطويلة، والتعويض. ثم أقول: «عبثاً تعوّض بك زمنها المنقرض. لقد سافر الرضى إلى مجاهل نائية. وها هي وحيدة معك داخل زمن تبدو فيه حراً وهي مأسورة»؟

تقدم القهوة باجلال. أتناول منها وهي جاثية على الأرض قرب قدمي.

–«أنت حرّ في زمانك أيها السيد».

وأنخر سخرية من نفسي، ومن هذا الزمان الذي أحيا فيه. زماني المخصي.

وأنا أحتسي القهوة أرتني الطفلة وظائفها. صحّحت لها بعض الأخطاء بعد الشرح. وراحت تحدثني عن غباء مدرّسة اللغة العربية، وقسوتها عندما تثير أية طالبة سؤالاً يحرجها.

كان وجهها مائلاً، قريباً من شفتي. شممت رائحة شعرها القصير الكستنائي. كانت لها رائحة أنثى تدرج نحو النضج.

وداهمني إحساس آثم، جرثوم العطب نغل في الداخل رغماً عني. كان ذلك مرعباً ولعيناً رغم لذته الآنية. الام والأبنة معاً: آه. يا للهول!

–كانت أمنيتك أن تختص في علم النفس.

وقال راني: سأحقق هذه الأمنية في نيويورك أو لندن.

صحت بخباثة: في بلد الأمبريالية العالمية؟

بدعابة قال: أنت جدانوفي. هكذا تبدو لي أحياناً.

وقلت: الذي سيمنع روايتك جدانوفي ومكارثي معاً.

بَهْبه: روايتي رواية قومية.

ابتسمت هزئاً: هيه. يا للراوية القومية المفعمة برائحة الجنس!

– أيها العقائدي. إسمع.

– تفضل.

– أزمة الثورة مرتبطة أساساً بالجنس في جانب من جوانبها الإجتماعية والنفسية. أحد السياسيين الكبار في هذا البلد قال: لن تكون هناك ثورة في هذا الوطن ما لم تُحلّ قضية الجنس والدين.

بدهشة مرحة قلت: لو كنتُ مكانك وسمعت هذا التصريح لالتزمت فوراً بالحزب.

مرة أخرى انتفخ: أنا عقائدي حقيقي بلا هتاف ولا صنوج.

تحت مطر دمشق الليلي أيضاً. متعة ذاتية بخاصية المطر والبلل. في مكان ما إمرأة تنتظرك، ستسرح عبر مروجها الخضر الطرية بعد دوار طويل. إحساس يسكن قرارة النفس، يبرر هذا الدوار المتعب.

دوران الشوارع في ليل بليل. حبات صغيرة باردة تنقر معطفك، تورث إحساساً شعرياً بالتشرد، إحساساً مبتلاً بالحزن الخفي، بالعودة البدائية إلى فرح الأشياء. ثم هذا الوميض السحري للجنس المرتبط بالأسى في أخريات المساء.

الناس الأسوياء والناس الناقصون. النقص الهرموني والطفح النفسي. ما في الرأس وما هو قائم على الأرض.

عوالم بعيدة ساقطة في أغوار التاريخ. تشيل، تشم روائحها في هذا البلد الأمين الذي باركه النبي لكنه لم يدخله.

- «أهذا ما كنت تحلم به يا عزيزي المهاجر من وطن الشمس والبحر إلى وطن الحب والشعر والثورات والبشر الأنقياء»؟

- «وأنت ماذا تفعل الآن»؟

وقبل الآن وفي جميع الأماسي والنهارات.

الليل يدخل في النهار، والنهار يدخل في الليل، وأنت تدخل فيهما، وهما يخرجان منك. أمينة فيك، وأنت في منى، ومنى خارجك، ورائي يعبرك، وسامر البدوي يحاذيك، وانت خارج من نفسك ومن أمينة ومنهم. مرثية معاصرة ينشدها رجل ثمل، مفعمة بالحزن ورائحة الموت. آه. لو تدري ما تفعل! هم أيضاً لو يدرون!

- «اللهم اغفر لي ولقومي»!

- إفتح ياسمسم، إفتح. إفتح للعربي الناقص في العصور المنحطة.

وتثب أمام وجهي هامسة: لما ينمْ بعد!

- ١٠ -

أختي ماتت بالربو في عامها الثالث. هكذا أخبرتني أمي بعد أن كبرت.

وإذ سألت أمي: لماذا ماتت؟

تنهدت وقالت: بإرادة الله. الله يحيي ويميت من يشاء بغير حساب يا بني. وظلت طوال حياتها محسورة عليها.

سألت منى: أريد منك صورة وأنت صغيرة. هل لديك؟

- سأبحث لك. ولكن لماذا؟

- أريد أن تراهاْ أمي.

- أمك أم أنت؟

- أمي.

- ما علاقة أمك بصورتي.

- سأمزح معها قائلاً: أنظري. هذه كان من الممكن أن تكون خطيبتي يوماً.

- وإذا ما سألتك عني؟

- أقول لها هاجرت إلى بلاد نائية لتموت بالربو.

رفعت ضحكة عالية: بالربو. لماذا تميتني بالربو؟

وابتسمت: نكتة عابرة. أنت مسافرة ويجب أن تفرحي قبل الرحيل.

كانت منى تعتقد أنها وجدت زورق الإنقاذ الذي سيحملها بعيداً عن دمشق بعد أن صممت أخيراً على الهجرة.

كان مساءً عذباً، بدا وجهها فيه متألقاً كقمر ناضج. وكنت قريباً منها في ذلك المساء. الإحساس نفسه لصديق اختلفت معه ثم غاب فجأة أو مات. لست أدري كيف اقتربت مني، وبدعابة مفاجئة طوقت عنقي مبتسمة: آه لـو أخنقك!

كانت أناملها الملساء الطفلية تضغط بحرارة، وانحدرت نحو صدري وراحت تدغدغه.

وجهها الملامس لوجهي يغسله ضوء القمر. وذوائب شعرها الفاتح يميس فوق شفتي. يومها كانت أنفاسها المفعمة تدخل في مسام جسدي كله. لحظتها تذكرت أحلام المراهقة عندما كانت تُذكر دمشق هناك.

– «أية آمال حلمت بها قبل أن تدخل دمشق دخول الفاتحين المنكسرين»؟

وأملْتُ وجهي فالتصق بخدها. رمتُ تقبيلها وحملها إلى الغرفة المجاورة وفجأة تذكرت اصابتنا.

من جيبي أخرجت علبة التبغ، ثم قفزت بعيداً، وبحركة مرتعشة أشعلت لفافة، مجّت منها ثم ناولتني.

ثمة صديق يموت. يقوم بحركات وداعية في لحظة مزج بين الحياة والموت. هكذا كنت أشعر. لحظتها ولأول مرة أحسست أنها تحبني أكثر من أي وقت مضى.

– «لو يموت أحدنا وتنتهي هذه الملهاة»!

مصصت عقب اللفافة، فأحسست طعم شفتيها. كان كل شيْ يتراقص كحلم في تلك الأيام العصيبة.

الشوارع أيضاً. قرع حذائي على الأرصفة والأسفلت. مطر. مطر. مطر حزين، له طعم الجنس والشعر يلالي فوق رأسي ثم ينسكب في داخلي: أبو ناصيف. بطحة من فضلك.

ولا ينبس. أناوله ويناولني. وأهيم فوق الدروب تحت السماء المطيرة.

أذكر أحبابي وأشرب. أذكر أحزاني وأشرب. أذكر وطني وأشرب.

أنعطف في طرقات دمشق. أكرع وأدندن تحت المطر ولا عزاء. وفي الداخل يسقط مطر آخر.

[]

الضوء الأحمر يعقبه ضوء أزرق ثم أصفر، تلك هي الثورة.

لا. هذا عالم «التيفولي» الصاخب، المفتعل. نوازل كاذبة مدلاة من السقف، صنعها ديكوراتي يتقن اللعبة جيداً. ثم الرقص والموسيقى المحمومة.

عالم مصنوع. عالم سامر البدوي المستلقي الآن في حضن إحدى عشيقاته

المسنات، يغيب فيها حتى يفرغ ثمله، ثم يسترخي ويضجر، ثم يهاجر في ظلام دمشق مهزوماً مثلي الآن. ولكن من الذي قال انني مخمور؟

أنا مضوّأ، مبحر في عالم سري نحو بواطن الأشياء. أريد أن أكتشف الذي لم يكتشف. هذه كذبة ضخمة صنعها المثقفون المعزولون. أريد أن أشم روائح الأشياء، وأن أضبط العربي في جلسة سرية. أن أقذف به عارياً في وجه مرآة. أريد أن أشرف عليه وهو ينزف لأقول له: أنظر إلى دمك. أنظر إلى تاريخك. أخرج من العصور الوسيطة وانظر إلى شمس القرن العشرين.

وأقول له: أنت... أنت... و...

ولكنه يعرف نفسه جيداً عندما يخلو في غرفة خاصة. وعندما يسكر. ها. ها. تلك هي طاقية الإخفاء.

مباركة أنت أيتها الخمرة. طوبى لزارعي الكرمة وصانعي الخمر وسُقاتها. طوبى للانسان الذي يكتشف أسراره بالخمرة فيفصح عنها بعد رحيل الخوف وانهدام الجدران.

ودمشق قطار مُحمّل بالأمتعة، مُحمّل بسراب ملطخ بالدمقس والبروكار والنوازل، والانقلابات التي تركب قطارات الثورة. وفي دمشق كل شيْ يتلوث بعد حين. تاريخ رخي موشّى بالدِعة والمقايضة والكسب.

هنا الحياة هلامية. غبراء كسطوح المستنقعات وهذه مملكة السباخ. جمهورية القتل والنساءِ البيضاوات، يجتذبن برخاوة أصواتهن، وتهدّج بحّاتهن، سامر البدوي: الثوري اليساري الملفوح بشمس الصحراء، والحامل في دماه كل عطش العربيْ في القرن العشرين.

ـ «غبّ حتى ترتوي. هذه المدينة مباحة الآن ولك زمن محدود».

ـ التاريخ لا يتراجع. ومن يمتلك ذاكرة وقادة كالبرق ينتصر في النهاية.

ولو حاول شاهد إحصاء خطواتي تحت المطر، لتعب. نامت المدينة الآن. أضواء حمر تشفّ من النوافذ المغلقة، والمطر بلل العائق الهيمان الذي صار كالخرافة.

ـ «إلى متى»؟

وانعطفت.

حي المزرعة حيث تهجع حبيبة جسدي، متشح بظلام يوحي بالسكينة، والحراس قد ناموا. خطوات في الشارع الفرعي. اللص الثمل المجنّح بالجنس يطير إلى مراقد الخيانة. لكنه لا يسرق مالاً ولا مدناً ولا سلطة وتحت أبطه لايخفي بندقية. لا يطمح أن يكون ملكاً ولا قديساً. فقط يشتهي امرأة في ليل ممطر. في ليل حزين.

خطوات. قلبي يدق فزعاً ورهبة. مُشْتَهٍ ومتوجِّس. مقرور في ليل دمشق أبحث عن كهف دافئ.

نقرات ثلاث هي كلمة السر. ويشق الباب الهوينا.

-أهلاً وسهلاً. تفضّلْ.

تحت الضوء النائس، وجه مدلَّى مقهور، حرثه الزمن باليأس والخمرة. قامة أحناها التعب والمرأة المضغونة.

-كنت ماراً من هنا ورأيت نورك مضويّاً.

-جئت في أوانك.

وولجنا. قادني إلى غرفته، ومهّد لي السرير:

-هنا. إجلس هنا. أنت مبلل. إخلع معطفكِ وتدفأ. ورميت المعطف. تناوله وراح يجففه: مطر عجيب لم تشهده دمشق.

- تصور من النادي إلى هنا. صرت هكذا.

وبصوت متعب قال: طقس الشام معروف. بلدنا صيفاً محراق وشتاءً مغراق.

وغزلت عيني أرجاء الغرفة.

-« هذا كهف أيوب السرحان اذن»!

سرير عتيق، وثياب وسخة مرمية بفوضى في كل مكان. كؤوس وزجاجات فارغة. مدفأة حطب رمادها أكثر من نارها، ثم هذا الغبار فوق الجدران المطلية بدهان باهت. وهذا الرجل المهدّم.

في رأسي كان العالم ينفتل، وخارج بوابات الخوف والمفاجأة، استقرت أحاسيسي.

- ما رأيك بكأس؟

تجاوزت السؤال بمحايدة خبيثة وسألته: هذا البيت أليس كبيراً عليكم؟

صبّ كأساً من العرق مزجه بالماء: كبير ورطب.

ثم هز رأسه بتوجع: ألف مرة قلت لها لنؤجره ونسكن بيتاً صغيراً. السيدة المحترمة لم توافق. محال. الحجر يفهم أما المرأة فالعياذ بالله.

ثقب صغير تفتحه في سد فيندفع الماء المحصور، هكذا بدا أيوب السرحان في تلك الليلة.

تحدث عن طفولته وتاريخه وأملاكه وأسرته التي كانت تحتاز السلطة الدينية والمادية، وحكى عن زوجته العنيدة: المرأة بنصف عقل تصدق ما يقال لها بسرعة. أقول لها: دعيك من الناس يا امرأة. فتقول: أنت رجل خرف لا تعرف من الحياة غير الكأس والثرثرة. ما عدت تصلح لشيْ.

ويستطرد: إشرب أخي إشرب. اليوم ذكرناك والله. إبن حلال. ونشرب.

وهو يتحدث لا يرفع بصره إلى محدثه. عينان خابيتان انكسرت نظراتها، تنغرسان من تراكم الحزن والذل في الأرض. تحت العينين الحمراوين نصف دائرتين متورمتين، شادهما التعب والزمن.

- كانت لنا أراض وضياع ومواش، أكلها الناس. نصف السهول بالست زينب كانت لنا. بيوتنا ومزارعنا في البطيحة أخذها الفلاحون. أنت تعرف البطيحة؟

- خدمتي الإلزامية كانت في الجبهة.

ويتنهد: الحمد لله. نشكر الله الذي أبقى لنا هذا البيت من كل الورثة. تصوّر حتى أخوتي نهبوني. أكلوا زرعي وضرعي.

أقول لهم: لنقم بحصر الإرث لما تبقى فيقولون: الإصلاح الزراعي سيأتي على الباقي.

ثم يستدرك: أمينة تذكرك بالخير دائماً وسمية. لم يعد لنا صديق غيرك. أخي والله نحن نحبك وأنت لا أدري لماذا تجافينا. تعال واسكن معنا. نخصص لك غرفة مفروشة وكلنا بخدمتك. أنا أدرى بحياة العازب.

ويصمت قليلاً. نحو شجاعته القديمة التي فقدها، يحاول الابحار، يريد أن

يقول شيئاً أحسه، لكنه يخاتل: شباب هذا الحكم طيبون. شهادة لله. يحبون الفقراء وشجعان. ويتوقف. يتمتم: أما نحن فكما ترى.

وتمر لحظات من الصمت. أشعر بالضجر وأنا أستمع إلى أنينه التاريخي والنفسي، هذا الرجل المهدوم الباحث عن جسر مقايضة معي مهما بلغ الثمن.

وأبتسِمُ بهزء إذ تعبرني فكرة أن أيوب السرحان يعتقد أنني ابن حكومة.

- «أمينة يا جحيماً من جسد محرم لا يرويني». صاحت الخمرة والضجر. على بعد عشر خطوات كانت تستلقي فوق سرير جاف أيوب مذ عرفتني. طويلة بيضاء ممتلئة، تعبق برائحة أرض تشتهي تجاويفها العطشى مطراً انتظرته سنوات.

هوذا يتكور أمامي على جلد خروف عتيق. رجل منقرض يمتُّ إلى الدهور الماضية. يدخن ويحتسي خمرته في غرفة عتيقة تفوح منها رائحة العفن والإهمال. يرتدي منامة كابية تخرج منها رائحة حموضة.

حزينان وكلانا يفكر بشيْ واحد في لحظة واحدة.

- لو يموت هذا الحيوان!

وأصمت. هذه المرأة تحلم بحياة تولد من العجز، تخرج من الزمن الذي ركض فيها حتى أنهكها وظل فتياً.

- «لو ينكفئ الزمن»!

لكن الزمن يمضي فقط. يخترق كالمدية وتين الإنسان ثم يخلفه وراءه حطاماً.

الحياة هي الماضي يا عزيزتي أمينة. والثورة تحدث بقوانينها أو لا تحدث على الإطلاق، وهذه القوانين ما تزال طي المستقبل.

ذلك كان جدار الوعي المضاء من جانب واحد، وفي الجانب الآخر كان العجز والعطب. منى وأمينة وبقية الجسور المهدمة.

- أمينة. أحلم لو كنت لي...

ووراء الجدار المظلم أخفيْ النصف الثاني من الجملة.

أكان ينبغي أن نتزوج فتيين، قبل أن يغتصب حياتها أيوب السرحان وقبل أن نتهاوى في الاثم وغارات الثأر لاسترداد النقص الموروث؟

لم أكن أود أن يموت كما اشتهت أمينة. وإذا أفصحت عن رفضي لموته، سألتني: لماذا؟ أنت لا تحبني اذن!

وما كان باستطاعتي إفهامها بأنه يعاقَبُ بما هو أشد من الموت.

وتثاءبتُ.

- ستنام هنا. قال أيوب السرحان.

قلت: هذا ازعاج لكم.

وبقوة قال: لا. البيت كبير ولدينا سرير جاهز وغرفة لا ينام فيها أحد. بيتك بعيد ولا توجد سيارات بعد هذا الوقت.

برخاوة خمرية قلت: أمشي. أنا معتاد على المشي. ونهض يجهز غرفة نومي. كان يترنح محنياً.

أورثتني الخمرة صداعاً، وحكاية أيوب مزقتني ضجراً، لكن فكرة النوم في البيت أنعشتني قليلاً.

للحظة شعرت أن البيت ملكي، وارتمى على شاشة نفسي ضعف أيوب السرحان المقايض وهو يوشك أن يفصح: هيا إلى فراشها. إنها في انتظارك.

عندما عاد كان يتقدم مقوساً، متمهلاً، مخضوباً بالخمر. بلعثمة قال: أخي. البيت بيتك.لا . لا تخجل من شيْ.

نهضت. دارت الغرفة. وهوى أيوب السرحان مرتطماً بالأرض. هلعت. سارعت إليه. تأ تأ: لا . لا عليك. ضعني... في الفراش. نح... نحن نحبك كثيراً...

حملته بصعوبة. أرهقني إيصاله إلى السرير. غطيته وجلست قربه منتظراً غطيطه

كان وجهه بلون برتقالة نترت توّاً عن غصن أمها.

بصوت موجع خافت راح يئن: آخ... يا أمي... آخ... يا أبي... آخ يا أمينة...

ونام.

أطفأت النور وأغلقت الباب، وبهدوء مطمئن اتجهت إلى الغرفة.

الضحى. تململت في الفراش. كنت ما أزال مصدوعاً. عبثاً حاولت تذكر الحلم الذي رأيته. أشعاث منه هومت: مطاردة عبر جبال وعرة. رجال مسلحون ثم

اختباء في كهف صخري. امرأة ريفية هاربة وطفل مذعور تركته تلك التي يمكن أن تكون أمه. وأنا مختبئ أرتجف من الهلع. سحبت المرأة إلى داخل الكهف. كانت مذعورة تلهث. وإذ لامستها أحسسنا بقليل من الأمان. فجأة مارسنا الجنس بصفاقة وسرعة ونحن نسمع أصواتاً وحشية لأناس واقعين في ضيق. كان الكهف مفتوحاً من جهات متعددة وبدا ضيقاً. لم يكن هناك ظلام. شعرت بالقرف بعد العملية الجنسية. ثم لا أذكر شيئاً.

ونقر الباب. لم أتحرك، ودخلت بالفطور. حدقت فيها تحديقة رجل يعرف مواقع حبات ظهرها الأرجواني: صباح الخير. وبهدوء طقسي وضعت صينية الطعام قربي.

- لم لم تأتي؟
- لم أعرفك أنك هنا.
- كذابة. قلتها بحنق رجل امضى ليلته متوحداً.

واستحال فرحها غمّاً: ألم تسمعي الدقات؟

وهي خارجة لمحتُ كفلّها يرتج. كان حوضها يثير شهوة الحجر وهو يترنح داخل الثوب الوردي الشفاف، والمطعم بشجيرات سود.

إذ توارت فارت الرغبة وخمد الحنق. وددت أن أصرخ بها: عودي عارية فقد غفرت.

لا بد أنني شربت بالأمس أكثر مما ينبغي، ومن كل خمور العالم. عرفت ذلك من هذا الجشأ والفراغ، ومن هذا العزوف العضوي عن كل شيْ. موسيقى مبهجة انطلقت فجأة من الصالون، بدأت تعيد لي شيئاً من اتزاني. وقفت أمينة الآن على الباب وفتحت ثوب النوم الوردي لتثيرني ثم أغلقته. صحت بها: أنت امرأة فاجرة!

- لو تجسد الله في كيان إمرأة لعبدتُهُ. لو تفهم معنى ذلك!

سامر البدوي قال ذلك في الليلة الماضية، أو قبلها، أو ذات ليلة لا أدري.

- ذات يوم اكتشفت ذلك بطريقة طهرية. وقلت له: أنت تكشف الستر عن العربي.

وقال: الجحيم الحقيقي هو التجربة. بالخمر والمرأة نتعرف على ما وراء

الظواهر ونصل إلى نسوغ الأشياء.

وفي النادي صارحت راني عن منى: قالت أنها وجودية تعيش الخطأ والصواب لتتعرف على العالم والحياة الأساسية.

- هل قالت الحياة الأساسية؟
- أعتقد أنها قالت ذلك.
- هي أم أنت؟
- راني أنت رهيب. لديك إحساس بالتفوق. لماذا تعتقد أن الآخرين ضئيلون حتى الصفر أحياناً؟
- لأنك بروميثيوس ملعون.

لما حوصر ذلك الرجل المفتقد حنان الطفولة، حاول أن ينحرف. وراح يثرثر بتناقض معطوب يثير الشجن والمرارة. شجو الينابيع البرية يأتي محمولاً على أثير موسيقى الصالون. صوت نهنهة أمينة يأتيني مغموساً بدمع القهر والزمن.

- امرأة أساسية يا راني.

ويضحك من رغباتي المغموسة بالشعر والتصوف: امرأة فاقدة الحنان.

- أنت الفاقد حناناً لان العالم مركب بطريقة مختلفة لرغباتك.

وانهض. آتي بها من غرفتها: كنت تنتحبين؟ هيا نأكل معاً. هيًّا. وأطعمها بعض اللقيمات. شجوني أرميها في أودية النسيان.

أنقر أنفها: اضحكي!

ترفع كتفيها رفضاً، وحول شفتيها تزغف ابتسامة. أقبلها، فتشع ببريق طفولي مفقود، ونمضي في الثرثرة.

- أريد عصيراً.

بخفة امرأة مطواعة تتحرك.

- من منا الفاقد أبدية الفرح العظيم؟
- الفرح. ها. ها. يا للمهزلة.

ورغم ذلك أحببته كما أحببت أمينة ومنى وسامر وجميع الذين أحاول الاندغام بهم في هذا الشرق الكهنوتي.

كنت أمتحن نفسي على نحو تطهيري، محاولاً الخروج من الماضي، مكتفياً بعودته عن طريق الذاكرة. وكان راني يذكرني أبداً بالحزن والموت والمستقبل الغامض.

كان يخاف أن يموت العربي بموته، لهذا اعتنق الثورة من خلال قوانينه الخاصة.

داخل نفسه خلّف موت الأم صدوعاً عصية على البرء، وخلال الزمن حدث تركيز داخلي على حوافي تلك الصدوع، وتمزقت قوانين الخارج. لم يكن غريباً أن يبدو في أحايين كثيرة، معادياً، متناقضاً.

وإذ كنت ألمح إلى مزاجه الحاد، المُنفِر، يخترقني بعينين غريبتين: أنظر إلى نفسك. لا أحد نقي والإنسان قانون نفسه.

ولما أقبلت أمينة، غربت مشاعر الأسى وراء أفق حضورها، وتوقف التحليل.

شربت العصير الحامض، وسألتها عن أيوب فقالت أنه خرج منذ الصباح. حدثتها عن سهرتنا وثقته بي، وقلت لها: لو رآنا معاً في الفراش لاستدار.

وقالت بانه ابن حرام فلا تصدقه. يخمن كل شئ ويقول انني أرعاك وأحتفي بك بشكل خاص في الوقت الذي أنفر فيه من كل ضيف آخر، ولا أرضى استقبال سواك في غرفتي.

وكعادتها بدأت تشتكي من حياتها معه: لا ضمير ولا شرف. يأتي بالغرباء إلى بيته من الشوارع والخمارات. يقدم لهم الخمر والطعام. بلا سبب ينهبون حياته ثم يمضون. هل تصدق أنه يؤجر غرف المنزل لأناس من أي صنف ولا يدفعون الأجرة؟ ثم يقول لي: أنت السبب لولاك لما حدث ذلك. وتستطرد مكتئبة: والله لولا هذه الطفلة لأحرقت نفسي!

خلال لحظة يهب عليها عمرها المنقرض. تطفو كآبتها فوق وجه أمومي آخذ بالإنحدار والتهدل، فتشارف الانتحاب: آه. لم يعذبني إنسان كما عذبتني. ليتني لم أعرفك. مذ عرفتك وأنا أتمرمر. أحبك حتى الموت. هل تعرف هذا؟

وتقترب مني. تطوقني وتنشج. أكفكف دمعها حانياً، مجروحاً بعجزي.

تُنهنهُ: في منام قديم جئتني. كنت على حافة هاوية على وشك السقوط فحملتني بعيداً عن الموت إلى بلاد بعيدة، فيها بحر ومروج خضر. وها هي الأيام تمضي ونحن لم نتغير. في الليالي تأتي كطائر غريب. لحظات وتمضي. أسبوع

أسبوعان. شهر أحياناً ولا أراك. لا أعرف عنك شيئاً. حرام حرام هذه الحياة.

كانت تحاذيني وفخذها يلامس فخذي، وكنا ما نزال بثياب النوم. وإذ بكت أحسست وخز الاثم والكذب، وانتابتني رعشة غمّ. برفق طوقت ظاهر رقبتها. دبّ ساعدي على حرير اللحم فانجاب طيف الكذب. برفق سحبت ساعدي فمشت رؤوس أناملي على مرج ظهرها الأملس.

رويداً رويداً راح نحيبها يتخامد. طويت رأسها في حضني، بينما خلخلت أنامل اليد الأخرى باتجاه سفوح صدرها. كانت حلمتاها قاسيتين كمسننات الصخور. وعلى مهل راحت الأصابع تضغط ضغطات رفيقة تلال النهدين الناعمين المستسلمين.

تململت رافعة نحو وجهي عينين ضارعتين، وجِلَتين. رمقت تورّد الخريف المكابر في خديها. وبعد حين بدأت أصداء الرياح تولول في غابات جسدينا.

[]

لا تسأل لماذا يعتكر عالم المسرة. ولماذا ينقضّ الحزن كالسكين من عالم مجهول. المدهش في عالم هذا العربي، لحظة الفرح.

ويترامى صوت منى مفجوعا، ممدودا من دمشق الى القاهرة: ميسالينا. ميسالينا.....

في وطن بعيد بجزوه، كانت تنمو كفسيلة كرمة اجتزّت في شتاء قاسٍ، وطفَت هناك.

– كم مضى عليك لم تربها؟
– اربعة أعوام.
– هل تذكرينها دائما؟

ويعتمر وجهها بلهفة عشق مُستلب. تغني لها: ميسالينا قمر مكتمل ينشر ضوءه في وديان نفسي، لكنه ناء لا اطاله. كل يوم أسافر اليها على أجنحة الشعر والتوق. تغمرني في الحلم واليقظة، وتظل قصيَّة، قصية كنجمة نائمة. آه لو عرفتها يا عزيزي. نسخة عني ميسالينا اليتيمة. لا أب ولا أم ويوم تكبر ستلعنني.

وتهاجر بعيدا عني روحها. يخضبها أسى الفراق وأنا قربها عاجز عن فعل شيء لها. على فراشي، كشجرة مقتلعة، مطروحة فوق رمال الصحراء، حلمت

بالعودة الى قريتي. الى امي. بدا لي ذلك، حنيناً هارباً، منقولا كالرعشة فوق حبل السرة العتيق، الممدود من بيتنا الريفي القديم الى بيت أمينة الدمشقي.

[]

مشتبك هو العالم كشبكة تداخلت خيوطها، ومبعثر. نحن بشر هذه الارض نبدو كشتات رمل منتشر على ساحل العالم. والكل يجهد ليصل الآخر، واخيرا نسقط كالودع من يد بصارة موشومة اليدين والوجه.

لو قلت لأمينة مليون مرة: أنا مفتت من الداخل، موسوم بلعنة البحث عن الاصل. عن الصدق. عن الرضى. وعن مطلقي الخاص في الاشياء، لبدوتُ أمامها ممسوساً يهلوس بكلمات هيروغليفية من قبل عصر امنحوتب. امينة تريدني وأنا أريد جسدها. أيوب السرحان يريدها وأنا أريد منى، ومنى تريد ميسالينا.

وأنا وأمينة وأيوب السرحان ومنى وميسالينا، ندور كالدراويش في حلقات ذكر حول جدار الزمن المرفوع بيننا جميعا.

لماذا فقدان الامان؟ ولماذا كل منا يلهث وراء جذره في عالم يبدو أحيانا بحجم غرفة وأحيانا بحجم اللانهاية؟ لماذا. لماذا...؟

وفي ليلة خمر. في مكتبه الخاص، يقول سامر البدوي: الانسان مركز العالم.

أقول: قديمة. لقد انتُهِكتْ جميع القيم تحت راية هذا المغفل البائس: الانسان.

كنا ثملين تقريبا ببراندي كوبية. سامر مشرف على منارات البوح الداخلي.
أثرته: ماذا تعني بالانسان. الشخص الذي هو أنت، أم مطلق انسان؟

هدر في وجهي: أنا يا أخي. أنا قطب العالم.

وتظاهرت بالانكسار والغفالة فصمتُّ. بنرجسية مغبطة راح يسرد: في سن الثامنة عشرة بدأت أشعر بالمواربة والتنحي. كنت قد بدأت أقرأ جوته وجبران. أي شعور خاص يتحرك فيك وأنت ترى احاسيسك مجسدة في كلمات الآخرين! فجأة قررت الصمت. امتدت فترة الاغتراب والصمت خمس سنوات تقريبا. خلالها تضاءل الآخرون وضمروا. وخلالها قرأت بودلير ورامبو وبيرون الى آخر القائمة الملعونة. كنت أرغب الخروج الى البراري، أمشي وحيداً وأتامل. اصطاد الحشرات وأنام في المغاور وأطارد البدويات. أول علاقة حب جنسية كان عمري عشر سنوات.

حدث ذلك في مغارة بعيدة مع بدوية صغيرة. وذات مساء وأنا اراقب الغروب شعرت بوحدتي المطلقة كالشمس في هذا العالم.

ويفرك صدغه متوهجاً ببوحه الخمري. أشرب بصمت دون أن أرنو إليه. نُدخّن. يتنهد بقهر شفاف، محترقاً بأشعة الماضي والحاضر، مذعوراً، من المستقبل: فجأة سقط البشر من حسابي. جميع البشر بلا استثناء: الاصدقاء والدم السلالي اللعين. الحلال والحرام. السلوك والشرف. الله والدين.

ويستمرّ: قررت أن أخترق صلابة العالم وتقاليد الناس بجسدي ونفسي. لقد صممت أن أدوس كل تابوات شرقنا العزيز بقدمي. «بروتوغوراس» يقول: الانسان مقياس جميع الاشياء هذا صحيح وحقيقي.

كنت أتملى مكتب سامر البدوي المطوق بالستائر الزهرية، مسترقاً البصر نحو وجهه المتعب وأنفه الشبيه بأنف سيرانودي برجراك، ثم جسده الفحل المماثل لاجساد المصارعين السبارطيين.

لماذا دخل مغارة تنقيبي عما وراء الظواهر، ان جسد سامر ربما كان منفاه وعلّته، وان امرأة دمشقية تريد أن تصل من خلاله الى رغباتها الانتهازية، قالت له ذات مساء خمري: يا لجسدك الوحشي الرائع؟

على نحو لعين حضرني ذلك، فقلت له عائداً الى النقطة المركزية: قررت اذن أن تكون قطب العالم!

ونهَدَ من خلف مكتبه: اما أن تخضع لما يريده البشر أو تريد ما لا يريدونه.
ولأنني أردت ان اكون نفسي قررت أن تصدر أوامري من دماغي وليكن الطوفان.

واستطرد: سأقول لك شيئا في لحظة صحو صوفية. قال الحلاج: ما في جبتي الا الله. وأنا أقول: ما في جبتي الا رغبتي.

أنا البؤرة والمركز والمطلق وما عدا ذلك الى الجحيم. هكذا افهم الثوري.

وفي متاهة الخمر والنرجس تاهت دمشق وتاهت منى وتاه شبلي بن عبد الله الحزين. وكما ابتلعت آخرين. ارتسم الآن في الأُفق دورهم الجديد عبر الفخاخ المنصوبة.

نسوة كالورد، كالصباحات العبقى المُنَدّاة. اجسادهن تتفتح في المساءات الرخية النعسة، كما يتفتح الياسمين والبنفسج في الظلال. الأجساد ظمأى ودمشق البحر والصحراء وريح السوافي.

هي ذي مدينة الملعونين ايضا. مدينة الانبياء الذين ماتوا جوعاً وعطشاً في مغارات قاسيون وما كفّنوا. تلوح صامدة، حزينة تحت البصر.

وفي الغرب تقوم صخرة شاهدة ما تزال. يسمونها صخرة قابيل. لونها بلون النبيذ، وتحتها مغاور هُجرتْ من عصر قديم، من عصر الاسكندر ربما او عصر معاوية، أو عصر كسرى، أو السلطان سليم. في الغروب تبدو مكللة بكآبة خاصة لا يعبرها غير الزمن.

بذلك كنت أُفكر بعد أن خرجت من مكتب سامر، تائهاً في الشوارع والصمت. وأمامي قاسيون.

الفصل الثاني

- ١ -

سامر البدوي ثوري العصر الملعون، ثم الطبول التي تقرع. الطبول. الطبول. افريقيا الوطن والجنس. وآسيا الساطعة بالشمس والأمجاد المنكّسة. آسيا الملعونة. أفعى تحت إبط حاوٍ والرقص في الليالي المشحونة بالاثم المقدس.

الضوء الأحمر ثم الأزرق ثم الأصفر مرة اخرى. ودمشق مدينة آسيوية محاطة بالصحراء والغابات، ملفعة بالثلج آناً، والنهارات الحارة آناً آخر تقع في أواسط آسيا: أرض الشهداء والجنس والرغبات التي لا تتحقق.

من المتشحة بياضاً هفهافاً، يرفّ فوق جسدها الابيض. في حلبة الرقص كحامة برية تطير، تدور. تتلوى. وشعرها الحريري ينفرد ويلتمّ. يخرقه الضوء. يحجب الضوء. تنحني. تنهض فينهض الثوب منحسراً ليلمع فخذان مغسولان بالضوء. الضوء في الضوء والجسد نهار، وعينا سامر البدوي رمحان يخترقان بحيرة الجسد.

يولَجُ الليل في النهار ويولج النهار في الليل، والطبول تقرع. تم. ترم. تم. تتم.

– الريفيون غرباء في هذا العالم.

– غرباء ومقهورون في عالم التم. تم.

تنفرد الحمامة الآسيوية بذكر آخر. تجوح رأسها يميناً وشمالاً. الى الامام والخلف. تدوخ فتدخل عالم المس. عالم التصوف الجسدي. الدراويش يهتزون في الحضرة النبوية فيدخلون عالم فرويد. يتضوأ الجسد جنساً مفتوحا فتتفتح المسام. تشفى. والجنس هبوب صحراوي لريح سموم تنطلق من الجهات الاربع لتصب في آسيا.

فضاء المرقص وشاح من دخان وكلمات سكرى، تتبدد قبل ان تصل السقف، وشهوات.

ما تزال الحمامة تنوح بجسدها، ترفرف فوق اليمّ بينما عينا سامر البدوي تمارسان التعرية، ناسياً مرافقيه والصحفية السويدية المنهمكة في التحدث عن العرب واسرائيل.

على جدار العمود يتكىء ظهري، وعطر الصحفية النفاذ يضوع ماسحاً وجهي. جاري يرطن معها بفرنسية مربكة، والويسكي العظيم يسحبني بطيئاً وسريعاً الى وديان الدوار.

لم أبال كثيرا بالسويدية التي قدمت لنا سيكاراً، لكنني قلت لجاري: عيناها كحبتي زيتون في كرومنا البعيدة.

وترجم لها فأصابها فرح خاص. وسألته عني فعرَّفها بي واستدركت بفرنسية عربية: لا. لاتصدقيه. انا موظف من الدرجة السادسة. وانخرطا في حديث سياسي.

الرقص هناك على مسرح آسيا، والموسيقى. اذرع رشيقة تتلوى وتنادي. نحور مكشوفة، وظهور كثلوج السهوب، ارجل تقيم طقوسا وعيون تلتمع كالشرار. فساتين كالرايات تخفق. ترتفع. تتسع. تضيق. أعلى أيضاً. هاي. تم تم.

احتفال الشبق بوجهه الرسمي وطقسه الوحشي. ووحده اللاوعي ملك المخلوقات المتمدينة غير المتوج.

لا شيء يعيد صفاء البحيرة المعتكرة. الموسيقى والروائح بحر مجنون يضرب موجه صخور الاعماق، والهياج يرتقي مدارجه، وآسيا تترنح.

وسط الهياج يسألني سامر: أين أنت؟

فأقول: اغوص نحو لا مكان.

– ما رأيك بهذه الشقراء الالهية؟

ثم يغمز بعينه الى الصحفية.

– بروحي كل نساء التابو وكل نساء العالم. ولكن... وهمس في اذني: لذيذة في الفراش كالشعر.

– نمتَ معها؟

وسامق ضحكته الجنسية في فضاء التابو، كأنما رام اهانتي وقصوري عن نيل النساء اللواتي يطالهن.

– سامر ألست كاذباً؟

وصاح: أنا؟ الهك يكذب أما أنا!

تجهم كمن طُعنَ في قلب تاريخه الشخصي: عندما جاءت قبل شهور سهرنا معا في التيفولي. شربت ويسكي حتى ثملت. عرضت عليها ان اوصلها الى الفندق. دهشت من العرض وفاجأتني: أليس لك بيت؟

كانت زوجتي مسافرة.

واشعل لفافة ثم تنهد وزفر الدخان: آه يا الهي كم كانت عذبة!

ولا اقفر من توحده. هذا الذئب الصحراوي الذي اختار الجنس مأوى كما اختار الاخرين شاشة عرض لأناه التي تدرنت حتى شارفت تلال النبوة، صائغا حياته جحيما ومطهرا في تجربة الائتلاف الحسي.

ذات يوم عبر عن ذلك: في وجهي – أعرف ذلك – ثمة خاصية شهوية تجذب النساء. آه. انها لعنتي الخاصة ان اكون هكذا.

ذلك المساء كان مبهجا في البدء، فيما بعد ارتخى بالرصد والتحليل، وأمواج حكايا سامر الكاذبة، حتى خبا. وكجميع مساءات الغرباء القادمين من جرود آسيا الملتهبة، هوى في بؤرة النفس واستكان.

– ٢ –

صراع من أجل الخلق. من أجل الحرية، ومن أجل التوكيد، عبر عالم يتشكل بشخوصه الذاتيين وشخصيته الاجتماعية. عالم يحاول كل فرد فيه ان يكون هو بطريقة درامية مضحكة، مغفلة احيانا اخرى. فجأة تسقط داخله. ومن كل جانب يلطمك الموج. موج أهوج اضاع بدءه ونهايته، والقاطنون قديما هنا، قساة وناقصون. استطالت انيابهم وأظافرهم وألسنتهم حتى صارت اكبر من اجسادهم. يحدقون فيك وتبدأ معركة الطعان تغطية للنقص والبنيان الخرع.

ملايين الافكار التي تتضارب وترتطم كموج يفني نفسه بنفسه. والكل مسؤول ومهتمّ متى شاء، والكل محايد في ازمنة الحرج والضيق. أهو العربي يعبر التيه ولا موسى؟

أنبياء وصعاليك. قادة وجنود. شعراء وباعة. مناضلون وبورجوازيون. آلهة وسفلة.

ارث جاهلي، ووشم من عصر صدر الاسلام. نزوع جنس قديم قدَمَ الصحراء والشمس، خمر وجدل من عهد ابي نواس والمعتزلة، مزيج الانحطاط مع شرارة اليقظة المعاصرة. وفي خضم هذا التاريخ المرتج تنزع لأن تتطهر.

وترى كل شيء ملوثاً حتى نقي العظام، ملتوياً حتى درجة قوس الانكسار، فتتساءل: هل ثمة خلاص؟ وكيف؟

جمهوريات العدل. ممالك الشعر والفن. انفجارات الجسد. كهوف العزلة الخاصة المريحة، حيث يبحر فيك العالم وأنت في جزيرة حي بن يقظان تحاول اكتشاف المعرفة البدائية بالتلمس والتأمل والتجريب. واذ تُنهك بين هذا الموج المحتدم ينده وجهك الداخلي: هل لهذا المسكين في هذا الزمن الضاري بقعة تحت الشمس؟

وفي الذهن طنين ابدي. تساؤلات بعدد رمل البحار من يجيب عنها؟ وكيفما اتجهت ابرة المغناطيس يظل سؤال دائم يدوي: ما قيمة الانسان في العالم بلا ضوء نفسي يهديه الى نسوغ الاشياء؟

– «اتلف حسّك حتى يتلوث نقي العظام ثم ابدأ حياتك على انقاض المغامرة الشخصية.».

سامر البدوي والزمن القصير يقولان ذلك. عمرك الذي لا يعاش الا مرة واحدة يصدي عبر وديان مقفرة: «أين انتِ أيتها الكفاية المفقودة في مدار النقصان الصحراوي؟».

- ٣ -

- من أنت؟

- رجل يسابق الزمن.

ضحية جديدة في عصر الخلل العربي، هذا الذي يفعل ذلك. متوحش صلب من نسل مشوه. يفيض غضباً وانانية. في نفسه قنبلة موقوتة، يود لو يضرب الشمس والقمر والارض ليثبت أنه اله في عصر القرود. على اجساد النساء يُلاشي عمره ليقهر التشويه وغلبة الزمن للأب الذي سقط جريحاً، مشوها فوق تراب فلسطين.

أحببت سامر البدوي بعد ان تعرّى أمامي بكل أدرانه، وتآلفت مع راني حتى المكامن المخبأة، كذلك أمينة ومنى، جميع هذه الجحافل المقهورة كانت جزءاً مني، لكن هذا الوحش كان استثناء مفزعاً.

- كان عمري اثني عشر عاما آنذاك. أخبروني ان المصابين والجرحى قد نقلوهم الى المراكز الخلفية في القنيطرة وان والدي بين المصابين. خرجت من البيت عدواً. هناك في باحة ضيقة كانوا يئنون. كان بينهم رجل جسده في لون الفحم، محروقا مدلى القدمين فوق نقالة، الدم والعظم قد امتزجا بالغبار وبارود القنابل. أغمضت عيني حتى لا اراه. ويحتقن في جبينه غضب مر. يتابع: لم يكن هو. أبي رجل طوله متران. اشقر. صدره عريض كالجبل تخافه الانس والجن. ابي... وكزّ فسمعت سحجَ أسنانه. وصفّى كأسه.

كانت أصابعه تتخلل شعره الاشقر وراح يشده بحقد. بقسوة رنا إلي. في عينيه لمحت انحراراً اجتاح بوابة الغيظ: من كان ذلك المحمول، تسألني؟

قهقه بسخرية مفجوعة. وبطرف اصبعه اشار الى نفسه: اجل انا. ورفع كأسه ثم تأملني ملياً وبحركة مسرحية احتسى طويلا.

- منذ سبعة عشر عاما وما يزال ذلك البرج السامق الذي كان يكسر الحديد، ملقى كجثة فوق فراش قذر لا يقوى على النهوض. اخيراً سقط النمر في حفر الخيانة.

وجرع ما تبقى.

في تلك اللحظة الصافية كالدمعة، الداوية كالرعد، احسست اني قريب من وائل الاسدي قربي من سائر المفجوعين الآخرين.

بعد اشهر من تعارفنا روى الحادثة في مطعم الجندول. اثرها ادركت لماذا يسوق سيارته العسكرية بسرعة الريح، ولماذا يشرب الخمر بتلك الطريقة الوحشية، وينتقم من نساء دمشق على الطريق المؤدي الى قطنا والقنيطرة، ولماذا اختار ان يكون ضابطا في الجيش.

في التاسعة والعشرين. عيناه بلون البحر، وصدره شبيه سنديانة فتية، ووجهه كرغيف أبيض حار. مع اسرته هاجر من اسكندرون وكان طفلا.

يوم تعرفت اليه لم يثرني. في مشيته خيلاء مزهو أحمق يمثل، وطريقة حديثه عن نفسه ومغامراته تثير القرف والاشمئزاز وتغطّي غباءه المستتر. يومها قلت في سري:

هوذا نرجس آخر يرى نفسه في مرايا وجهي. وافترقنا.

لا ادري من الذي قال: عندما تفهم حالة انسان تحبه. ومن الصعب ان تستدير للضعف البشري فتقابله بالكراهية واللامبالاة. وفيما بعد رأيت نفسي قرب وائل الأسدي فترة من الزمن.

- هدى شعراوي.

- ناديا ابنة عمها.

- الفوضوي شبلي عبد الله.

وأشرت نحوه ساخراً: وائل بك المحترم سيّد مدينة دمشق وحاميها.

وبصق في وجهي: «بك» يا ابن الزانية؟

وضحكنا بحرارة.

واذ رمى معطفه للنادل مع معاطف النساء، استوى على الكرسي بأبهة رجل شرقي زاخر بالفحولة والثقة، بين صبيتين دمشقيتين احداهما عشيقته، والاخرى

شاهدة. نده بصوت عسكري: هيه. هاتوا لنا من خمركم القذر ما تيسر. واطلق شتيمة اثارت الضحك.

– في كل مكان تنثر دررك. ماذا تترك للملمات؟ وشتمني.

اخرج علبة «الجيتان» مررها علينا. رفضت اغاظة له: انا لا ادخن لفائف البورجوازية الجديدة.

زوَرَني بعينيه البحريتين زاماً شفته السفلى: هِمْ. ثوري فوضوي لا يدخن الا التبغ الوطني.

ونخر متقززا.

– ادركنا بالخمر. ودع جانباً الوطن والثورات قلت.

– لماذا؟انتم المثقفون جدا لا تطيب لكم مناقشة الوطن والثورة الا على موائد الخمر.

وقلت بقرف: اخي. الثورة لكم. انتم صنعتموها وأنتم حماتها ونحن رعيتكم. مُروا ونحن ننفذ في جميع الازمنة. اما الآن فأرجو أن نسكر فقط.

– ولو. أنتم آباؤنا الروحيون. نحن بدونكم طبول فارغة. يا خمار هات أجود الخمور للفيلسوف.

واستطرد ماداً رأسه ولسانه باتجاهي: لم يوصلنا إلى الدرك الأسفل إلاّ الآباء الروحيون الأوصياء. ثم قهقه ساخراً.

– البركة فيكم سيدي. كل ما خربت تعمرونها بانقلاب. وجاء الخمر نبيذا ايطاليا هلل له وجه وائل، راح يصبه في اقداح انيقة خاصة.

واذ صب لي نصف الكأس قالت هدى: ما أبخلك! صبّ له ايضا.

– سيادته لا يحب الكؤوس الطافحة. واضاف: هذا الانسان لما تعرفيه بعد. محبوب ومكروه بدرجة واحدة.

بعذوبة طفلية ابتسمت ناديا.

كانت قربي. سمراء يلوح على شفتيها وفي الزغب النامي تحت سالفيها، أنس طفولي غامض.

وكعادته وهو يحدق في وجهي، بدا متحفزا للحرب. للضرب بلا سبب. وشربنا نخب النساء الجميلات.

في البدء بدوت مرتبكا، أحسّ هو ذلك فانطلقت روحه الهجومية وأشرك هدى معه. كانت ناديا ملفعة بصمت شرقي خجل، بينما انبرت هدى تثرثر وتلز حتى التصقت به.

كنا نجلس في زاوية منفردة، شحيحة الضوء، وبعد الكأس الثانية انتشت هدى: وائل رائع. سيئته الوحيدة انه لا يحبني.

توجهت الي بجملتها. قال وائل: انت مخطئة. وطوقته ثم قبلت وجهه.

– هدى، لا تفعلي ذلك أمام هذا الفضائحي اللعين.

بحياد ابتسمت. حككت جبهتي تغطية للارتباك الذي بدأ يتخللني.

وسألتني هدى ان كنت أعرف وائل من زمن طويل. وراحت تحكي عنه وعن رجولته وقلة وفائه ونعومته في الحب، وهي تداعب شعره القصير الأشقر، وعيناها تلمعان ووجهها يتوهج باشتهائه. ازداد خجل ناديا. بعينيه اوعز الي أن التصق بها. لمحت احمراراً يتشكل في عينيه، بانفعال متصاعد راح يكرع. كانت هدى تغلغل بلا حياء اصابعها في شعرات صدره.

وسألتني مرة اخرى ان كنت اعرف وائلاً على حقيقته، ولم تنتظر اجابتي فقالت: وائل عظيم. انظر اليه جيداً. هل أصلح انا زوجة له؟

رفعت كتفي، وشربت من كأسي. قالت هدى كأنما تحدث نفسها: لا.. لا ... انا لا اصلح. البنت التي تسلم نفسها بسهولة لا تصلح. انا. انا. اعبده.

كانت قد ثملت فبدت في اضطراب هزه وائل بصوت جارح: هدى. كفي عن هذا الهذيان الاحمق!

وكالبرق طوق قبضته وهوى بها على سطح الطاولة.

بدا الجو مغلقا. كان هناك حصار وصمت. وداهمني احساس الفرار. لم تكن الامور تسير في مجرى طبيعي. وقربي انثى غريبة ولم اكن اتقن المقدمات الكاذبة. وفي لحظة خيل الي ان الذي بدأت اكتشفه في الآخرين غائم ومضطرب. كان هناك عتم ومكامن تتوالد فيها اسرار. غابة فسيحة، مظلمة، مخيفة، يكتنفها غموض واشياء عصية على الكشف. وقلت لنفسي: البراري هي ما يريده الرجل والمرأة. هناك تُفتح كل البوابات المغلقة.

واذ انتبهت حولي للناس الذين يثرثرون، فارشين بالنوادر والضحكات والشوق

ما فاتهم للوصول إلى البراري، ورأيت الخمر والعيون المشتعلة بالاسرار، فارت في اعماقي ضحكات المعتوهين. ضحكة فاسقة ومريرة ودت لو ترج مكامن البشر، ووديانهم الداخلية. كتمتها وافرزت افترارة أسى. في عيني هدى لاح ما يشبه الدمع.

خرق وائل صمتنا: بماذا تفكر؟

قلت فجأة: بالاقدام التي لا تتقن الوثب المباشر!

وتتمة لما هجست به، ابتسم ساخراً مدعياً بخراقة أنه فهم ما قصدت، فقال مدارياً فهمه: الاقدام تثب في اللحظة المناسبة.

طويت الجملة والأفكار ومباريات الفهم، وقلت بعفوية: هدى. لا تكتئبي. في العالم لا يوجد ما يستحق ذلك. نخب وائل. وصفينا كؤوسنا عدا ناديا.

تجرأت قليلاً بعد أن أحسست بمسؤولية إعادة الجو إلى حالة صفاء. سألت ناديا موشوشاً: أنت عادة لا تشربين الخمر؟

فأجابت باقتضاب: نادراً.

ودخلنا في أحاديث صغيرة قطعتها هدى مبتسمة: ها. بدأت الوشوشات. أخونا انتبه هذه إبنة عمي.

وقال وائل: تحركت الحجارة أخيراً.

وقلت لهدى: هل علي أن أقدم طلباً بطوابع عن طريق التسلسل لتسمحي؟ ضحكنا. ناديا ابتسمت أيضاً فبدا وجهها صبوحاً مشرقاً. قالت بهدوء عذب: أنتما صاحبان من زمن طويل ونحن لم نكد نتعارف هل يمكن أن نتصرف مثلكما؟

بشبق قبلت هدى وائلاً على شفتيه، فانتشي. ومرة أخرى مصت شفتيه محدثة صوتاً. رنوت إلى هدى التي كادت تسقط خجلاً وهمست: لا تنظري إليهما، هذين الفاسقين!

بين أصابعها خبأت بسمة، وهي تحدق إلى الأرض. لماذا تسرب إلي إحساس بفكرة الزواج من ناديا، وأنا أطل على وجهها المبتل بالاضطراب والخفر، وقد نكست رأسها وراحت تداعب ساق الطاولة!

من النافذة بدت حديقة التيفولي. أشجارها تحركها الرياح، وعشبها يلمع تحت الضوء. وهطل المطر. خفيفاً راحت قطراته تسح فوق الزجاج، وعلى الأشجار

والعشب شالت موسيقى منداة بالحزن والرغبة. الساعة الرابعة تماماً وأنا أتلوى بعد أن شربت جرعات سريعة لأثمل. الزمن تحلل، انسل مني ووقف على الباب، في ثقب المفتاح الذي لا يحدث صوتاً، وفوق بلاط الصالون الذي لا إيقاع له. الصمت. ومنى جرثوم يمشي في الدم. سكنتني منذ الوعي الأول، تطارد ذرات أيامي، سكوني وحركتي. انتظاراتي، ولما تأتِ بعد.

ارم ثيابك في هذه الغرفة المقفلة، واخرج عارياً. اركض في الشوارع أمام الناس، واصرخ في وجوه الذين يهزؤون منك: المرأة شمس الرجل، ريحانه وكفنه، بحره وزمنه وبراريه، فهل رأيتم لي أيها الشامتون شمسي الغائبة وزمني الذي لا يجيء. هل رأيتم لي أنسي وكفايتي ووطني!

تاييس. عشتار. هيلين. سندريللا. منى. أمينة. ديانا. الماضي كيف ينزلق ثم لا يعود. والتي كانت بهية كالغابات لماذا اختفى بهاؤها؟

لو أستطيع أن أصلب لك الزمن يا عزيزتي أمينة. لو كان بإمكانكَ أن تردَّ الشمس عن مغيبها. ان توقف الأرض عن الدوران، فلا يكون هناك ماضٍ ولا حاضر. تقف مع منى على سطح الأرض فتكونان الفصول والمطر والشمس، الشعر والرغبة، العشب والطيور، الحجر والنسغ، ولا تغيبان أبداً!

ساعات والخمرة تسوح في خلايا الدماغ، تتسلل إلى الأعصاب كمهر جامح، والرأس يتململ فوق المخدة، والأسنان تنز شهوة.

ومنى لاتأتي.

والصور تتوالد من الصور. أطياف خضر وحمر، أطياف مجنحة لها مليون لون. لها روائح ولها إيقاع. تدور في فراغ الغرفة. في الغابة الموحشة. منى في المركز تماماً رهو من الضوء الفار، عصي على الالتقاط. تدور فتأخذ أشكالاً أسطورية. أشكال حوريات عاريات، مجللات بالمهابة والكبرياء. أميرات من عصور قديمة لهن سطوة ومجد وجمال، بهيات كقوس قزح.

كل أطباء العالم عاجزون عن شفاء هذا المواطن الجريح.

ومن كل مكان في النفس والجسد، الجراح تنزف. وهذا المواطن البائس ينزف لعجزه عن التقاط المركز والأشعة الداخلية. ثم هذه المنى لماذا لا تأتي؟

وقال وائل: إيه. جاءك الغياب أين وصلت؟

ارتسمت إبتسامة بلهاء فوق وجهي النازف كآبة، فافتررت.

– نخب الأحباب.

قرعت كأسي بكأس ناديا. وإذ رفعت وجهي نحو وجهها الجامد كحجر، لمحت كآبتها أيضاً. بعد الرشفة سألتها: ناديا هل أنت حزينة؟

تململت قليلاً وتمتمت بأناقة متزنة: لماذا الحزن!

ولم تكن تسأل. وكما تعبر ريح خفيفة عبرت كلماتها. ودخلنا طور الثرثرة والأسئلة العادية. عرفت انها خياطة، تقرأ مجلات السينما والممثلين، تحب النزهات والسيارات. تخرج قليلاً مع هدى وصديقاتها ومن ألوان الثياب ترغب البيج والسماوي.

– ناديا أتكتبين مذكرات؟

– مذكرات؟

– أجل. أشياء خاصة عن حياتك؟

وضحكت بعذوبة وحياء، فشعرت أنني أغبى أهل الأرض.

– لماذا يكتب الإنسان مذكرات؟ الحياة تعاش وكفى.

[]

عندما اختار سامر البدوي أن يكون شاعراً وهو يرقب رحيل الشمس في الصحراء، ذات أصيل، هل فكر أنه سيفقد الحياة الحسية من أجل الشعر؟

وإذ اختار هذا النمط من العيش كيف انخرط ملتزماً بالجماهير والثورة؟ جاهداً يحاول أن يوحي، بأنه متوازن بين كفتي الحس والشعر، بين الانا والآخر، وإذ تتقدم قليلاً قليلاً في دروب نفسه، تدرك بحزن أنه ربح نفسه فقط.

ثم تدرك أن حديثه عن التوازن، لا ينفصل عن الورم الراغب في تكثيف العالم وحرقه في جرنه الخاص حتى لا ينهزم.

– شعرك تهويمات محض شخصية. تزوغ في رأس منفجر بالخمر والتمرد الفوضوي. عندما تكتب الشعر تولد لك عين ثالثة ترى ما لا يراه الآخرون.

– ذلك هو الشعر.

– بل ذلك هو التمثل الطبيعي عن طريق اللغة. هل تود أن يقال عنك أنك شاعر سريالي؟

– هل يعني هذا أنك ضد الخلق؟

– لا. ولكني ضد التركز الذاتي المفرط الذي يفني الشعر. يخلخله فلا يكون لغة العالم على مر الزمن.

– الفن ينطلق من التجربة الذاتية والشاعر ذاتي قبل أي شئ.

– الفن تجربة ذاتية عمومية.

– الحزن هو الحزن. والحب بحديه الجسدي والنفسي لا ينقسم.

– أبداً. الدوافع تختلف وردود الفعل تختلف. داخل كل نفس للحب والحزن معنى خاص. الفن العظيم أن تكتشف الحزن والحب العموميين من خلال حزنك الخاص وحبك الخاص. بذلك تتم عملية الايصال إلى الآخر.

ومحال أن تصل إلى قناعة مع رجل اختار نفسه ونفى العالم. إنسان يقول لك في نهاية الحصار: أنا هكذا. حجر في صحراء ليس لها أبعاد خارجية.

– ٤ –

صلاب كالصوان. أنانيون وعدوانيون. موقوتون كقنبلة زمنية. إذ تقترب من خباياهم تنعقد أقواس حواجبهم. شيءٌ ما يغلي في دماهم، فيستدعون جيوش الأذى والاقتحام. آنذاك فقط، تعمل ذاكرتهم على نحو مدهش ولئيم. يستعيدون هفوة صدرت منك. يضيفون إليها هفوات. يراكمونها حتى تصير كتلة من طين قاس، وفجأة يرشقونك في الظهر. إذ ذاك يشعرون بالغبطة، وان نفوسهم المطعونة قد لقيت أمانها المفقود.

أشعلت الخمرة نفس وائل فشب الغضب في عينيه. احمرت أذناه، وراح يمج لفافته بشبق واضح. تراجعت إلى الخلف. لمحت فخذ هدى العاري مشبوحاً فوق فخذه. كانت عيناه تطعنان صدري. غمزني فقلت فجأة: دعونا نرحل.

أقول لمنى: أضيئي للذي يناضل ضد تاريخه. اقتربي أكثر لعل شجرة أيامنا اليابسة تورق!

تحدق منى في وجهي البائس، وتخترق حجب الغابة. تهز رأسها وتبتسم بمرارة.

يغمرني ذل وحزن يشرفان من عينيها. فأحس أنها تاريخ آخر، زمان آخر لا صلة لنا به. فصمته ميسالينا ودمشق المتلهية بقتل فرسانها على مهل.

ونسافر

الحلم. الوهم. الشيءُ الذي يكون ولا يكون في وقت واحد.

– الثورة تجدد الإنسان.

– الإنسان يجدد الثورة.

ويستطرد راني: الإنسان لا يجد. هذه مقولة تاريخية.

والطريق عتم والباص رقص وغناء. صبايا وفتيان. ومنى ملكة السفر. مليكتنا جميعاً. أنا وهي على مقعد واحد، والطريق مديد ومظلم. وحولنا البراري.

داخل الباص السابح في بحر الظلمة نثرثر.

– أحب البحر.

– أحبك.

– أرغب منزلاً يشرف على البحر. ينقر شبابيكه المطر ويعمده الضباب، ومن شرفاته أرى السفن المسافرة.

– أرغب أن نحيا معاً في بيت منفرد. في مغارة جبلية نائية.

– في رأسي قصيدة عن البحر أتمنى أن أكتبها يوماً.

– أنت قصيدتي التي أغنيها للبشر والرياح والزمن القادم.

– الناس قساة هنا.

– وضعاف.

– لو يستطيع الإنسان أن يفرح.

– أحلم أن أطويك تحت الضلوع ونهرب بعيداً عن المدن.

بطقس خائف أمد ذراعي مطوقاً ظهر منى، وبتوجس تسلت أصابعي في ثنايا شعرها القمحي منحدرة نحو رقبتها. يولد من الذاكرة توقع يغيب بعد حين. مع الأحاديث تندغم المداعبة. نحكي عن الشعر. عن توكيد الذات، وعن الخيبات في عالمنا المختل، وعن المناطق المحرمة، الملغومة: الدين والسياسة والجنس والحرية.

ولا في عالم الحس، أرق وأعذب من جلد هذه المخلوقة التائهة، المترددة بين وجل التاريخ، ونقصي الكوني، وعالمها المغلق.

أحسست ذلك وأنا أسوح برؤوس أناملي، فوق أديم رقبتها وظهرها، متمنياً بشفاعة لو تنزلق نحو ثدييها الناهضين العذراوين. إذ أطفئ الضوء الداخلي في الباص، مال رأسي بتلقائية حتى شارف خدي خدها. شممت رائحتها. رائحة الغابات والمطر في ليل موحش.

وفي العتم سمعت ضحكتها الصغيرة الحزينة.

خطفاً قبلتني ماصّةً شفتي بألم خفيف.

نكّستْ راية الحزن. هب فرح شبيه بفرح يوسف وهو يرفع من الجب. ضغطت جسدي بجسدها. مال رأسها على صدري. مرغت أنني في ثنايا شعرها. سحرتني الروائح وسمعت وجيب قلبي يرتفع.

[]

هوذا وائل الأسدي يستقبل البراري بسيارته الفارهة، يسابق الريح في هذا الليل الممطر.

هدى قربه. تطوقه. وعلى المقعد الخلفي بيني وبين ناديا مسافة خائفة. يقهقهان. فيرتمي على طريق الصحراء، في الصمت، ألم خصوصي.

– ها. آه. يا فارسي العظيم. وتعصره بشهوة امرأة روضتها ساديته. السيارة تطير. وائل رجل مهووس بالسرعة. يمضي. يمضي. والحدود بعيدة. وبعيداً. بعيداً. يتمدد الاغتصاب.

وتصرخ هدى: وائل حبيبي. أنت تقتلني.

ناديا شاهدة اللامبالاة. سكينة مطلقة في ليل جريح. وعبر هدى يبدأ التحرير. الرجل المقيد هوذا يشفى بطعن هذه المرأة؛ وأنت ما أنت! إنك ترى كل ما يحدث وأنت ترغب امرأة. أكثر من امرأة. عربي أصيل من سلالة النبي. داخلك بقعة صغيرة لم تلوث بعد. تود أن تعزلها عن الماضي. لكن الرجل الميت ينهض في وجهك: أنظر جيداً بوضوح. إياك أن تنسى. إياك أن تنزلق كثيراً. هنا وهناك مليون فخ. مليون صوت. بينها صوت مناحيم بيغن يدوي كالرعد. وتصرخ هدى: أنتما رجل وامرأة أم امرأتان؟

ويعقب وائل ساخراً: دعيه. صوفي تافه يحلم بقصيدة يهديها إلى ناديا.

هكذا إذن. ولم أنبس.

على جانبي الطريق راحت البراري تنفرج تحت خباء الليل. كنت صامتاً وأحلم وأتخيل.

وقالت ناديا: مالك صامت؟

رفعت كتفي: عن أي شئ أحكي؟

– أي شئ!

قلت: لو وشوشت لك مثلاً أنني أحبك هل تصدقينني؟

وصمتت.

كان وائل وهدى يمارسان الجنس على ضوء الراديو الذي يصدح بالموسيقى.

وقالت ناديا: هل تنتظر من المرأة أن تبادر؟

طوبى للخمر. طوبى للرغبات.

ليل وسيارة تجتاح الاسفلت. برار وموسيقى. وشابان مع فتاتين خارج حدود البشر المراقبين.

– أشعر بالبرد.

طوقتها. جمعت جسدها إلى جسدي، ومعاً احتفلنا بهبوب الفرح والدفء في جسدينا.

في ممر الباص غنى الشباب والبنات ورقصوا، وإذ دعوا منى للرقص، شجعتها.

لأول مرة أراها تخرج من حدود عالمها، بهذه الحرارة. أحطناها باهتمام فاندمجت معنا وراحت ترقص كأنها تعانق ميسالينا. شدهت بها. كانت جديدة، هذه الأميرة التي رملها الزمن غدراً، وتخلى عنها ناس مدينتها، فبدت كما لوّنها ذهني، متألقة، ساحرة، متوجة بالفرح العاطي.

حولها الصبايا يرددن أغنية فيروزية راقصة وكأنهن جوار. بين الحين والحين ترنو باتجاهي والحزن والفرح يهلان من وجهها الدافق بالحياة. خيل إلي ان الرقصة لي ولميسالينا، فغنيت لها لأول مرة وصفقت.

من أول مقعد حتى الأخير، مرت عليهم بابتسامتها المشرقة. كانت تنعطف وذراعاها تخفقان كجناحي نورس. في وجه الأميرة الطروادية تعلقت الوجوه. مرت قربي، غمزت، وابتسمت، ثم عبرت.

كالجمر لاح وجهها، حبات من العرق الذي نضح، لمعت عليه. توقدت أعين الشباب، وارتفعت الحمى. كانوا يشتهونها الآن.

جذبوها نحوهم. وشوشوا لها. أمسكوا أصابعها. مرت أناملهم فوق ثوبها الوردي. رقصت مع أكثر من اثنين، وكانت تبتسم. تجاوزتني ضبابة الغيرة: لا تكن سخيفاً!

وراحت تلهث. نهداها النافران يثبان تحت الثوب، وخصل شعرها الكستنائي تبعثرت بهمجية، ومن تحت ابطها انبثق العرق. بدت وكأنها تخطت الاعياء الجسدي، داخلة مساحة القدرة النفسية التي تهب الجسد قوة جديدة خارقة في لحظة التحدي. هذه منى. وإذ تحاول ألا تفهم لست أكثر من أحمق مأفون ككل هذه الأجيال التي تتهاوى لأن العالم لا يُبنى كما تريد.

ليست لكَ ولا لميسالينا، ولا لدمشق، ولا لأي ذكر تشهّى الرقص معها سراً، ولم تكن زوجة الذي مات قتلاً.

على جدار الباص الداخلي قرأت عبارة: من راقب الناس مات هماً. وإذ أعطت النفس قدرتها بعد الاعياء الجسدي، هبطت قربي.

أفسحت لها قرب النافذة. ناولتها منديلاً. رنوت إليها بمحايدة. ثم ارتج الصمت بيننا.

ودفع وائل المرأة الملتصقة به كحيوان أليف، بعد أن أنهى طقوسه. وتباطأت السرعة.

— الإنسان لا يُحَدّ. هذه مقولة تاريخية! يقول راني العظيم.

رأسها. يرتاح فوق زندها المتكئ على افريز نافذة الباص. في الظلام الممتد فوق الأراضي البور، سهمت. هبت ريح رخاء تلاعب شعرها وتجفف العرق.

— الإنسان يقبل بكل ما فيه أو يرفض.

أنا هل قبلت منى بكل نقصها؟ هل ارتضيت توقيع صك الانكسار معها خلافاً لكل المخلوقات الأخرى التي اعترضت طريقي في دمشق العجيبة؟

وهل كانت منى حقاً ضوئي الذي استحق أن أغادر من أجله طفولتي هناك؟

[]

ناديا سهلة. هكذا بدت في تلك الليلة. كانت مطواعة كما ينبغي.

غطاء مبدئي من الكذب، ملفع بقماش من البروكار والموسلين، ملقى أمام تجار سوق الحميدية: حاجة يا بيك. بوبلين. ديولين. أهلاً وسهلاً. شرّف. تركال. موسلين. بروكار. أسعار متهاودة. وفي نهاية السوق المغطى بالصفيح يقوم الجامع الأموي: مطهر الكذب والجشع والاستلاب. ناديا. هدى. أمينة. أيوب السرحان.

دنيا تعبق بالروائح. تاريخ قديم يصطدم بهبوب معاصر. بريح قادمة من ريف اسكندرون المغتصب. من فلسطين. ومن قرى حوران واللاذقية وحماه، وسهوب الجزيرة الحارة.

— «لماذا استسلمت ناديا وهدى ببساطة في ظلام سيارة وائل الأسدي الفوكسهول»؟

وخلف السؤال الصغير، كان سؤال آخر مايني يقرع جدار الذاكرة: ولكن نحن لماذا نخور كثيران هرمة؟

ثلاث سنوات مرت، وأنا أحاول نيل منى، وعبثاً. وفي ليلة واحدة نلت بغيتي من ناديا.

على المقعد الخلفي عريتها، ومن شفتيها حتى الأقصى من جسدها، قبلتها. بين ذراعي كانت كالخرقة.

على شاطئ البحر استلقينا وبيننا مسافة. رغبت الاستلقاء على صدرها، أعدّ آلاف النجوم المزروعة في السماء الزرقاء وأنا أتابع اعترافها.

كنا طفلين في حي واحد نلعب ونتشاكس ونضحك. ذات يوم انفرد بي في زاوية مظلمة وهمس في أذني: أحبك.

أذكر الآن أنفاسه الحارة، وعينيه الخضراوين كلون هذا البحر. فيما بعد اعتاد تقبيلي لكنه ظل يرتعش. كنت أشعر بقشعريرة تخترق جسدي ونحن متعانقان. وإذ يستمر اللعب نغافل الصبية وأقوده إلى زاويتنا المهجورة. نلتحم لصق الجدار. نلهث ولا ننبس.

وتبتسم ببراءة قديمة: كان عذباً. جميلاً كزهرة برية. عندما يتأخر أصعد إلى منزله وأناديه فيهرول ورائي على الدرج المظلم. في الظلام نتوقف. يقترب مني يضمني إلى صدره، ثم يبدأ يبوسني على شعري وجبهتي وعيني وخدي. بعدها تشتبك أصابعنا اللهفى ونخرج إلى الساحة. إنني أتذكر صياح الأولاد بنا إذ نقبل عليهم: جاء العاشقان. تلك كانت أول رعشة حب في حياتي.

— ثم ماذا؟

وبين البحر والسماء توزع بصرها. تنكت الرمل، وتروح ترسم أحرفاً ودوائر لا تلبث أن تمحوها: ثم مات!

ومذ كانت طريقاً للقوافل بين اليمن ومكة ، اتسَّم تاريخها بالمقايضة . وعلى مر الزمن ارتخى الذين هبطوها واستقروا . داخلتهم الطمأنينة والرسوخ فكانوا مضرب المثل في اللدانة والكسل المسالم .

– أخي عابرون بعدّ الرمل والحصى مروا من هنا ، منذ لذريق الرومي حتى عبد الناصر . ومع ذلك ظل قائماً المسجد الأموي ، وسوق الحميدية والحريقة ، وقاسيون ، والنساء ، والخمارات . الذي يأخذ أمَّنا نسميه عمَّنا . هذه حال الدنيا .

وجيداً يدرك أيوب السرحان معنى الطرقات الخافتة في أواخر الليل . وأن كلمة : كنت ماراً من هنا فرأيت ضوءك لم يُطفأ ، ليست أكثر من اختلاق مفاجئ يتجاوز ظاهرية الغباء ، يُضاف إلى تاريخ المقايضة السرية التي أَلِفَها حتى امتزجت بالخمر والبسمات ، وخبز الأفران غير الناضج ، والخضار التي ترش بالماء ليزيد وزنها .

– قبل قليل ذكرتك أمينة . إبن حلال . أهلاً . أهلاً . وينهض بتثاقل خمري ، لكأنما ألوف الأعوام جاثمة فوقه .

– بالله دعك جالساً .

– لا والله . هنا أخي . هنا .

ويمهد السرير الذي ينام عليه ، ساحباً تكئة يموضعها بدقة خلف ظهري .

– لماذا عذبت نفسك بهذه ؟

رامياً بصره على زجاجة الخمر الملفوفة التي أتيته بها ، وفي عينيه فرح ضمني حدوده تنتهي على تخوم جسد أمينة المحرَّم .

– ما رأيك بكأس ؟

ولا ينتظر جواباً . بيدين مرتعشتين ، أعصابها مسكونة بالكحول ، يصب كأساً . وترتعش الزجاجة فتكاد تسقط من أصابعه المعروقة . وببطء يقدم الكأس . للحظة يخيل إليك أن هذا الرجل سيموت بعد أن يضع الكأس .

– الشعب نائم ؟

يومئ ثم يستطرد فجأة : بسيطة نوقظهم . أخي لماذا طلاَّتك قليلة ؟ أنا وحدي كما ترى لا أجد من يؤنسني وسيرتك أبداً على الشفاه . أم سميَّة

تقول : لماذا لا تأتي وتسكن معنا ؟

– أسكن مع صحاب لا أستطيع مغادرتهم .

هذه المخلوقة جرثمتني . في الشوارع أشم رائحتها ، وفي مركز عملي ، وعلى الوسادة عندما تبدأ الوحدة السرية واجتياح المناطق المحرمة ، والتداعي .

صورتها . جسدها . أنينها الجنسي وهي تفهق في بحر اللذة القصوى . بحركة لا شعورية في ساعات الضيق الليلية ، تفكح قدماي باتجاه ذلك المطهر الجسدي ، مثلما فراشة تتجه مغناطيسياً نحو النار . أقول : تحرر منها يا ابن آدم .

يئن الجسد : جسدها كعبتك .

أقول : لقد دمرت حياتها .

تقول الرغبة : الجسد الحزين في الجسد الحزين فرح ومسرة .

أقول : ولكن إلى متى هذا النزيف ؟

يقول الوعي مسوِّغاً : أنت تجدد حياتها .

– امرأة لها ماضٍ موسوم .

– تتطهران .

– لكن الثورة تخسر .

– الثورة تحقيق رغبة .

– ولكن ما علاقة الثورة بالجسد ؟

مني لماذا هذا الدم محرور ؟ لماذا الروائح الكريهة تكاد تشمّ حتى مئات الأعوام القادمة ؟ ينابيع التطهير والاغتسال بالدم ، ثم الغوص في المستنقعات كيف تجتمع في بؤرة واحدة ؟

من منهم يسوع . ومن منهم يهوذا ؟ وهل وائل الأسدي هو مخلِّص فلسطين ؟

[]

على الرمل رسمت كلمات . أجيال تتقدم . تحتها رسمت : أجيال تسقط . بينهما نحتّ كلمة : (تتقد قط) ضحكت مني من أعماق صدرها حتى كادت تقفو فوق الرمل . أدهشتني ضحكتها . رنوت إليها : لماذا تضحكين ؟

وهي تنهض راحت تنفض تنورتها من الرمل: أنظر ماذا كتبت؟

— ماذا؟

— ما معنى (تتقد قط)؟

واهتزت مرة أخرى بالضحك.

تأملت الكلمة ثم ابتسمت. بقدمي محوتها، وبحركة تراجيدية حفنت رمل الكلمات ورشقته أمام موجة قادمة. كنت أتفرج على تبعثر الرمل تحت اكتساح الموجة القادمة.

كانت الشمس في الضحى، والبحر يلمع حريرياً تحت الأشعة، ومن بعيد لاحت الجزيرة والسفن البعيدة العائمة، وعلى الشاطئ كان الشباب والفتيات يتراشقون نصف عراة بالمياه، واثبين فوق الرمل كالأطفال.

سأجري مئتي متر فوق هذا الرمل الأملس.

— دعينا نتسابق!

— اجرِ أنتَ وأنا أعدُّ لك الزمن!

أول موجة ريح رشقت وجهي، واندفع قسم منها إلى رئتي، أعطتني إحساساً بالحرية. هأنذا أمضي كالسهم قرب البحر اللانهائي، متحرراً من منى وأمينة ووائل الأسدي وأيوب السرحان ورائي وسامر ونفسي، ومن تلك الدمشق الضائعة ورائي.

امضِ. امضِ. تجاوز المئتي متر. حطم الأرقام وخلّف العلامات التي رسمتها. (تتقد قط). أجيال الرمل والزمن المحدد. مكتوب هذا في سفر العربي. في الجسد والنفس. أجيال الهبوط والصعود. والريح تنثر وجهي ببرودة بحرية، وفوق الرمل آثار لقدمي الماضيتين. اطوِ المسافات. جيل الانقلابات والثورة المؤجلة والجنس يصطدم برغباته. يخبط فينسى ويقع. ارمِ كل شيئ في البحر الشاسع وامض. جيل الصعود يجري كالطلقة نحو غايته ولا يتوقف إلا بالموت.

«إذا لم يكن ما تريد فاصنعهُ أو انتحرْ».

وفي الزمن تجثم منى وفي النوايا. خلفوها ومضوا باتجاه رغباتهم. ثم نسوها. منى تحصي الزمن الآن بعد أن غدرها بالموت والهجر. لا تثق بي. ستفقدني يوماً بالموت أو بالهجران. تلك حال الدنيا يا عزيزي أيوب.

ويعيا الجسد فيبدأ الهبوط. تعيا النفس بضربات اليأس المتواصلة، وأحد ما

لا يفهم على الآخر. الكل في مدار سرطانه الذي ابتناه من خيباته وعشقه الذاتي، يدور: إذا لم يكن ما تريد فأردْ ما يكون. تلك حال الدنيا يا عزيزي أيوب:

«والرمل ما ينعجن

والشوك ما ينداس

والسر ما ينعطي

إلا لناس وناس»

لم يعد بالإمكان الاستمرار في العدو. كانت تصيح من خلفي بصوتها اليتيم. وإذ انعطفت نحو اليمين شعرت بالإحباط وانهمر الحزن.

— «لماذا لا يستطيع الإنسان المضي حتى النهاية»؟

على مهل كنت أسير الآن. وفي منتصف الطريق توقف وائل الأسدي فجأةً، ساحقاً الاسفلت بعنف. وهبطنا. رفعت رأسي. على الرمل تنهض قامة منى. نباتاً برياً اقتُلِعَ من أرضه قبل الأوان. هوذا جذره يجف.

— «كيف أعطيها نسغي»؟.

وإذ اقتربت منها فتحت ذراعيها. مدتها كمسيح مصلوب فوق الرمل. إلى يسارها البحر، وجبال الزيتون إلى اليمين، وابتسامة في طراوة الغسق تتشكل بين شفتين في لون حبّ الرّمان.

كانت على بعد أمتار مني. وندَهَتْ بي: أسرع. أسرِع. ما بك؟

ولم تتغير السرعة.

خطوة. خطوتان. فجأةً سقط الاعياء في مفاصلي، وهويت فوق الرمل.

كان الرمل رطباً. على مهل رحت أحفره بأصابعي. نزّ ماء من جوانب الحفرة. تهيل الرمل فوق الماء فغار.

قرب رأسي فوجئت بقدميها الحافيتين. أصابع صغيرة ناعمة. تسلقت عيناي ساقيها. ارتفعت. مسحت جسدها بطقوس من يتعبد بصمت. كان هناك نائياً يلمع تحت الشمس، وعلى وجهها لمحت غمامة غمّ.

على الرمل قرب وجهي ركَعَتْ. غلغلت أصابعها في شعري. مسحت وجهي. رفعته. كان وجهانا متقابلين تماماً الآن واستلقى الصمت.

بعد هنيهة سألتني: ما الذي حدث؟

في الداخل كان شيءٌ ما يختلج. وتمدّد الصمت أيضاً.

– في عينيك انحرار!

وقفت. رفعتها عن الرملِ. انتصبنا متقابلين على شاطئ بحر وفجأةً طوقتها. حملتها من تحت إبطها ودرتُ بها حتى دخنّا. وقعنا فوق الرمل ورحنانتمرغ.

– الناس أيها العاشق الفوضوي. صرخت بي محاولة التملص والهرب. صاح الحزن الغاضب: ليسقط الناس. لتقعْ مؤقُ عيونهم على الأرض. هذا لا يهمني. ما يهم أن نبني حباً يتحدى الزمن والبشر. أنا أعبدك وهذا كل شيءْ.

كعاشقين في جزيرة مقفرة تدحرجنا فوق الرمل. وقفنا. سحبتها من زندها وجرينا مجنونين على الشاطئْ. لم نشعر بالاعياء. تجاوزنا المسافة نحو الكثبان البعيدة.

خوّضنا في اثباج الرمل. غنيتُ لها، وقرأت أشعاراً لرامبو ولوركا والسياب: أهوى أن أسرقك ونطوف العالم معاً.

وقالت وهي تمضي: ستملّني!

قلت ونحن نجري في الريح بلا توقف: عندما أملُّك أنتحر.

وفوق الرمل خببنا. كانت أحزان العالم منسية ورحنا نمضي هاربين من الأصفاد. ذراعي حول ظهرها وما نزال نبحر: أنتِ معي وأنا سيد الزمن الآن.

قبلتني خطفاً. ارتمينا خلف الكثبان فوق أرض قاسية.

كانت الأرض ساخنة. فرشت لها جسدي فاستلقت عليه.

عيوننا مغروسة في سماء صافية، في العراء المقفر. كان صدري مخدتها وخصل شعرها موزعة فوق وجهي. وقلبانا ينبضان.

– سيكارة!

وأشعلت لفافتين في فمي، ناولتها واحدة.

– هل يوجد في العالم حب كهذا؟ وابتسمت بعذوبة ملاك. نفختْ وجهي بحفنة دخان. ورفرفت عيناها محدقة في الفضاء الرحب.

الآن يبدو العالم رائقاً كبحيرة في صيف عذب. أنا ومنى عاريان في قلب هذا العالم، نستحم فتصفو النفس ويصح الجسد.

– هذه الأرض لماذا لا تجتاحها ثورة تقتلع جذور المحرمات الدينية؟– ما هذا الذي نحيا فيه إذن؟ يسألني سامر البدوي.

فأقول: مشروع فقط.

ينخر. ثم يبصق مستعيداً تماسكه: ما الثورة في رأيك؟

أجيب: الثورة أن تبني عالماً يعيش فيه الإنسان بصحة نفسية مطلقة. أعني أن يولد فيه إنسان جديد يعمل ويحب ولا يستغلّ.

– هذا تعريف نصفه اشتراكي والنصف الآخر برجوازي. تعريف عمومي غامض.

أدهش: سامر. أنت تقول ذلك؟

يمدّ عنقه المتوتر ثم يهز رأسه مؤكداً: أي سيدي. أنا أقول ذلك! الثورة أن تحرر الإنسان اقتصادياً أولاً وبعد ذلك يأتي التحرير النفسي.

أقول: ولكن أنا لم أقل لا تحرّر الإنسان اقتصادياً. ما أردت قوله: أن التحرير الإقتصادي لا يؤدي ميكانيكياً إلى تحرير البنية النفسية. هناك الثقافة والحرية الفردية والوراثة والدوافع. العالم لا تحكمه القوانين المادية فقط.

–التشريع الذي استُنَّ بطريقة تحكمية زجرية بعيدة عن فهم الدوافع النفسية والرغبات البشرية، تشريع فاسد، معاد للإنسان. ما هو مهمّ كيف تنشئْ مواطناً خلاقاً يناقش، يشارك، يرفض أو يقبل بوعي ومسؤولية. يرى الحقائق بعينين مفتوحتين وذهن واسع عميق. مواطن حر من الداخل وليس مصفداً يهز رأسه موافقاً كعبد.

بثقة احتجاجية يقرر سامر: هذا كله يمر عبر التحرير الإقتصادي أولاً. وما تتحدث عنه يأتي فيما بعد. المهم هو الاشتراكية.

وأقول: لماذا لا تقول انه يمر عبر التاريخ بمجموعه وعبر الوثوق بالإنسان. عندما نفهم التاريخ جيداً والإنسان هنا، ونثق بأنفسنا، تتبدل المفاهيم والشرائع ويتبدل الإنسان. وهذه هي الثورة.

– أنت مشوش. مفهومك برجوازي ليبرالي عن الثورة. أضحك من تشوشي، وصفاء سامر البدوي. من فوضويتي وضبابيتي ومن حياته وأفكاره النقية نقاء خمور رأسه.

منى وحدها مزاري. قدس أقداسي. معبدي الذي أتعمد فيه عندما يداهمني التلوث والتدجين. هي ذي تستلقي على صدري. هذا الموئل ألوذ به في حميا العالم القحل المتصارع، بعيداً عن كل التصنيفات الحمقاء التي تحولت إلى حراب نطعن بها.

إلى الجحيم جميع النظريات التي لا تؤله الإنسان وتخلق لحياته مناخاً صحياً يتمدّد فيه بحرية مطلقة.

وددت أن أهتف بوقاحة: أنا الحب وأنا الثورة، أنا الفرد وأنا المجموع، أنا الله وأنا الاشتراكية، ومني ينبثق معنى العالم. وكل ما عدا ذلك هراء وقبض الريح.

لكني أحجم: منى هاتي شعراً رومانسياً.

بأسى عميق تدندن: «للناس ظلالٌ وعشبٌ وموانئ، ونحنُ مرافئنا مهجورةٌ. للناس بيوتٌ وأغنياتُ حبٍّ وأنا وأنتَ خرابٌ وغيومُ صيفٍ ومسافات. وحيدانِ في هذا العالمِ، في هذا الزمنِ الصعب، ولا موانئ وحيدان كحبّتَيْ رملٍ على شاطئٍ مهجور، في مدينة لَعَنَها عرّافٌ قديم من ألفي عام. أنا وأنتَ حواريانِ نبحثُ عن مسيحٍ لا يُصلَبُ، عن أناجيلَ لا تهترئ وتزوّر. عن توراة لا يرفعُها السفاحونَ رايةَ غزوٍ، عن قرآنٍ لم يمسسهُ إنسان. كتابٌ جديدٌ لم تأكلْهُ أصابعُ الزمن. عن وطن لا يغتسِلُ أبناؤه بدمِ الأجداد».

قبلّت منى كاتماً دمعة وثبت إلى حلقي. هبت رائحتها أعذب من رائحة الأرض غبّ المطر. وفي لحظة كالبرق، تمنيت لو أطويها تحت ضلعي وأمضي مخترقاً بها حدود العالم؛ نحو الجزر النائية. نحيا على ضفاف الأنهار وفي الجبال الموحشة وداخل الكهوف. نروي قصصاً وحكايا عن الجنّ والعفاريت والظلام المخيف وتماسيح المستنقعات. على الصخور وعلى جذوع الشجر، نفصُد دمنا ونكتب أشعاراً. نستحم في مياه عذبة لم يمسسها جسد إنسان، وتحت أشعة شمس جديدة نبكي ونغني ونرقص؛ نلتحم في ليالي الشتاء ونلدُ نسلاً جديداً، هادئاً وغضباً كالبحر، حاراً كالشمس، وكحدّ السيف مصقولاً. ثم نموت كالأشجار في العراء بلا طقوس دون أن يقرأ حرف على قبرينا.

سألت راني قبل أن يسافر الى بيروت لتتويج ولعه بالماجستير: هل يسبق الانسان زمنه؟

ضحك مني وقال: الثوري الطليعي يحرق مراحل التاريخ.

ثم سألت أيضاً: وهل نحن ثوريون طليعيون؟.

فاجاب بجفوة: بالمعنى الماركسي الكامل. لا!.

واذ قلت لماذا؟ أجاب: لأن علينا أن نقدم تنازلات ونؤجل الاحاسيس والمعاني النفسية المتولّدة في الهُنيهات الشخصية. تجاوزت ردّه الشخصي وسألته: هل ينبغي أن تذهب الى بيروت من أجل الماجستير؟.

وبوثوق قال: ينبغي.

– ولكن ماذا ستقدم لك هذه الماجستير السخيفة؟.

وبثقة محض شخصية، ابتسم: ينبغي المضي في المعرفة حتى الاقصى. بذلك نتزود بأسلحة أقوى.

– التجربة والثقافة العامة، ألا تكفيان؟.

– الاصول الأكاديمية تعطي تماسكاً أقوى.

ثم سألته: لماذا لا تقيم الماركسية كبير وزن للمثقفين؟.

وأجاب بفجاءة: لأنهم لا يستسلمون بسهولة لقوانينها الحتمية والاقتصادية.

– راني هل أنت ضد الماركسية؟.

– أنا ضد الحتمية التاريخية والتعسف. أؤمن بالارادة وصراع الأجيال الى جانب صراع الطبقات. فرويد وماركس يمكن أن يفسرا العالم الى حد كبير. لكن يقيني بأن الانسان لا يُحدّ تماماً، ونظرية واحدة عاجزة عن استيعاب الانسان.

سافر راني أخيراً. واختفت منى زمناً. وفي غيابهما بدت دمشق فارغة في ذلك الفصل الشتائي الكئيب. وحده كان وائل الاسدي ملاذاً اضطرارياً في اماسي دمشق.

كنت مضطراً أن استمع اليه وهو يسرد مغامراته وتاريخه الشخصي وفحولته فوق أجساد النساء الجميلات دوماً. وإذا أضجر من ثرثرته أحتجب في جسد أمينة.

سيارة وائل تبدو سفينة المهمات العظمى، والسريان الليلي نحو المخادع والبراري. أعظم ما فيها قدرتها العجيبة على الوصول قبل أن يكتشف أحد من فيها، لكن الرديء فيها أيضاً، أنها تفوح أبداً بعطر نسائي يثير التقزز.

– رائحة سيارتك كرائحة مبغى.

يحنق يزورني: كلب. سافل. تنكر فضلها عليك. هاه!.

أقول: فضلكم عميم سيدي. ولكن أنت تعلم أن العبد الفقير يحاول أحياناً أن...

– اخرس. تُمَسْكِن نفسك. عليَّ الطلاق في هذا البلد لا يوجد مثلك أفعى.

– وائل! والله أنت غلطان. حكمكَ حكمُ مخابرات. أقسم لك أن القط يأكل عشائي.

– طبعاً، من لا يعرفك جيداً يعتقد ذلك. انما بشرفي أنت ذئب هذه المدينة بثوب حمل.

– لعنة الله عليك يا كاشف ستر الدراويش.

ويصرخ: اسمعوا يا ناس! يا سامعي الصوت! قال درويش. قال. إذا كنت أنت درويشاً فأنا نبي اذن!.

– لا سيدي. أنت ضابط مخابرات وبس.

ونقهقه عقب شتيمة لا بدّ منها، يطري بها لسانه الطاهر. نجتاز شارع بيروت نحو دمّر. كل منا بعد هذا الحوار اللطيف يشعل لفافة، والسيارة تشبح فوق الاسفلت كحجل يسفُّ فوق المنحدرات.

– على مهلك!.

– خائف على روحك الخبيثة؟.

– خائف على النساء اللواتي سيترملْنَ بعدنا.

– لا تخفْ. يوماً ما سنموت كالكلاب ولن تنقص البشرية. تأكد من ذلك.

– ولكن أنا لا أود أن أموت بهذه الطريقة المجانية السخيفة.

– تريد أن تفلسف الموت. طز. هو موت وكفى.

ويمضي في السرعة نكاية بي، وبالجرح الثاوي في فخذ أبيه.

– لن تصل أبداً.

– لا يهمّ. الاساسي في هذا العالم القذر أن تعلن غضبك وتحتقر جميع الأشياء.

[]

ودمشق ليل وتوق لا ينقضيان أبداً. مدار الموت والحياة مذ نكَتَ يزيد أسنان رأس الحسين المقطوع بطرف عصاه، الى أن بدأت سلالة أيوب السرحان بالانقراض في عصر مني.

ها نحن خارج المدينة. في البراري مرميون وتحت ضوء القمر نشعُّ ثملاً ورغائب. ودمشق هناك في الطرف الأقصى، مشعة بالضوء والتذكر، بينما ننتلف هنا بالحس العضوي بين الهضاب المنارة.

سكون. سكون. كأنما نمثل أمام الحضرة الألهية. صدى الصمت تردّده البراري، وفي النفس توقع. صبا نزق متوحش حالم، وأرض منبسطة، ثم هذه السفوح الخضر الصالحة للركض والمضاجعة.

غب همود المطر فاحت رائحة الأرض، عبقت ورائحة النساء. كنت اطوّق ناديا الآن. نحو شعْب ضيق يمضي وائل وهدى. يضيعان عنا. ونحو كهف صغير بين صخرتين أسحب ناديا وننزوي.

– أنا خائفة.

– من ماذا؟.

– هذه البراري!.

ابتسم: البراري لا تخيف. الانسان هو...

واستطرد: انظري. انظري. حيوانان.

وترتجف هارعة الى صدري.

– هذان وائل وهدى. ونغرغر ضحكتين فزعتين مغموستين بشهوة. إنهما يمضيان بعيداً.

ونستلقي.

الأرض خصبة، معشبة تحتنا. نثار ضوء يرشق النصف المنحدر منا خارج الكهف، وفي هيولى الحياة نمضي. نهتز فتهتز الأرض. ندخل منطقة الروائح

فيتلاشى الحلال والحرام. جسدان يومضان، وهما يتطهران. وناديا أرض سهلة العبور.

إذ يعود السكون يهمد ضجيج الأرض. حتى الروائح يتغير عبقها ونسقط في الفراغ. تصير النجوم نجوماً موضوعية، بعيدة، خافتة الومض. القفار أراضٍ من البور الصلبة. ومع تراخي الجسد يتراخى الزمن.

الآن استقرت الشرارات التي خرجت كطلقات الجبان. وفي فضائها ركنت النفس، بينما استلقى الاثم النادم على تخم الفضيلة. ومن البعيد، البعيد، جاء صوت هدى كأنما تذبح بمطواة.

سألت منى: لماذا نحن مفصولان؟.

فقالت بطفولة مفجوعة: لأننا غريبان ما نزال!.

– ولكنني أشعر انني أعرفكِ منذ الولادة. سلسلَتْ في سمعي: الحب الحقيقي يُعرف مرّة واحدة.

وحزنت لأن منى ما عادت تعرف كيف تحب.

– ٥ –

مذ صممت أن أتقرى النفوس في أويقات فيضها الخاص، كنت أداري حدّين من الشعور: رغبتي في الافصاح، واستمرارية الكشف حتى الوصول. واذ تنتصر رغبتي الاخيرة، كنت أشعر بأنني أزداد عمقاً في التعرف على اسرار العالم. الآخرون مجرات مجهولة، ودمشق ذات الطقس المتبدل، بدت لي سماء تغطي تلك المجرات. قليل من ضبط النفس كان كافياً لتعريتها.

قبو مشبع بالموسيقى والخمر، وأشياء أخرى، يوحي بضرورة امرأة ناضجة تحب الرقص والمجون ثم الاستلقاء العاري.

مجرّد احساس عابر داهمني وأنا ألج القبو.

سلّمت. مسرور المرمي على الخوان اكتفى بهز رأسه. وابتدرتني ديانا: عاش من رآك. في الشهر مرّة يا شيخ! ثم استطردت متهكة: طبعاً الأحباب ينسون الأصحاب.

وتحرك مسرور: ملعون دينك أين أنت طوال هذه الأيام؟.

لم أجب واشعلت لفافة.

– ستسهر معنا اليوم.

نفثت الدخان في فراغ الغرفة.

أضاف: أناس يريدون التعرف بسيادتك سيحضرون. نفخت الدخان أيضاً: أنا أكره الآخرين.

بغضب: غصباً عن آلهتك ستحضر!.

واستطرد هامساً: نساء. نساء يا عدوّ النساء.

ولعتْ ديانا: لا تهمس. لا تهمس له. مفهوم. مفهوم. النساء يُسخسخَنكَ اكثر منه!.

قلت متنهداً: عزيزتي ديانا. أدِّبي زوجك. انا انسان مهذّب وبريء كما تعلمين، أما هذا البدوي...

نهت: معلوم. البراءة تشع من عينيك هذا واضح. في ديني أنت أرذل منه. وكل منكما يشتهي حفيف ثوب امرأة ولو كانت غجرية.

صحتُ: تهينين الغجريات ديانا! هؤلاء طبقات كادحة!

أرقص مسرور ضحكة بلهاء مع شاربيه. توجه الى ديانا وهو ينهض: تسبِّين الثورة؟ طيِّب. غداً تقرير من أربع صفحات.

شالت ضحكات، وردّت ديانا بعذوبة: يا عيني على هذه النماذج الثورية التي لا تفكر إلاّ بالتقارير!

مستخفاً قلت: فتِّحي عينك ديانا. أنا ما عُدْتُ ثورياً. واحد مثل زوجك ثوري! أنا بطّلت هذه الخزعبلات.

– اسكت. اسكت. اذا ترك لك الحديث تثرثر عن الثورية دهراً بأكمله.

استدركت: إذا لم يكن هناك نساء!.

جهرت بعفوية: الثورة والمرأة لديك صنوان تخلط بينهما ولا الربّ يعرف كيف. ورفعت أنفها استخفافاً، ثم تحركت خارجة نحو المطبخ.

– ديانا. قهوة سكر قليل.

جاء صوتها من الممر: نحن نشرب القهوة بلا سكر.

– لستِ بحاجة الى حلاوة. وكتمت توقعاً خبيثاً. تجهّم مسرور بقمطريرة مازحة: ولَكْ. ديّوث. تغازل زوجتي أمامي؟.

باشرته: أليس هذا أفضل من الطعن في الظهر؟.

وهبّت في الذاكرة صورة أمينة.

عبرت النكتة. ألح مسرور على ضرورة حضوري، ولم أقطع معه بقرار. رويداً في غياب ديانا راح ظل ثقيل يهبط فوق المسافة الممتدة بيننا. أزحت الملل باشعال لفافة جديدة، ورفعت رأسي محدقاً نحو السقف والجدران.

على الجدار المقابل لمحت أيقونة شمعية لمسيح مصلوب، وقربه نموذج امرأة

عارية تمثل الحياء الافريقي في طقسه النقي، بعيداً عن أي احساس بالجنس. وقربي المكتبة.

[]

من صفد الى بغداد ثم دمشق أخيراً. رحلة شقاء محفوفة بالخطر وثقل الماضي المهين. كل هذا كان محمولاً على كاهل النفس التي تدمَّت يوماً وما اندمل الجرح بعد، وكان ختامها الطرد.

عبر ليل شتائي قاس وحزين، اجتاز مسرور الحدود العربية بعد ليلة قضاها في عراء الصحراء مطارَداً من حرس الحدود.

كبحر صاف في صيف هجرته الريح، بدا مسرور. غريب في براءته وبساطة حياته التي تصل حدود السذاجة. غير أن انكساراً خفيًّا كان يطلّ من أخاديد وجهه الهرم. أتراه شعور ضامر بالمذلة هذا الذي يلوح في عينيه الباهتتين وتحت ظل هذا الشعور اندغم بالحزب؟ أم انها ديانا؟.

– بماذا تفكر؟ سألني.

– أجبت: فيك.

– بي؟.

– أجل.

– وابتسم ببلاهة: ولكن ماذا فيّ يستدعي التفكير؟.

– رضاك!.

– غريب أن يكون الانسان راضياً؟.

– احدى عجائب الدهر العربي. من أين يأتي الرضى للفلسطيني التائه؟.

وابتسم بمرارة مستبطنة. أفرز كلمة عمومية: يبدو انكم معقدون أكثر مما ينبغي.

ضحكت للمفارقة: ولماذا لا تسأل لماذا أنت راضٍ أكثر مما يجب؟.

وابتسم: تزوج ترضَ. هذا دواؤك.

– أنت تعتقد جاداً أن الزواج يحل العقد؟.

– ربما. أعتقد انه يخلق حياة رضية بعض الشيء. على الأقل ينسي.

– راضٍ أنت عن زواجك؟.

وأطل وجه ديانا ومعها صينية القهوة. كانت تتبختر بجسدها المتماسك ووجهها الشرقي، وإذ قدمت القهوة، رفعت عينين تلمعان ببريق خاص. وأنا اتناول الفنجان قلت: ديانا. زوجك الرصين يعظني بالزواج!.

– أنا موافقة.

– توافقين؟.

– آي. وماذا في ذلك؟.

– فوضوي مثلي يتزوج؟ الزواج اعتقال وأنا أعبد الحرية.

وأجابت بوثوق: المرأة تعقّلك.

– على مسؤوليتك؟.

– على مسؤوليتي يا سيدي.

– ولكن هل أنت راضية عن زواجك من مسرور؟.

[]

ها هو يكتب من بيروت أخيراً، بعيداً عن دمشقه التي وازتْ لديه حب لينا: «ما رأيك برسالة الآن. ربما كانت مزعجة؟ انني أجلس على بعد نصف متر من الموج الصاخب، احضرت معي مشروع اطروحتي لكي اشتغل به. هل تعجبك الاطروحات أيها المسكون بمنى؟.

لن أكتب لك عن الهموم بالطبع. شيء واحد فقط يستوي لدي الآن: قبض العالم وقبض الريح.

هل قرأت سفر الجامعة؟ اسمعني «جورج» اغنية (وداعاً يا وطني) وأنا منذ أمد أحاول أن أقولها. انني ابحث الآن عن وسيلة توقنني أن لينا يمكن الاستغناء عنها. كيف يمكن الاستغناء عن حجر أصمّ؟.

لقد تركت انجليك وكانت مثلها في العجز عن تحقيق الرفض عملياً. حُنقي القديم من جهالة البشر، تخمر واستحال حزناً غير معترف به من قبل احد. عندما نلتقي أنا وأنت ينبغي أن نكون ثملين: أية أشياء رائعة أيها الفوضوي النموذجي. كيف أنت؟ هل حبيبتك مثل لينا؟ من أجلي قل: طز على العالم!.

اسمع. سأتكلل يوماً وأعمّد في الكنيسة كأي متزوج طبقي بليد النفس، لكن لينا ستكون في النهاية لي. انني أذكرها بلا انقطاع كما أذكر دمشق وأعرف أيضاً انها تذكرني وتنتظرني.

اعترف لك: انني لا أزال أحار كيف أحبّتني. لينا. كنت متشككاً حتى اللحظات الأخيرة، وكنت ضعيف الموقف ازاء هذه النقطة. ولما أيقنت منها ازددت ثباتاً وتماسكاً. ان حب المرأة للرجل هو بحق أثمن شيء في العالم. لقد استهلكت الرسالة في الحديث عن نفسي. لا شك ان لديك أخباراً كثيرة. انني انتظر رسالتك».

أعطتني رسالته احساساً عذباً وحزيناً بالماضي، عوّضت بها فقدان منى في تلك الأيام الخاوية. ها أنا أعبر الآن، وحيداً ثملاً، شوارع دمشق تحت ظلال السنسرخت الكسول. الشوارع التي عبرناها سوية. وفي نفسي الاحساس الابدي باستحالة التلاؤم مع الاشياء. افكر بكلمته المخيفة «وداعاً يا وطني» منذ متى يفكر هكذا؟ هل وصل اليأس بالعربي حدود الانسلاخ لدرجة الوداع؟ وماذا بعد ذلك؟.

كنت منقبضاً، كأنما في حلقي سكين. طعم ريح دمشق مرّ وعذب. أسرعت الخطوات هرباً من شيء في الداخل. السريان الليلي، راني وأنا غبر ضمير دمشق الشفيف، ودمشق حب مسكون استوطن الضلوع. احسه يخفق في حفيف الاوراق، في الأضواء، في الحجارة، في النساء والماء، في الصوت والصمت. دمشق جنون أبدي يحيي ويميت. آه.

وأمضي.

– من؟.

– أنا.

وتهمس باسمي. كأنما حواري متخفٍّ في مغارة ينتظر مخلّصه الذي قدِمَ.

– آخ. أنت مخمور أبداً.

– وأنا مخمور اشتاقك.

في الظلام نلتحم. الأيدي والظهر. الصدران. الفخذان. أقبّل نحرها وعنقها وخلف أذنيها. ثم يستقر توقي المخمور على شفتيها اللذنتين.

هوس. حلول. ودمشق هذا الجسد المفتوح للريح، بحر أمواجه تصخب وترتعش. أصوات مكبوتة قرابة الفي عام كما عبرت مني. أناجيل وتوراة ومصاحف جديدة كلها لم تُفتح بعد. ايقاعات البحث عن أمان وفرح يطال الأرض من أقصاها الى أقصاها. والجسد الباغي مركز العطالة وبؤرة الفرح المشتعل. جسد عطش مُغوى يتفتح تحت المطر كما تتفتح زهور النرجس تحت فجر ندي عذب. آه. وصراخ التاريخ يدوي بصمت في الحضرة الجسدية. أضواء ونيران. تنبثق في ليال عصفي، ومطر. مطر ينهلّ فوق الاراضي البور. فوق الاراضي التي تبتهل وتنشج توقاً لقطرة ماء تروي الحناجر الحارة المهملة.

- هكذا أنت دائماً متوهج كثور.

- أرضك ظمأى.

- أنا لا احب هذه العملية بهذا الشكل الحرام.

- تحبين أيوب؟.

أحب أن نتزوج ونحيا في دنيا الحلال. هذا حرام!.

- مستحيل! يقول المثل.

في الظلام تنهمر دموعها فوق كتفي. أشعر بحرارة الدموع. أمسحها. ويبدأ رنين حالتي المرضية. انقسامنا.

بعد موت الرغبة أتحامل للبقاء قربها. أسألها: هل بدأت كراهيتك له بعد معرفتي؟.

تنهد: ازدادت بعد أن عرفتكَ.

- هل تخفين شيئاً أمينة؟.

تهمس: ملكتني كالوباء. آه. أتمنى لو انني لم اعرفك.

ثم بألم تقول: أيوب رجل منحرف. رجل سيئ أكثر مما تتصور. وتبدأ تغصّ من جديد.

بعد صمت أقول: ينحو عليكِ أنكِ السبب في شقائه.

- أنا؟.

- يردّد ذلك على مسمعي عشرات المرات.

تتنهد. أداعب وجهها وثدييها فتشهق: اسمع سأروي لك حادثة لن تقولها لانسان. اقسم لي؟.

اقسم. واستمر في مداعبة حلمتيها.

- في الاسبوع الأول من زواجنا كان مضطرباً. في اليوم الأول نام معي ولم يستطع أن يفعل شيئاً. سألته ما بك؟ أجاب بأنه مريض. مضى يومان وأنا عذراء ننام في فراش واحد كامرأتين. في اليوم الثالث بدأ الامر يقلقني. يشرب حتى الثمل وإذ يقترب مني يسترخي وينام. وفي اليوم الرابع طلبت الذهاب الى بيت أهلي لأزورهم. أمضيت هناك ثلاثة أيام دون أن أفوه بحرف وفي نهاية الاسبوع عدت الى البيت. هل تعلم ماذا وجدت؟.

- ماذا؟.

- في فراش هذا المُسمّى زوجاً، شاهدتُ صبياً عارياً ومعه أيوب كما ولدته امه. أغلقت الباب ورحت أركض كمجنونة في الشوارع عائدة الى بيت أهلي. سألوني لماذا عدتِ؟ كتمت ألمي وقلت: أيوب مسافر خارج دمشق.

بحنان ضممتها. مسدت وجهها الناعم بأصابعي. على خدها أنمْتُ خدي. وسمعت تنفسها ونحيبها فوق صدري.

في الغرفة المجاورة كان يشرب وحيداً، وغرفتنا تغوص في عتمتها الخاص. عندما مارسنا الجنس مرّة ثانية احسست لأول مرّة انني لا أخون!.

[]

كيف انسللتُ من الحجرة وأنا مغمور بالحزن والقرف ومشاعر أخرى، لا أدري!.

هي ذي أرصفة الشوارع. أترنح في ليل دمشق الصوفي. سرت باستقامة ثم انعطفت.

قطفت زهرة ياسمين وشممتها بحنو.

عندما هبت الحادثة في ذاكرتي، حضر أبي فسألته: هل مرّ عليك زمان كهذا؟ فقال: سيمر زمان أقسى. نحيته عني وحسدته لأنه مات قبل هذا الزمن. بين اصابعي سحقت زهرة الياسمين حتى صارت كالرماد وقذفت بها الفضاء.

سألت أبي: لماذا يتفرج ذلك السيد الله على الانسان بسادية؟ قال: أنت لا تعرف ما هو الله.

أوغلت في دروب المدينة. الى أين؟ والمدينة ضوء وعتم. صمت وحكايا داخلية. محاكمات وتحليل. خيبات وأيام مكرورة.

وسألته أين يقطن الله؟ فضحك من غبائي وغاب.

الخمرة أبيدت بقاياها، فبدأ الذهن يشرع قوانين للانسان.

امتد صمت كالقبر. أبحر في سفينتي الداخلية أرسم جمهوريات للفرح البشري. يوتوبيا بتشريعات تسنها الحرية والتطهر من كبت التاريخ. هل العربي محكوم بقوانين الدين والوراثة؟ حرره من قفص التاريخ المظلم يولد من جديد. ولكن كيف؟ يقول سامر: بالاشتراكية. ويقول راني: بتحقيق الرغبة.

لكنه في الظلمة يضع قدماً، وفي النور يضع أخرى. وهو في المتاهة. جسده في العصر لكن نفسه تنتمي الى القرون المنحدرة. انه ينوس بين الله والاشتراكية.

وهذه الأرض لماذا لا يجتاحها طوفان لا ينجو منه إلاّ رجل وامرأة يلدان العربي المعاصر؟.

وتتراءى في زوايا دمشق الميتة، مجموعة من الاستثناءات قُطعَت اسبابها. في محراب التاريخ انزوت ردحاً من الزمن، بعد ان نسيها الله والعالم. تعيش في العتم بقوانين خاصة استنتها احتجاجاً على قوانين زمن العرب الجائرة، وبعد أن باشرت شمس الفرح والحرية بالغياب.

من بين كل فاقدي الذاكرة، حلمت برجل لا ينسى. يخرج من كهف التاريخ ومعه سيف وكتاب جديد؛ يضرب ويبشر ولا يعرف الرحمة. يعطي الفرح للحزانى، والخبز للجياع، وينشر رايات الحرية فوق من لم يسقط تحت نطع السيف. لكن الحلم سافر مع سفر منى! واستمرت قوافل المقهورين والحزانى متنامية على درب الزمن.

يا الهي أية حاقات تشرخ ذهني!

هأنذا ما ازال منبثاً في عروق مدينة الثورات والانقلابات والجنون والتجّار والمنحرفين والمتوحدين والمفصومين، وإذ تكل قدماي من مسيرة الشقاء الروحي، أرتمي على ضفة رصيف تحت شجرة، وأدخن.

— لماذا لا تكتب عن الشعب؟.

الاسفلت أمامي يكاد ينبض بالظلال والضوء.

الاسفلت المرصوص المتماسك ببلايين الذرات الملتحمة؛ يسقط الضوء عليها ثم الظلام، الاقدام والاطارات أيضاً. عناصرها تدور في مداراتها. الالكترون سالب يقابله بروتون موجب، ثم النيترون هذا الجزء المتعادل الذي لا يحمل أية شحنة كهربائية لكنه يمتلك قدرة اشعاعية خارقة تستطيع النفاذ خلال طبقة من الرصاص سمكها قدم، لكنها لا تنجذب نحو الالكترونات أو البروتونات.

هكذا الانسان إذن في التحليل النهائي المادي!.

— «لأنك رومانسي مثالي أنت بعيد عن فهم قوانين التاريخ وحركة الشعوب».

وحدثته عن الحزانى والوارثين، والذين أصابهم عطب نفسي، عن شهداء عصور الرمل والشعر والصلوات والجنس، والذين تاهُوا في منحنيات القرن العشرين، كيف فاجأتهم الذرة بأشعتها الخاطفة، وهم هناك يتدثرون ويتلون في الظلام العميق ما تيسر من آيات أجدادهم فوق قبور موتاهم.

وقال عني بانني لم اتطهر بعد منهم، وما زال في نفسي حنين اليهم، كما قال انني احبهم وأكرههم ولم أعرف بعد كيف انجو من طقوسهم البدائية والصوفية. ودافعت عن نفسي. عن حبي لهذه الأرض، وعن جذري المتشبث العصي على الاقتلاع، وانني أبحث بدمي وروحي وعقلي عن شجرة جديدة تطلع من هذا الجذر. شجرة مضوأة بأشعة القرن العشرين تشق هذه الأرض المطعونة، التي يهددها مناحيم بيغن والتي لم تُجدبْ بعد. الأرض التي لا تستحق أن تُهجر وتُلعن.

وقال: أنت لا تؤمن بقانون المادة.

وقلت: أنا اؤمن بالانسان ووحدة الوجود والثورة التي تدمّر العالم القديم. ووصمني بانني حلولي. وهذه نظرة صوفية ميتافيزيقية لا تثبت أمام قوانين العلم.

وقلت: أنا ضد التحليل الجزئي لذرات الانسان. فغادرني يائساً.

نهضت عن الرصيف. سرت وأنا ألوح بيدي. فردت أصابعي في فضاء نصف مظلم وبدأت أدندن.

ومن الداخل داهمني فيض سخرية من كل نظريات الوجود والفلسفات

الحجرية التي جزأت هذا العالم، واخذت الانسان ذرة مادية تجريبية قسمتها الى موجب وسالب ومتعادل.

– «هل أنا متعادل؟».

بصوت خفي تخامد على حواف نفسي صحتُ: لا اريد أن اكون شيئاً في هذا العالم الساقط. اريد أن أحيا فقط.

لم يسمعني أحد. فابتسمت بمرارة عذبة. كنت أقدم احتجاجاً للعدم. وعبرتني سيارة مرقت كالبرق. أحد ما لا يبالي بي، كذلك أنا.

المخلوقات المتحركة تروح وتجيء بطريقة غير ثابتة، لكنها لا تشبه دوران الجواهر في الذرة. قد يكون هناك قانون فيزيائي وكيميائي يحكم المادة، أما الانسان فقوانينه تنبع من الداخل، من العالم الثاني الذي يتمرد على الآلهة والطبيعة ويخرق حدود المطلق. العالم الذي يستقدم في لحظة انحراف جامحة صبياً بدل صبية يانعة، شهية كالمطر في صيف حارق.

– «هل أيوب السرحان مسوّغ؟».

لم أدر كمْ من الوقت مرّ على سرياني في دهاليز المدينة واقبيتها. كل ما أدريه انني مُذْ عرفت منى صرت عدوًّا للزمن الميكانيكي. صار الوقت إيقاعات نفسية تنطلق ثم تتوقف فجأة دون أن تنذر.

- ٦ -

لم يكن مسرور في البيت. عاتبتني ديانا لعدم حضوري سهرة الاسبوع، فأفهمتها بلا مبالاة انني لا أهوى التعرف على البشر كثيراً. واذ اعتقدت ان في ردّي الجاف نوعاً من الكبرياء، حاولتُ أن أشرح لها ان التعرف على الناس يحتاج طقوساً خاصة هي في أغلب الأحيان كاذبة، وأنا لا أتقن مثل هذه الطقوس، فاتهمتني بأنني فلاح لا أعرف أصول التمدن، وإذ قلت انّ هذا ليس تهمة، بل مفخرة بعيدة عن الزيف وأكاذيب المدن التجارية المتأصلة، جبهتني: انتم **متغطرسون** ومعزولون أيّها المثقفون.

واستطردت لتثيرني: في السهرة كانت هناك نساء كالأقمار. ولوحت رأسها متشفية من غيابي.

وأنا أرنو إلى وجه وعيني ديانا، أدركني حس الاثم، ففتلت نحو مسرور والحياة اليومية وصداقتها مع الآخرين.

دخنّا. وقدمت ديانا قهوة، وسمعنا موسيقى. وصمتنا. بين حين وآخر كان كل منّا يخون بعينيه خلسة.

لم تجب على السؤال، وهو الآخر لم يجب. وها هو الآن غائب. ذلك الرجل المطارد الذي لا وطن له. فكرت به للتو وأنا أختلس النظر الى جسد امرأته.

هل وجد وطنه فيها فاستكان؟ وهل تستطيع امرأة في العالم ان تشيد لرجل عالماً من فرح معوِّضة له خسارة وطن؟

لقد قال راني: ان حب المرأة للرجل هو أثمن شيء في العالم. ومسرور قال: تزوّجْ ترضَ.

وسألتني إن كنت أريدُ خمراً، فقلت: هل يتأخر مسرور؟

فقالت: ربما.

وتحركت لتصب لي قدحاً.

بعد أن احتسيت بعض الخمر، عاودتني حالة الأمس، فرويت لديانا شيئاً عن حالتي، واذ أدركت وأنا أثرثر محدودية فهم ديانا، داهمني ندم مفاجئ.

تذكرت أمينة وأيوب وحادثة الطفل، فاغتممت.

قالت ديانا خارقة الصمت: خلافاً لما يعتقد من يعرفك، تبدو كئيباً في معظم الأحايين.

ابتسمتُ فأردفت: أقول ذلك جادة.

تحللت الخمرة إلى شيء آخر مختلف تماماً، وراحت تلوح على الشاشة التذكرات والأحاسيس والآلام الغافية. وجاهداً حاولت أن أتوازن، لكن الغرفة راحت تتبدل وتدور، ووسطها تبدت ديانا امرأة حقيقية لها زوج غائب وسط فراغ جهم. كنت قد بدأت أعاند احساساً راح ينمو في ظلام اللاشعور. وبين الرغبة التي تدقّ لتنطلق بعد أن هدمت الخمرة السدود، وغياب مسرور، كان العالم يترنح بضوضاء لا حدّ لها.

في المسافة التي بيننا ارتمى شعور مبهم، لزج، طيني، انسرب عبر زمان مغفل، حدوده قاسية ورخوة معاً. وبصفاء سماء خالية من الغيم أجبت بعد صمت: كئيب لانني مختلّ. ديانا هل تدركين معنى أن يكون الانسان مختلاً من الداخل؟ واذ رأت الجد والتوقع الحادّ في وجهي. انكمشت بذعر. بعد سقوط الكلمة، أحسست بالاثم فوددت لو سحبتها حتى لا تنجلي قشرة السطح، لكنها كانت قد قيلت، وارتمت في أعماقها.

— لماذا تزوجت مسرور؟

بدت الجملة مجانية، وقعت مني ربما لتنقذ حالتي الهلامية، ورفعت ديانا كتفيها بلا مبالاة وهي تمجّ لفافتها: كان لا بد أن أتزوج يوماً.

— هكذا!

— عندما تكبر البنت في بيت أهلها تصبح شيئاً فائضاً يضايق. اذ ذاك لا بد لها أن تخرج إلى بيت آخر تشعر فيه بالراحة وتريح.

— أنت مرتاحة في البيت الآخر؟

— مسرور يحبني وما أريده أحصل عليه.

كنت أغل أناملي في ثنايا شعرها الذي يلمع الآن تحت الشمس. أتحسس جذ يراته، ثم أفرده بين أصابعي فتدغدغني حريريته ودفؤه الشمسي. واذ تتسرب الأنامل نحو عنقها الوعلي ثم باتجاه سفوح ظهرها أحس بجلدها الناعم كحصى الانهار، وبقلبها النابض من ظهرها المتكىء على صدري.

— منى أنا مختل وأنت المشفى.

وتبتسم بشفقة حزينة: من تنشد مسروقة قبل السقوط. دعنا نمشِ. تنهض. وتنفض الرمل فيتناثر شتات منه على وجهي وصدري. أرنو اليها وأنا ما أزال مستلقياً فأشعر في لحظة كالبرق أنها تبعد عني آلاف السنوات الضوئية.

قلت: لكن الانسان هل يتزوج بمثل هذه المجانية؟

وهي تبتسم: يتزوج الانسان بالطريقة نفسها التي يموت فيها.

وقالت النفس لنفسها: «حتى هذه التي اخترقت ستائر الدين والتحريمات الدهرية بين المسيحية والاسلام لتطلع مطهرة على ضفة مسرور، تقول ذلك!»

لم أكن منفعلاً ولا مشحوناً بأية رغبة. كنت عائماً في حالة ركون. طوفٌ خاوٍ فوق بحر.

أبي استحضر جميع الذين أحبهم وهو مستلقٍ على الفراش، وبوعي تام قال: سامحوني يا صحاب إن كنت قد أخطأت. لقد مضى عمر انسان إلى غير رجعة. مضى بخيره وشره ودنت لحظة الغياب النهائية. الانسان يخطىء ويصيب لأنه غير معصوم وهأنذا أموت بغير اختيار. الانسان ذكرى. وداعاً يا صحاب فالانسان يموت.

واذ صاحوا: لا نريدك أن تموت. أغمض عينيه وغاب بلا احتجاج.

في ذلك اليوم بكيت بكاء مراً لفراق أبي، وفي اليوم الثاني خرجت ولعبت الكرة بحرارة طفل يحب اللعب.

أخبرنا مسرور أن يأتي لنسهر معاً. الحّت ديانا على حضوره، فوعد بالمجيء.

حسَوْتُ كأساً ثالثة. ولما ضوأتني الخمرة ثرثرت لديانا شيئاً تافهاً عن حياتي، وعن الانسان في هذا العالم. وقلت لها بأن البشر ضعاف يخطئون ويصيبون في بلادنا، لكن الخطأ ان إنساننا ناقص بحكم التكوين التاريخي والنفسي. الناس

ملويّون ومقهورون، ولهذا يتميزون بقدرة لا مثيل لها على التمثيل واخفاء الجوانب المظلمة. ارث رسوبي ينغِّص عليهم النوم واليقظة، يودّون لو يتطهرون منه لكنهم عاجزون. من أجل هذا، أنا كئيب. كئيب أحياناً حتى العنف أو الموت وأنا أشعر بعجزي عن فعل شيء ما لهم.

وامتد صمت.

كانت الأشكال تتبدل. تغيب صور وتتبدل صور أخرى. وتاريخ الآن يتماثل مع تاريخ الماضي. فقط كانت الأصباغ تطلي الشاشة، وكان قلبي يدق بخوف وأنا أرى مرارة هذا التتابع. هذا الاستشهاد. وفي النفوس، تحت كل ما يحدث، كان هناك حجر ناشب ينمو تحته عجزنا وسقوطنا وإخفاقنا. حجر صلب كان ينبغي نسفه. لكن ذلك كان يحتاج جرأة وضحايا وثورة.

وشعرت بقلبي يرتعش بالحزن.

لم يأت مسرور. ولمحت على محيا ديانا غمامة اكتئاب.

– أنت أيضاً تكتئبين.

رنت نحوي بأسى سري، ولم تجب.

– ما رأيك أن نسير في الشوارع ثم نمرّ على مسرور؟

الخمرة العظيمة تحطم سدود الكذب. تثبت ان عالم فرويد ليس احتمالياً ولا مناقضاً للعلم. بذلك فكرت ونحن نجتاز عتبة المنزل. لفحتنا نسمات دمشقية، أشعرتني انني ملك المدينة وأنا أسير مع ديانا. كنا نسير متحاذيين، تارة فوق الأرصفة وتارة فوق الاسفلت. لم يكن هناك اتجاه محدود. دمشق راقدة كمقبرة، وفي العمارات النظيفة ترهو أضواء زرقاء وحمراء. وفي هذا الليل الاسطوري رجل وامرأة يترنحان على غير هدى.

فجأة خرقت ديانا الصمت: بماذا تفكر الآن؟

– بك وبهذا الليل!

– بي؟!

– أجل.

– وضحكت بعذوبة خائفة.

– الا تفكر بصديقتك؟

– الآن. لا.

– أتحبها؟

– هي لا تحبني.

– غريب!

– هل تحبين مسروراً؟

وصمتت.

قطفت زهرة ياسمين ناولتها لها. بعفوية أخذتها.

شمت رائحتها وقالت: عمر الياسمين قصير.

– كعمر الحب. صدرت الكلمة عفواً.

وانثنينا في شارع آخر.

شعرت بالزهو وأنا أعبر الشوارع التي عبرتها مع منى، حاولت أن أشير إلى ذلك فشعرت بسخف ما سأقول، وكلما اتجهت نحو المكان الذي يعمل فيه مسرور، كانت تقودني باتجاه معاكس. مارست لعبتها فسألتها: بماذا تفكرين الآن؟

وصافحت وجهي عيناها المتألقتان. ابتسمت: قبل لحظات تساءلت لماذا لم يأتِ مسرور؟

– هل أحزنك غيابه؟

أجابت بتلقائية: كان عليه أن يأتي.

وسألتها ان كانت تحس بالحرج لأننا نسير في هذا الليل، فأجابت بأن الأمر عادي. وتحدثنا عن قوانين الشرق وقيمه والانسان المحكوم، وقلت بأن الرجل والمرأة لا يعيشان حرية الداخل وان أي انسان لا يخاطر بكسر أول حلقة، وهو ينتظر ان يبدأ غيره عملية التحطيم، وقالت: ليس سهلاً أن يخرق الإنسان جدران المجتمع. ذلك يحتاج إلى جرأة نادرة. حاولت أن أفهمها بأنني لا أقيم كبير وزن لتشريعات كانت تصلح للأعراب القدامى. وانني أحتقر المرأة أحياناً لأنها جبانة، فقالت ان الرجل هنا لا يفكر بأبعد من نيل جسد المرأة ثم يدير ظهره. ودخلنا في تعقيدات الثقافة والوعي والحرية الداخلية وضعف المرأة الشرقية ومحدودية فهمها للانسان والعالم. كانت المدينة تشفّ، ونحن نتوغل فيها، مولدة شعوراً وجفاً بشيء ما قد يحدث. وكنا نسير جوار النهر تحت ظلال الأغصان المتهدلة فوق الرصيف. إلى

وجه ديانا رفعت عيني. كان شعرها الفاحم يتأرجح في الريح، مرخياً كالصفصاف فوق وجهها السهي.

الصمت.

ايقاع الخطوات مع ايقاع النفس اندغما في زمن واحد. احترك أكثر نسيم أثيري واشجَ الأسرار، وحرّك الوجع. بقصد لا شعوري لامسَ ساعدي ساعدَها العاري. توجفَتْ. ابتعدتُ عنها. سبقتني خطوات. وتحت الضوء لمحت ذلك المسيل الأبيض المحبوك بإتقان. بيني وبين نفسي تمنيتُ لو أمسحُ شفتي عليه من منحدر الكتف حتى المعصم.

الشوارع نفسها، والظلال، والأفكار الجانبية، ثم المشاعر ذات الطرف الوحيد تلهث عن موئل ولات موئل. الأشياء تقترب من ضفاف الافصاح، فيرفع الزمن جرس الانذار.

كنا ما نزال نسير، دونما اتجاه محدد، دونما غاية. وفيما مضى سرنا أيضاً. ورُوِيَتْ حكايات وتواريخ شخصية؛ وبفعل الخوف والإحباط القديم الجاثم في السراديب، ركنت الاندفاعات، وشقّت بيننا مسافة. سرنا باستقامة ثم انعطفنا، كما حدث في ليال مضت، ولم تكن هناك رغبة في العودة إلى البيت. وحكت ديانا بعض الأسرار عن حياتها وطفولتها وأهلها ومدينتها. وتوالدت اسرار أيضاً. سرّ يفضي إلى سرّ، وكنت فرحاً وكئيباً، ولم يختزن الليل شيئاً. فقط كانت الذاكرة تلتقط.

تلاشت الخمرة. كنت الآن صاحياً على نحو متفوق، والشيء الذي لا يبوح، يتفتح كتويج في غسق نديّ.

- ٧ -

علاقة الانسان بالأشياء تبدو أحياناً عصية على التفسير، هكذا أنا ودمشق وجميع من استوطنها طويلاً.

يقول سامر البدوي: وأنا بعيد عنها أشعر بشوق صوفي اليها. ملعون خالقها. تسكن الدم والعصب كأنما وباء استعصى على الشفاء. عندما كنت في بيروت وددت أن أعدو نحوها على قدمي، ثم لو متّ غبّ وصولي فوق ترابها لما ندمت. أية مدينة في العالم لا تعوض عنها.

وقلت مبتسماً: المدينة أم النساء؟

ورفع ذراعيه: دمشق امرأة طويلة طويلة، ممتلئة، نضرة، مسكونة بالرغبات الالهية وبأشياء أخرى لا تُدرك. ثمة شيء تحسُّه ينتظرك أبداً في مكان ما فيها.

وعلى مدى الدهر، هو الثَّمِلُ. والخمرة في نفسه قبل أن تكون توقاً فيزيولوجياً ليرضى الجسد ويندال.

رغبة متصوف جسدي، بعد أن يثمل يخرقُ أقسى الجدران، فيتحوّل. يحس انه صار الهاً، وان فروعَ وسواقي الانهار جميعِها تصبّ في بحره الشاسع.

وان تنبضَ بكنهِ الداخل وليكن الطوفان، أن يقبلَكَ البشرُ بكلٍّ ما فيك، لا بما يريدونه، ان تكون جزءاً من عالم وعصر، محتجاً، مبشراً، ثم ساقطاً، ذلك هو سامر البدوي.

وفي عصره الخانق الجبان، وشموه باللاأخلاقي، ولعجزهم عن الوصول اليه، قالوا: هذا المستهتر!

قُورنَ برامبو والخيام، ولكنه كان بيرون القرن العشرين القاطن منسياً في دمشق، والذي كان ينقصه، أوغستا لينام معها. لم يكن شاعراً كبيرون، لكنه كان

ملعوناً بفطريته الصحراوية وجسده الذي تصبح كل ذرة فيه بعد حسو الخمر: إلي بكل نساء العالم لأنام معهن مرة واحدة ثم أموت.

بعد الخمر تتجسد نبوّته المركزية، يحكي فتسمع له، وتحكي فيسمع صدى كلماته. واذ تصمت تكون قصص جديدة مبالغة، مُختلَقَة أحياناً، قد ولدت في غار رأسه بروح يتلوها. وفي حوار حول الشعر والحس، بدا لي في ذلك المساء مقهوراً، ألمحت اليه بأنه اختار طريقاً صعباً ليس من السهل عبوره، فتحدث عن الشاعر الذي يكتب بدمه والقارئ الذي لا يتعب وهو يقرأ، واحتج على الذين لا يفهمون كلماته، وقلت: ربما كانت المسألة هي غير ذلك، وما أردت قوله عن الطريق الصعب هو القدرة على خلق فن حقيقي من خلال التجربة الحسية، فالشعر ليس حياتك أنت، انه حياتي أيضاً، هناك ضريبة تدفع على حساب الغرق اليومي، وحتى يكون هناك توازن لا بد من موهبة خارقة، وأنت ضحيت بالشعر من أجل الجسد.

ويومها صاح كثور يذبح: أنت ماذا تعرف عن الشعر؟ الشعر والجسد لا ينفصلان.

وقلت مغيظاً: الشعر – الفن. لا الشعر – الانا. أنا لا يعنيني جسدك. قُلْ شعراً أقلْ لك من أنت، وأنت عاجز عن الخروج من جلدك وهذا مقتل.

وباجتياح طاغٍ اتهمني بالغباء والقصور عن التقاط الالتماع الفني، وتلا علي آيات مكرورة من ييتس وبودلير ولوركا. وكان غضباً ومؤذى. ابتسمت وقبِلَ صمتي التهمة.

وكما يمضي النهر والريح والسحاب، كانت حياتها تمضي. وان توجد أو لا توجد في قواميس علم السكان لم يكن ذلك يزيد أو ينقص. كان بامكان النسل البشري أن ينجب الملايين ليضيفوا ارقاماً إلى الأرشيف السكاني، لكن علم الاجتماع والاحصاء، كانا عاجزين عن إنجاب منى أخرى تدخل تاريخي الخاص. كان ذلك من اختصاص علم النفس الزمني.

في مقهى خاص بعد مقتل زوجها بأربع سنوات، سألتها لماذا تزوجت ما دامت تكره الرجال وتخاف الأجساد العارية. فأجابت بأن ذلك تمّ على نحو تلقائي، وقد أعطت جسدها وأنجبت ميسالينا حتى لا يُقال عنها بأنها عاقر، وحتى

يرضي ذلك الذي يودّ أن يفاخر برجولته الشرقية ونسله. وسألتها إن كان قد حزن واغتمّ إذ أنجبت له بنتاً فقالت: كانت ميسالينا في رحمي عندما مات!

كانت أناملها تنقر سطح الطاولة وهي تتحدث، واذ رشفت بعض القهوة طلبت أن أشعل لها لفافة. وسألتها عن حياتها الجنسية بعد موته، فحدقت في وجهي باتهام مبطن. بعد ثوان من الصمت سألتني ان كنت أعرف شيئاً عما يسمى بالاكتفاء الذاتي. شيء ما وخزني في الداخل، وطلبت التوضيح أكثر فشرحت لي، وقلت بأن ذلك يعود إلى الطفولة وقد يكون ردة فعل ضد الكبت، لكنها أوضحت لي ان ذلك بالنسبة اليها شيء مختلف وانها لم تمارسه في طفولتها، وان الأمر حدث بعد أن قررت أن تكون لنفسها. أشرت إلى الألم الذي ينجم عن ذلك، محاولاً أن أخوض في دقائق الموضوع، لكنها وضعت كفها على فمي قائلة: هذا شيء خاص ومعقد. دعنا منه.

فتحت دفترها الصغير وراحت تقرأ شعراً. كنت ادخن وأتأمل ايقاع سطح وجهها وهي تتطهر بالشعر. قدمانا متعانقتان تحت الطاولة، تضغطان اثر المقاطع الحارة، بينما مجموع جسدها يرتعش مشبوقاً والشعر يجتاحها. وقالت ديانا رداً على سؤال لم أسأله الآن انها تزوجت مسروراً بالصدفة. كان يسكن غرفة في بيتنا. وكان يبدو عليه الحزن والبؤس. أحياناً أدخل غرفته فنتسلى ونضحك، وفجأة وأنا منكبّة اقرأ شيئاً له على الطاولة قبّلني، فوجئت. عاتبته: عليك أن تكون مهذباً في بيوت الغرباء. انكسر من كلماتي وقال بذلّ: ديانا أنت لست غريبة عني. وراح يبكي كطفل بين يدي. خجلت من تأنيبي. اقتربت منه. ورفعت رأسه ومسحت دموعه، ثم فيما بعد تزوجنا.

كنا ننعطف يساراً نحو شارع آخر، وديانا تحكي ببرودة كأنها شاهد محايد. أمامنا وخلفنا وعلى الجانبين، كنا مطوَّقين بدمشق. نسـير ببطء، ودمشق متاهة، وضيق، وأنوار. صمت، وغياب، وتوق لشيء مخبأ فيها وفينا. الدروب تفضي إلى دروب والاقدام ترنّ على الأرصفة بخفوت، ولا نتعب. اننا نمضي.

– تعبت؟
– لا.
– نعود؟
– كما تشاء.
– فلنمضِ.

ومضينا. داخل غسق خاص، في محيط زمني مُفلت، يتراوح بين العتم والنور، بين الصمت والافصاح. كنت أتقرّى ديانا تلك الليلة، وأنا أستمع لخفق شفتيها. وكل شيء كان يسري كالريح، وفي غمرة هذه الريح بدت ديانا فضاء شحيحَ الاعتكار، وكطائر موسمي هجر جزيرته وتاه، كنت أخترق ذلك الفضاء.

[]

عندما عدنا كان الزمن قد استرخى في أجسادنا، وفي الداخل سقط الولع. كانت السيارة آنذاك، الحقيقة التي تتحرك، والعالم في الداخل والخارج هلامياً مستكنّاً. أية كلمة لم تُحكَ. الراديو يخرق الصمت بموسيقى حزينة هادئة، ووائل يسوق براحة نفسية، ومحاذاته هدى نائمة.

على بوابة البيت رُفِعَتْ الأيدي لليلة ماتعة، وغابت المرأتان في شارع جانبي.

دوار في شوارع دمشق، دونما اتجاه مقصود. صمت ولفائف تحترق. ورويداً تصّاعد السرعة.

منعطفات لفّها بسرعة جنونية؛ أضواء تمر، وشوارع تُعبَر، وإسفلت تسحقه إطارات مهووسة، وبقايا سكارى يترنحون داخل أحزانهم التي نشرها الخمر.

– إلى أين؟

– إلى الله!

وتحرك جرح الجريح. هي ذي ريح الوطن والعبث والمضي أكثر فأكثر نحو أحاسيس جديدة، عبر أضواء تبرق في ليل النفس التواقة للطلوع من إسار الجسد، من إسار العالم، نحو رؤى ومرافىء احتُلت ولم تَفِدها الجراح. ومنى لا تحضر، وفلسطين جرح ناغل في الجانب الأيسر الملاصق للقلب.

[]

هي هجرة خاصة من نوع جديد، ليست طيفية أو طوباوية كما تبدو للوهلة الأولى. إبحار عميق لا يكلّ في محاولة للوصول إلى هيولى الأشياء. رحلة ربما، عبر جحيم العربي المعاصر المتلكئْ فوق هذه الأرض، هذا الذي يخدع بمشيته فوق الأرصفة، بصَرَ الناس العاديين، لكنه من الداخل مسكون بالجن والتوق، بالرمل والبغضاء، بالمبالغة والخوف، بالأمل والخيبات، بالخيانة والكذب، بالحضارة والغياب. جحيم حقيقي مذعور ينبىء بعصور الانبثاق القادمة ربما.

– لكن لماذا تقيس جسدي؟

– لأركز في ذاكرتي جيداً حبكِ الخاص.

واذ انتهيت من عملية القياس، استلقيت قربها وحدقت في السقف والجدار المقابل أطبع صورتها هناك. مررت كفي من أعلى جسدها حتى رسغها. كانت ممددة في الفراش. بعد حين تغيب وأظل وحدي مع السقف والجدار، ولو صحتُ حتى الاغماء: ان عودي، لما عادت. أن ظلي هنا، لابتسمت ورحلت. ولو صاحت نفسي بالزمن: دعني أعتقلك فيها قبل أن تغرب الشمس، لقهقهه الزمن مني، وفرّ.

وبعذاب كنت أسأل: لماذا؟ الغزاة والفاتحون أم طبيعة البشر؟ لماذا هذه البلاد اللعينة تتأرجح في الريح؟

أي جحيم لا يُفصَحُ عنه، أن تحب كل نفس ذاتها في حجرة سرية لا تُخترق، وان يكون هذا التعس ضحية الزمن الضائع!

وسألت منى: ألم تحزني اذ مات؟

– دُهِشْتُ. تساءلتُ لماذا يُقتل الانسان بهذه السهولة؟ وفيما بعد انتابني حس الغثيان.

– خفت؟

– على ميسالينا التي ستحيا يتيمة.

– لماذا هجرتها؟

وصمتت. طلبت لفافة. نفثت دخانها في الفضاء بقوة: دعنا نذهب إلى البحر!

- ٨ -

أذكر الآن جيداً كيف عبرنا ثبج الرمل. وكيف جرينا حتى الشاطئ. وخلال جرينا راحت تتعرى من ثيابها. وهي تتعرى رحت أمسح جسدها بعيني. بالطريقة ذاتها في اللامبالاة، في غرفتنا الرطبة في حي السبكي، بدأت تبعثر ثيابها. تحت سطع الشمس لمع ظهرها البهيج، فضغطت رغبة الطواف بذلك الظهر المورق الذي لم يُمَسّ.

على حافة الموج كانت عارية الآن، مثل سماء صافية. نقطة بيضاء وحيدة عند ابتداء البحر. قطع ثيابها متناثرة فوق الرمل والحصى، واذ أنحنيت اجمع القطع، سمعت صوت ارتطام جسدها بالماء.

وحلالي أن أراقبها وهي تسبح، موغلة كلؤلؤة في مياه البحر الصافي. فوق الرمل استلقيت على جانبي الأيمن بينما سرحت عيناي نحو ذلك الجسد العظيم الطافي فوق الماء. الجسد الذي يتطهر الآن من عصور الرداءة في مِصَحِّ الطبيعة الفسيح. كانت تضرب الماء ثم تغوص، ثم تنبثق كالسمكة مغسولة تلمع تحت الشمس. شعرها القمحي الناضج يلتصق بخديها، تفرده فتبدو أناملها الرقيقة في أبدع تكوين، واذ يبرز نهداها لامعين مغسولين كورق قطلب الجبال، يهبّ في داخلي توق الحلول فيها، يناديها صوت مجروح تعالي الي، لكنها تنقلب على بطنها فيبدو نصف ظهرها مرجاً من ياقوت وفجأة تقمس غائبة في اللج الملح. يمر زمن أنتظر فيه خروجها. يداهمني شعور أنني فقدتها. أرى المسافة بيننا الآن، ولا تجيء. وأنا الآتي اليها على مدى العصور، ومعها كان الصدع يتسع؛ وبدت صلتنا كأنما قطعت بمدية أحدّ من الموت، بترتها الخيبات المتواصلة، الخيبات المسجلة في أرشيف العرب. ثم هذا المرض الجديد الذي سمّته الاكتفاء الذاتي. اذ تنبثق مرة أخرى تستلقي على ظهرها، فأشاهد سطح جسدها: الحلمتين النبيذيتين، وجزءاً من بطنها، وركبتيها ورؤوس أصابع قدميها. أتذكر اعيائي عن قطع مسافة المئتي متر،

كما أتذكر بمرارة أكثر الفتية الذين عرفوها من الخارج ثم ولّوا عنها موغلين في عروق مدينة دمشق. هي ذي تنتصب بيضاء كحمامة في اخضرار البحر. انها هناك. عارية. مضيئة. مفعمة بالبحر.

بقهر استوطن خلاياه، مذ بدأ يحس هبوب الزمن على جسده الذي يشيخ، نهد: اليوم أنا بائس!

تمليت وجهه الشاحب المعتكر بالعطب الداخلي، فلمحت تحت عينيه نصف قوسين وَرِمَيْن أفرزهما الزمن. وأضاف: صوب الصحراء هاجرت هرباً وما استطاعت ان تنسى، وبالأمس عادت إلى دمشق. ألم أقل لك أن دمشق قطب العالم ومن عرفها مرة تسكنه كالوباء. قالت انها حجّت الى الكعبة. دارت حولها وتعلقت باستارها هامسة: يا ربّ انسنيه. فتصوّر أيها العربي الصعلوك!

– لم تنسَ اذن؟

– ايه.. من الذي يستطيع أن ينسى؟ الحب كجرح الوطن ينغل ويلوب. ينزّ أبداً وفي فصول الخصب والهياج كالكمأة يشقّ الأرض القاسية. غنّوا لنا غنّوا، انشروا أوشحة النسيان فوق جسد هذا الزمن الحزين.

انشد احدهم قصيدة جديدة فصاح سامر: يا ابن الحرام ما أشعرك!

كان متوّجاً بالحزن، يولّد منه أفراحاً وقتية، وعلى هؤلاء الذين أحبهم راح يوزع نفسه.

عندما انتشرت الخمرة بكل مجدها الصوفي، وبكل الحرية التي تتحدى بها الحواجز، عضّني من رمانة كتفي. همس لي عقب صراخي: أيها الملعون كم أحبك!

واستطرد قبل أن أفوه: أتعلم لماذا لم تنس؟ كزّ بأسنانه ثم شبَّ عن كرسيه واقفاً، رافعاً كأسه: نخب الموت!

عندما بدأ الكهف يرمي بالآخرين إلى الشوارع، بدأنا نحس عذوبة الخلوة. كان سامر البدوي يدخل حالة خاصة لم أعهدها فيه. ثرثر لي بأنه لم ينم مع المرأة وكان حدثاً فريداً في تاريخه النسائي، وانه أراد الاحتفاظ بها في بقعة نظيفة من نفسه. وسألته: هل في نفسك رقعة لم تلوث بعد؟ فحدق في وجهي بشراسة عاتبة: حتى أنت تقول ذلك؟!

واعتذرت، موضحاً بحرارة انني أعتقد أن هذا الشر الذي يعتنقه مسوّغ لأنه رد فعل قاسٍ ضد الخير المنحرف والموروث، وان التكوين السويّ لم يأتِ زمنه بعد، والعصر الزاني يلد بالضرورة ابناء زُناة، ونحن ربما كنا زناة بالوراثة. وقلت له إن امي لم تعرف، حتى موت أبي، ما هي اللذة الخاصة بها، وانه كان يلجُها كما يلجُ الوحش أنثاه ثم ينقلبُ عنها.

وحسّونا.

وهو يضع كأسه، آه بقهره المزمن. مال نحو جاره وعانقه، ثم وشوشه. قرأ لنا شاعر آخر قصيدة فشارف سامر تخوم البكاء. دقِ كأسه وقال: نخبك يا أنبل الشعراء.

مع رفع الكأس واندلاق الخمرة في جوفه، تراجع البكاء. تذكر أن عليه الا يبدو ضعيفاً أمامنا.

– لولا الذين أحبهم لانتحرت.

ونتر مسدسه، ثم وضعه على الطاولة. اذ ذاك توقف الفرح والشعر، وتتالت موجات النازحين من القبو.

وسأل بدهشة اذ رآهم يهرعون: لماذا؟

همهم جاره بين الفزع والمرح: خوفاً من هذه الآلة الفاشية. مشيراً إلى المسدس الملقى.

ابتسم سامر بهزء: لكني سأرهنه لأنني لا أملك ثمن الويسكي.

[]

في غياب منى حاولت ملء فراغي. واريتُ الحزن والفقدان. لكن ذلك بدا محالاً مرسوماً على وجهي الذي احترف الكآبة.

كنا ما نزال نسير في مدينة الصمت والحجارة، ورمقنا حارس يسلي وحدته بالمسير وصفارة الخطر فابتسم ولم ينبس.

– يعتقد أننا عاشقان، قلت، وما نَبَستْ هي الأخرى.

وتحاذينا أيضاً. مسح زندي زندها الأسمر المغسول مرة أخرى. وتباعدنا. لا شعوريا استُعيد ذلك، وكنا نتحدث قليلاً ونصمت. وسألت نفسي: هل لهذه المسيرة الليلية معنى؟

شارع يصل شارعاً. ورصيف يودي إلى رصيف. الدروب نفسها. رائحة الياسمين والليل. ثم الصمت. وخارج المدينة تقوم البراري حيث لا حجارة ولا بشر، يقوم الانعتاق من المنازل الشبيهة بالشرائع التي استنت في غيابنا، لأناس متمدنين يهفون جميعاً إلى حياة الوحوش والحرية.

هل قلت لها: انني أكره هذا المجتمع الذي يخدع بأنه منظم؟ وهل اجابت بأنها تحب الحرية؟ وهل ردت بأن الحرية تُعاش اذ تُحَبّ؟

كانت الكلمات ترتمي كما يهطل مطر مفاجىء، كما يأتي نهار يعقبه ليل، وكما يجري النهر وتشرق الشمس.

[]

مرة. ومرة. مرات. الشوارع أيضاً وهؤلاء الآخرون الذين اخترتهم في البدء ظلاً صحراوياً، وفيما بعد رغبة ملعونة للاستكناه. تستمع حافراً في أرض البشر ذرات تكومها كخلد الحقول. يرتفع السطح الترابي الذي جافته الشمس. وتقول وأنت تنجف التربة: متى تنتهي اللعبة؟

تطوقك الشباك. عنكبوت يريل وينسج. ينسج حتى حدود التلف. ما الذي تريد أن تصل اليه عبر النسيج المؤلم؟ هل ستكتشف شيئاً لما يكتشف بعد؟ كوناً منسياً في مجاهل لم تُرتَد؟

وما الذي تستطيع أن تفعله يا موظف الدرجة السادسة، أيها السيد المفقود في المحطات، في بلاد رجمت أنبياءها؟ فرسانها اعتكفوا في الخمارات وداخل خزائن المال، وفي المواخير، وراحوا يشرعون حراب الفتوح ويحررون فلسطين واسكندرون هناك، بانين للعربي الجديد مجداً من الضوضاء والعطالة.

سرنا في شارع حلب العريض. كان خالياً من المارة في ذلك المساء الصيفي وبدت شجرات الرصيف متوحدة كجذوع ناس صُلِبوا منذ مئات الأعوام ولم ينزلوا.

وثبت في الفضاء. قطفت ورقة خضراء فقهقه سامر: أبوك. تثب كجدي. من أين لك هذه الحيوية؟

– كنت فدائياً!

زعق مستنكراً: فدائي! أنت فدائي. فدائي شرفات يا ابن...

وقاطعته: لماذا تسقط نفسك علي؟ انا أخلاقي يا أخي. وبأعلى صوته صاح:

اسمعوا يا ناس. اسمعي يا آلهة. قال أخلاقي. قال. اذا كنت أنت أخلاقياً فأنا المسيح اذن!

– أي مسيح؟

– ابن يوسف النجار!

وكمتوحشين انطلقت صرخاتنا.

في فراغ ليل المدينة رن الصراخ. تلاشى وضاع في أوراق الشجر والفضاء.

في عرض الشارع تارة، وعلى الأرصفة، تمايلنا، تسابقنا عدْواً ولهثنا. بخفوت ونحن ندق خطواتنا المترهلة، اعتكر الزمن. ناح سامر «سكابا يا دموع العين سكابا» ومع الترانيم راح يميل بجسده المعنَّى.

شارفنا منعطفاً انعطفنا معه.

– ليلة بلا نساء.

وقال: من أجلها سأكون طاهراً هذه الليلة. أتعلم لماذا لم أنمْ معها؟ دندنت مطلع أغنية لفيروز. أشعلت لفافة ورحت أترنح.

– عذراء ومخطوبة لصديق بريء كالدمعة وأنا أحبه.

سرنا. لم أعلق، وفي الفراغ نفثت دخان اللفافة. فجأة جرى قليلاً حتى سبقني وانعطف مواجها. من صدري تناولني بقبضته السبارطية وهزني: اسمع. أعرف ماذا يقولون عني. أنا أرغب أن تحتقرني السائمة. احتقارهم تطهير. وسام أعلقه على صدري. اسمع. العربي مبعد. طرفة نفي كالبعير. أمرؤ القيس غادر الخمر بعد موت حجر الذي لعنه عندما كان حياً: هذا ولد لا خيرَ يُرجى منه. أنا أعرف ان العربي الذي نحدس به لم يأتِ بعد، واذ يقبل تدبر الخمرة. آه انني أتحدث اليوم كمخمور حقيقي. الموت لنا جميعاً. الموت للكلاب الضالّة قَعَد الخوارج. وصمت قليلاً. افلتني من يده القاسية. سار كمأخوذ وراح يهلوس: يا اله الآلهة لا أريدُ شفاعة ولا جنة ولا غفراناً. أنا قابيلك الملعون. تخلَّ عني فأنا شفيع نفسي يوم القيامة. نحو السماء كان يرفع يديه ووجهه. وتحت ضوء فانوس الشارع بدا وجهه متوهجاً كشهيد وقت النزع.

بعد صمت قال: ينبغي الا نخون بعضنا بعضاً. أتفهم ذلك؟

ومرة أخرى استوى الصمت، استواء جنازة رُفعت فوق الراحات. ومن الشرق

بزغ قمر رائع، لكنه كان ناقصاً. نحو السماء حدّقت، في ذلك البحر المحدّب الأجوف. اعترض خط بصري قمة مئذنة فوقها هلال في نصف فراغه الناقص نجمة.

هناك كانت رؤوس الأشجار هادئة، وكنت أسمع هبوط أقدامنا فوق الأرض. عَبَر الشارع رجل معمّم هارعاً إلى الجامع.

في حضني نامت أمينة بعد أن ضاجعتها باشتهاء لا مثيل له، وكأن ذلك يتم للمرة الأولى. في فراش واحد كنا كابن وأمه، وكانت سمية غافية لصق الجدار. بحنان من هدأت شهوته طوقت عنق المرأة، فأحسست دقات قلبها تخفق برتابة واطمئنان في غياب أيوب السرحان المسافر.

كانت قد هيأت عشاء وخمراً،. وجلسنا ثلاثتنا. كابنتي اطعمت الطفلة، ورويت لها حكاية فضحكت، ثم مثلت لها دوراً هزلياً فدُهِشت من حركاتي.

وعلقت على ذلك بأنني أصلح ممثلاً سينمائياً. وغمزت بأنني أقبل شريطة أن تكون ماما هي البطلة. بفرح مطلق ابتسمت أمينة وهي تلسعني بنظراتها.

على الخوان كنا متلامسين، وفي مواجهتنا سمية والأيدي المشتبكة المشتهية تحت الطاولة تضغط سائلة: متى تنعس؟

كان البيت يطل على بساتين دمّر، منفرداً بين غياض يجري خلالها بردى. وفي الخارج كان الليل والزوج الذي أقنعته بالسفر لتفقُّد ما تبقّى له من حصة الأرض في البطيحة.

صلى الرجل في الجامع وعاد؛ باشمئزاز رنا الينا ثم تابع نحو بيته. كان الانهاك قد تسرب الينا وما قيل تبخر منه ما تبخر، والذي ينفع مكثَ في قاع الذاكرة.

ودونما وداع، افترقنا.

كان هناك في ضياء الظلمة يسير، وحيداً، منكسراً كمحارب. ومن الشرق راح الفجر يزغف.

كم سرت حتى وصلت، لا أدري. كل ما تذكرته في الليلة الثانية وجع معدتي وطراوة عشب حديقة السبكي.

- ٩ -

ثملت. قالت سمية: أنت تترنح كأبي. ضحكت وأنا أدرج نحو المغسلة. التفت اليها: أبوك اذ يترنح يسقط أما أنا...

وسريعاً قبل أن أسقط ولجتُ المرحاض.

إلى النوم يا عزيزتي الصغيرة. جميع الأطفال ينامون باكراً. اذا خرجتُ وأنت يقظة ما تزالين، سأحملك عنوة إلى الفراش وأغطيك واطفىء النور. هذا ما ينبغي أن يكون. أنت ذكية وتدركين ذلك. لا بد أن اللاشعور يعمل بشكل جيد. هذه هي الحقيقة. أنا لست مذنباً. أبوك هو المذنب. أنت ترين ذلك بوضوح. أي اثم في ادخال الفرح إلى نفس امك التي هجرها والدك من سنين. جسد امك بحر صاف مُلألأ، مسكون باليواقيت والمرجان وأنا بحّار مسكون بالغوص ورغائب البحث عن الجواهر المخفية في تجاويف الصخور. عندماتكبرين ستفهمين ذلك. لماذا يحزن الجسد وتحزن النفس؟ ولماذا الولوج يطهر البدن وينشر في ربا الروح نسيماً عذباً وراحة لا نهائية؟

الرجل لباس المرأة. أنا غريب هذا مؤكد في الماضي، أما الآن فأنا ريح الأم فيَ أصياف اليتم. المسرة والسلام للمرأة التي ولدتك بلا شهوة. اسألي امك عن هذا وهي ترتعش وتهتز كما تتقصف الأرض اذ يدهمها زلزال. وإذ يسألونك عن الجسد قلْ: الجسد أمينة وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً. يا أجساد نساء العالم الجميلة كوني خالدة على مدى الدهور فلا تتشوّهي ولا تموتي.

في ذلك المساء اشتعل البيت بالرغبة. مرة. ومرة. حتى الفجر وانتما عاريان. وفوق جسدها المرمري الأملس المصون، سبحت. تطهرت في بحر جسدها. وللأزمنة القديمة والنسل المني خارج جسده، ثأرت. لم نشعر بالليل، ونحن نتفتح كياسمين في ظلام رطب، داخل بيت منفرد مغمور بالغابات وموسيقى النهر.

وفي تلك الليلة فاحت بروائحها. من كل ذرة شبت الروائح فانحللت فيها. الجسد وحده الذي ثرثر. قام وهبط. توجع واحترق. انساب ثم اخترق كالرمح. ثم مات.

ثلاثة أعوام ولا ملل. ودمشق سكينة تنحل في النفس والبدن، يختطف الذكريات فتكاد تنسي كل ابن أنثى كوخه الذي هجره، فينسلّ الماضي كما تُستلّ روح على مهل.

وكما قال سامر: مدينة مسحورة تلتف حول بنيها كما يلتف اللبلاب. تحنو عليهم. تطعمهم. وفجأة في ليل دامس تخنقهم بلا مقدمات.

هكـذا كنا نُقتَل كل يوم في مدينة العظماء والسكارى والمخذولين والشهداء والتجار. من مقهى إلى آخر، من رصيف إلى رصيف، ومن امرأة إلى أخرى، ومن خمارة إلى خمارة.

دوار يعقبه دوار. من الشيء نحو اللاشيء وبالعكس. ثور أعمى يدور حول بئر. جيل اسمته منى: جيل الصعود والهبوط. الجيل اللامجدي. وأسماه راني: جيل النقطة الحرجة. في حين كان اسمه في قاموس سامر: الذي لا يملك دفة الوقت والتاريخ في اللحظة الراهنة.

وقلت عنه: ميلونا. ڤادوم، امبرياليزم، عسكروف، عزرائيل. ڤيڤا الانفلاش الثوري.

وتقول دمشق: أنا اللغز الذي عجز عنه معاوية وتيمورلنك والسلطان سليم وسائر الفاتحين المبجلين.

وظلت قضية وائل الأسدي وأيوب السرحان ومنى وسائر المطعونين دونما استكناه، مستترة في مكان خفي من تواريخ المدينة وغزواتها وثوراتها المعاصرة. ظلت بلا قضاة ثوريين في عصرنا الحديث.

[]

الطريق نحو دمر - بيروت مفتوح ومشجر، يخلف شعوراً بالانطلاق والهرب. على جانبه الأيسر يتأود بردى داخل أبدية ثابتة بين ظلال الحور والصفصاف. وفي الجانب الأيمن قاسيون العاري.

وراءنا دمشق التي تعرت لكل الغرباء وظلت دمشق. والذين سموهم الهكسوس الجدد ما زالو مقيمين فيها. همجيون وخطاة، لكنهم يبدون أكثر انغراساً في جسد

الزمن الدمشقي. بوحشية غير متزنة، يهشمون أنفسهم وسكونية دمشق ورخاوتها. دمشق التي اعتادت على مدى القرون البيع والشراء، الصلاة والمجاملة، الهدوء الكاذب ثم قذف الغرباء عندما تضجر منهم.

دقائق ويوقف وائل الأسدي سيارته بعصبية. فيسمع للاطارات سحج مفاجىء يوحي بحادثة مباغتة. بحركة ممثل، يغادر مقعد القيادة ثم يغلق الباب بعنف ويقفله. ندخل دهليزاً مغطى بأوراق الكرمة. ينبحنا كلب ينهره وائل ثم يربت على ظهره فيشب الكلب بمودّة على قائمتيه، هازّاً بخفوت من عرق القادم.

يخرج وائل من صمته مذ غادرنا دمشق: هرّ لأنه عرفك غريباً. طوال الطريق لم ينبس. كان يدخن ويسوق كالمهووس وأنا قربه لا أعرف إلى أين نمضي.

انعطفنا داخل الدهليز المسقوف بالشجر. فاجأني النهر بهدير زاخر، وتحت انعكاسات الضوء بدا عِكراً صخّاباً.

لأول مرة أشعر ببردى مخيفاً في هذا المكان الموحش.

كان البيت معزولاً عن مجموع البيوت المتناثرة في الضاحية، غارقاً في السكون. وإذ وضع المفتاح في ثقب الباب وحركه فصرّ، داهمني إحساس غريب مشوب بخوف.

أشعل نور الممر وأنا أمشي خلفه بخشية واتئاد. لم يكن يُسمع غير صوت خطواتنا على بلاد الممر. ولَجْنا غرفة إلى اليسار. أشعل المصباح. سرير وطاولة وكراسٍ وخوانٌ وأرض عارية. على المنضدة والارض زجاجات فارغة وكؤوس فيها بقايا خمر؛ فواكه ونفايات، ثم الروائح الحامضة.

ـ ما رأيك؟

غريب وشاعري.

ـ هناك غرفتان فارغتان. هل تسكن معنا؟

ـ أنت تسكن هنا؟

ـ أحياناً.

كان واقفاً يشعل لفافة «جيتان» دخانه الحادّ المفضل. معه كنت أتقي إلقاء

الأسئلة. على الخوان جلسنا. تناولت لفافة وأشعلتها، وشبكت قدمي بينما راحت عيناي تكتشفان البيت.

كان السرير في حالة فوضى، وفي زاوية منه منامة نسائية مطوية. سألني إن كنت أرغب في تناول القهوة، ودون أن يأخذ جواباً تحرك نحو المطبخ. سرت إلى السرير. رفعت المنامة. كانت ممزقة وعليها بقع من دم. اهتز في أعماقي توجس. على الأرض لمحت بقعاً حمراء مختلطة ببقع النبيذ. وعلى الجدار كانت هناك صورة عارية لرجل في حالة تهيّج، يقبل نحو امرأة مستلقية تسترها غلالة تشف عن كامل جسدها. اللوحة زيتية والزمن شفق. وفي الزاوية مجلات نصف مفتوحة. تناولت إحداها فواجهتني أوضاع جنسية كان جزء منها ممزقاً.

لست أدري وأنا أعود إلى مكاني، كيف تذكرت صوت هدى الذي صرخ في البراري. هاجمتني روائح مرضية هبت من هذا العالم الغريب، وانتابني خوف خاص مشوب بحزن وغثيان. كنت منقبضا.

وأقبل حاملاً القهوة. ورأيت وجهه الوسيم وشاربه الأشقر وشفتيه وشعر صدره الكثيف السابح نحو رقبته. بابتسامة مرتعشة قلت: أنت وسيم وائل!

فاجأني: هه. وسامة مشوهة تساوي فرج امرأة. ورحنا نحتسي القهوة. من تحت المخدة تناول علبة دخان أميركية. عرض علي قلت: أنا ضد الأمبريالية. وأشعلت لفافة «شرق».

قال: بل أنت ابن حرام.

استفهمت منه فابتسم، وقال إنني أملك رائحة شمّ نفسية. ولم أفهم ماذا يعني. بين أصابعه فتل اللفافة: لو تعرف قيمتها. أنت لا تعرف قيمة التمام. وقلبت شفتي. ووسمني بأنني حمار لا أدرك من عالم الإنسان إلا الأمور السطحية، وإن الحياة في نظري قراءة كتب وتأملات لا صلة لها بالواقع. ثم ختم موعظته: التأمل لا يخلق إنساناً. والتجربة واختراق المحرمات في هذا العصر الجليل هي الأساس يا بهيم.

وقلت: قد أسمع الكثير من الآراء الدونكيشوتية التي تتجلى لك ولكن أفهمني ما هو هذا التمام؟ قهقه وراح يشعل اللفافة المقفلة في نهايتها، ثم عبّ نفساً طويلاً قذف إلى فراغ الغرفة قليلاً منه وابتلع الباقي. شممت رائحة غريبة وزكية، بينما

كنت أرشف القهوة. امتدت يده إلى زر النور فأطفأته، وأشعل مصباحاً صغيراً أحمر. قال: هذه طقوس لا بد منها.

بدت الغرفة موحشة، تشبه مغارة قائمة في الجبال. وراحت الروائح تنداح على مهل: مباخر من عصور قديمة توحي بالموت والجنس والعزلة. الأرض والجدران والثياب والفراغ، راحت تنضح. تدخل أنني وتغور إلى الداخل، أحسست أنني مرمي في حفل جنائزي وأنني مسحور، ثم انتقلت إلى عالم مفرح، فعالم يوحي بالقتل. تخيلت في هذا الهلام الغريب أن امرأة حضرت هنا من زمن ماض، فرحت، ثم انتُهِكت، ثم قُتلت. وازدادت الروائح. أحسستها تخرج من لفافتي ومن قدمي، من الكتب والخوان، ومن كل جسدي. كانت هناك تستوطن كل ذرات الغرفة، وكنت كالنقطة يحوطني غلاف من روائح بخّورية تخرج مني. وفجأةً دهمني انقباض وحالة غثيان، وكان قبالتي يحتسي القهوة ويدخن، ماصّاً لفافته على مهل. يحكي أشياء أحاول جاهداً استيعابها، انتبهت لكلمة هدى وناديا فسألته إن كان قد رآهما بعد تلك الليلة. شتمني وهو يقول ان المرأة الشرقية تؤخذ عنوة. وأتذكر أنني أجبته أنها رقيقة وعذبة كزهر الياسمين وتكره العنف وأن هذا الذي تتحدث عنه مركب نقص في العربي المسكين. وبدت حدقتاه محرورتين باحمرار حار، وحاول أن يناقش في موضوع الفحولة والمرأة الشرقية التي تخضع للذكر وهو يقتحمها بشراسة، فقلت بأن هذا المفهوم بدائي لا علاقة له بالإنسان المعاصر، وان المفاهيم قد تبدلت منذ عصور الكهوف والفرسان والصحارى. وإذ تناول لفافة أخرى راح يتحدث عن نفسه وقواه الخارقة في الجنس وضرب المتآمرين في قبو مكتبه. كان في حالة خاصة، ورويداً راح يتشنج ويصرخ ويهدد، وكنت منكمشاً أنسحق ألماً عليه. وحاولت تهدئته، ففشلت وراح يهذي: كانت الحياة معه تبدو ضرباً من المحال. تصور رجلاً مشوهاً مرمياً على سرير لا يقوى على النهوض. مضى عليه حوالي ثمانية عشر عاماً هكذا. الأدوية لم تنفع وكل الأطباء عجزوا عن شفائه.

من الخارج انساب صوت النهر، وتحولت الرهبة والمفاجأة إلى حالة من الحزن والشفقة.

ونهض. صب لنفسه كأس نبيذ ثم جرعه دفعة واحدة: كانت هنا بالأمس على هذا السرير. قالت: أنا عذراء يا وائل. انتبه جيداً. عذراء أيها الكلب. ها. ها. وجرع من الزجاجة.

– أي معنى أن تكون امرأة عذراء. غشاء كخيط العنكبوت يُمزَّقُ بطعنة ثم ينتهي كل شيْ. صمت قليلاً ثم استطرد:

في الصباح دخلت عالم الحريم. تلوّت. صرخت آلهتها. هاي. مرحباً آلهة مرحباً عذراء. عندما تقتحم غشاء المرأة تحررها. آه لو رأيتها بعد ذلك بعد أن فقدت أغلى ما تملك. لماذا لا تشرب. يا... يا... واذ تلفظ بكلمة: إنسان. شعرت أنه ربما استيقظ.

وصبّ لي: نخب العذارى!

قمة الفرح والبوح. قمة التعاسة ومضغ اللذة التي تُستعاد الآن. وائل الأسدي موشى بكبريائه وطقوسه، وما يزال يدندن عن امرأة كانت عذراء، بينما أتقوس داخل نفسي كسلحفاة مائية دُوهمت بعيداً عن النهر.

وعاودَتْهُ حالتُهُ من جديد. شرب مزيداً من الخمر وتناول لفافة أخرى، ثم حكى عن اغتصابه هدى ثم ناديا بعد أن ثَمِلتا وتناولتا دخاناً أمريكياً خاصاً. وما بان في وجهه إحساس من ارتكب شراً، سوى أنه مجَّ لفافة الحشيش بعصبية ونفثها في الفراغ: هذا كهف إبليس. أعرف أنني شيطان من نوع قد لا تقبله. ماذا يهمّ ذلك. لقد أردت لك أن تعرف الجانب المظلم من حياتي وبعد ذلك ترفضني أو تقبلني فهذا لن يؤثر على مجرى العالم في رأسي. باقتضاب حاولت أن أشرح له أن هذا ليس جديداً علي، وان الأمر قد يقربني منه أكثر. فلا يكفي أن نتلمس سطوح الأشياء فقط.

وحدثني عن الرغبة في البشر، وأن الإنسان قد يولد بطريقة خاطئة أو مصيبة. المهم أنه يسقط من ذلك الشق القذر ثم ينمو. وفي سن معينة ينسى ولادته. تبدو الحياة مبهجة وفي الإنسان تتوالد اندفاعات. الجسد القوي مشحون بطاقة تريد أن تخرج، ثم الأحلام. المدرسة والبيت يقولان بطريقة أو بأخرى: كان أجدادك عظاماً فتحوا العالم، وتشمخ. كل شيْ مبني في الماضي كما ينبغي وعلى أحسن ما يرام، والحاضر استمرار للماضي، والنسل القوي يلد نسلاً قوياً عظيماً. الأجداد زلزلوا أسوار الرومان والفرس، وأنتم خير أمة أخرجت للناس، وقد فضّل نبيكم على جميع الأنبياء وكان خاتمهم. إنك ترى جيداً أن الأشياء جاهزة تماماً، كاملة تماماً، نقية كالفضاء الصحو.

– نخب الصحو. رفَعْنا كأسَينا: نخب العكر. كالطيف العابر

مرّالصمت. رفّ في فراغ الغرفة كشاهد. كنت أراه الآن بطريقة جديدة، من زاوية كانت مظلمة فيما مضى. كان وجهه الأصفر المهتاج يعطيني إحساساً بالنقاوة الصاعدة من قاع شره الخاص. شره المسوَّغ، ربما.

– بعد المرحلة الرومانسية، بعد أن نكون قد دخلنا في راحة الأشياء وطمأنينتها: حب. لا مبالاة. فتيات. حرية. خمر. ملذات ساحرة. العالم هادئ ومعشوق حتى الهوس. ما الذي يحدث فجأة؟

وعبر الصمت المنبئ لم يكن يسمع إلا نفثاته الأفيونية.

– كنت حالماً في عالم مسحور. في عالم كاذب. كل ما قيل وما أحسست كان فِرية كبرى. والعالم مختلّ منخور من الجذر. حتى الولادة كانت خديعة لذة عابرة بين رجل وامرأة. نحن ملوثون بطريقة شيطانية. ناقصون ومشوهون وكل ما تبقى من العمر سيكون تكفيراً ورأباً للصدوع التي لا دخل لنا بها. والله ذلك السادي. يتفرج ويقهقه لجراحنا التي نحاول عبثاً تضميدها. إشرب. إشرب. إشرب. العالم لا يحتمل مزيداً من الأحزان. المهم اغتصاب الفرح من غابة الحزن ولو كرِهَ الله.

كان النهر مستمراً في هديره، والسماء مرصعة بنجوم بعيدة، وبين لحظة وأخرى تعبر سيارة فيسمع دويُّها ثم يتلاشى على الطريق الطويل الملتوي.

وبقدر ما كان منتشياً، موغلاً نحو رحم الأشياء، كان موجعاً وتعباً. بدا هذا في عينيه وحركة اليدين. بهدوء استلقى فوق السرير وراح يحرك أصابعه ببطء على سطح الفراش، وعيناه الزائغتان تحاولان عبثاً مطاردة أحاسيسه على جسد السقف. لست أذكر إن كان صاحياً تماماً أم في حالة نصف الصحو عندما همس وهو يتنهد بعمق: آه.. لشد ما أنا شقي.

ثم دخل عالم النوم بارتياح تام.

- ١٠ -

هذا الجدار كتيم لا ينفذ منه الحب. يكفي نفسه بنفسه. والعابرون ظلال غيم تنسحب فوق هذه الأرض، ادراكها يعبر حالة من الغفالة. حالة رجراجة ترتعش بالمستقبل. يبغون خدش جدار التاريخ والتاريخ مظلم وعكر، وهذا الجدار كون خاص أقامته مسافات زمنية عمرها آلاف سنوات النهب والاستلاب والانتهاك والدم الملوث، فولّدت داخله طغياناً من الثأر اللاشعوري الصامت.

منى.

ومن جميع الفرسان الذين عبروا تخومها، حلمت بفارس خاص ينسى نفسه قليلاً لينتشلها، وبعدها تكون له لحماً ونفساً. وعلى جميع الدروب شاهدت كيف تهوي العبقريات العظيمة في برك الجنس والتوحد الاقليمي.

ولكثرة ما حاول الطامعون اجتياحها، فقدت حسّ الاصطفاء بين الفارس والعبد، بين الشاعر والأمي، بين الثوري والمغامر. ومع الزمن لُوحِظ أن جميع الأطباء وعلماء النفس عاجزون عن شفائها.

وفي حالات من التأمل الخاص كان يخيل إلي أنّ مُنى تشبه نقطة ثابتة في الفراغ، متحركة في قاع نفسها، تنوس بين العبقرية والعادية، راغبة في قبض العالم وتبديده ثم تكوينه من جديد.

[]

«أشياء كثيرة يمكن البدء بها. فمثلاً أنا أقرأ كثيراً في هذه الأيام وأكتب قليلاً وأفكر بطريقة حدسية. بالتحليل والمراقبة يمكن فهم أشياء كثيرة أو على الأقل الاطمئنان إلى قناعات احتمالية. إنني أقول لنفسي: أنت تتعلم بطريقة حي بن يقظان.

راني. هل قرأت حي بن يقظان؟ أنا أرى أنه نموذج في الوصول إلى المعرفة. والعرب يمكنهم في هذا الزمن أن يصلوا وجودهم بالعصر بطريقة مماثلة. بالطبع أنا لا أعني اكتشاف الله والتصوف الغيبي السخيف، وإنما اكتشاف نفوسهم في هذا الزمن المحتاج بطريقة عملية. في غيابك وغياب منى أتسلى بمحاولة بحث نفسي وتاريخي عن اثر العربي في الزمن. هل ينقرض أم ينبثق من جديد وكيف؟ يخيل إلي بأن ما ينقصه أن يكون صريحاً في مواجهة نفسه بقسوة كقسوة سيفه الحاقد على أخيه. السيف المبضع الذي يخترق الدمامل فيفجرها. هذه اول عملية تطهير. أنا أعرف أن هناك احديداباً تاريخياً كونته عصور الاستلاب والخوف والكذب والخيانة والعلاقات المنحرفة والطغيان والغزو والقمع، ثم هذه الفردية المتوحشة. لقد أودى هذا التشويه المتراكم بفلسطين واسكندرون، وإذا ما استمر فستتحول إلى بقايا من الهنود الحمر.

أفكر كثيراً وبمرارة بجيلنا. الجيل الذي قَدِمَ العالم قبل أوان النضج. الجيل الزائغ.

دعني أوضح لك، راجياً أن تفهمني جيداً بلا إدانة: لقد أردت منى وأردت نفسي التي لم تكتمل. نفسي التي ورثت من العصور القديمة نقصَها الوجودي والتاريخي، فزجَّ بي في تيار التاريخ الذي يحاول أن يتمخض عن ولادة شيْ جديد، وأنا نبتة طالعة في أرض هذا الوطن تحتاج ماء وسماداً وشمساً لتنمو وتقوى وتقاوم. إنني أعتقد أن مشاريع ثورات العرب كوكتيل عجيب من الدين والقومية والماركسية المبسَّطة، والجيل الجديد تائه يمارس أقل من ربع حياته بطريقة طبيعية، وما تبقى يتبدد في السفسطة والاحتجاج السلبي والخمر والنساء والشذوذ، بعيداً عن الماء والشمس والنمو الصحي. دعني أسألك كم من الزمن مضى حتى استطاع خالد أن يكون قائداً لا ينهزم؟ قبله كان عصر عنترة وعروة وثعلبة الشيباني. وفي زمنه كان حمزة وعمر وعلي، أما نحن فمن سلالة المستعصم والمتوكل وبني بويه والمماليك والسلطان سليم والملك عبدالله وفاروق وسعود ونوري السعيد وبورقيبة والسراج والكزبري.

إنني أحاول أن أفهم لماذا رفضت مُنى أن يكون لها نسل وأن يتمتع البشر بنسلها النيّ، وإذا اشتبه الأمر عليها يوماً فولدت ميسالينا، راحت تدعوها لتعود إليها، لا لتضمها بذراعيها وتحيا معها، إنما لتعيدها إلى رحمها، إلى وطن الطهر المريمي. أعتقد أنها تؤمن بأن أوان ظهور الإنسان هنا لم يكن قد آن، وأن حالة

الانبثاق المباغتة قبل النضج، كانت لوثة معاصرة مجنونة ومغامرة. إهانة موجهة لها وللأجيال الثورية التي ستأتي فيما بعد. ولعل هذا يفسر رفضها لنا جميعاً. انني أسأل لماذا الزمن الحاضر قائم خارج العربي، بينما يقيم هو في الماضي؟ ولماذا كل الإرث القديم التالف يتجلى الآن، ومن خلال هذه الموروثات يعمر كل فرد مملكته الخاصة؟

إنك تدري كم نعاني لنظهر بمظهر الأسوياء. أتعلم ماذا قال لي سامر البدوي عندما سألته لماذا تدمر نفسك هكذا؟

قال: هناك طريقان لا بد لجيلنا من سلوك أحدهما احتجاجاً على هذا العصر المتاث: الثمل والنساء حتى العمى، أو الانتحار. لم أعقب رغم إدراكي الأكيد للطريق التي تمتد بينهما. الطريق التي حايد عنها سامر وسائر الأصدقاء المطمئنون، بعد أن سحرتهم مدة الإقامة في مدينة منى، فطابوا نفساً وقرّوا عيناً بالسلطة والويسكي والضوضاء ومنازل الحُور العين. إنني أكتب إليك بعد زمن طويل من الانقطاع، أنت الذي تحيا على شواطئ بيروت وفي أروقة وباحات الجامعة الأميركية.

تمر لماماً على «العمّ سام» و«الهورس شو» فتلتقي بقوافل المثقفين وتثرثرون عن أحوال مدينتنا الثائرة، في حين ما أزال أزرع شوارع دمشق ليلاً، ماراً بكل الدروب التي خطونا فوقها، صاحياً حيناً، ثملاً أحياناً، وحزيناً في حالتي الثمل والصحو. إنني أتساءل: كيف يُمكن أن يحمل الإنسان كل هموم هذا العالم المضطرب داخل نفسه ولا يُجن؟!

ألا يدعو هذا إلى الدهشة وعقد اللسان؟ لا شك أن هناك طبقة ثالثة تحت اللاشعور لما تُكتشف بعد، وفي هذه الطبقة ربما تسكن حقيقة هؤلاء العرب بجحيم آلامهم ونفوسهم التعيسة التي دُمِّرت وتناثرت شظايا. أشعر الآن بالارتعاد وأنا أطل على تلك الساحة القصيّة. لكن ما ينبغي الإصرار عليه هو المزيد من محاولات اكتشاف الزوايا الميتة - الحية في الإنسان. هل تعتقد أن هذا تبرير خائف حتى لا أقدم على عمل حاسم؟

رحلت يوماً مع منى إلى البحر في حلم يقظة. كان هناك ناس بدت أنها مرتبطة بهم هي التي تعرف أنها لم تنتم يوماً إلاّ لنفسها. لم نصل إلى قرار حول الزواج او الهرب. عرضت عليها الهجرة إلى الجبال والغابات لنبدأ من جديد. هزئت مني قائلة: أنت مغامر رومانسي. فاكتفيت بالصمت والسباحة وتأمل جسدها

اللألاء تحت الشمس، ثم تظاهرت أمام الآخرين أنني سوي وعاقل، وفيما بعد اعتذرت عن خطئي واندفاعي الأهوج.

حنيني الدائم إلى الريف والجبال يزداد ويقوى، بعد أن كشفت لزوجة الأشياء وحمامات الدفء اليومية هنا، والأكاذيب. دمشق مدينة ممسوسة والأصدقاء ينزلقون يوماً إثر يوم. تتلاشى من نفوسهم حيثيات الجرأة، والمستقبل يلوح عاتماً وغامضاً، ويبدو أن الإبحار قد توقف إلى ما بعد هذه الجزيرة المريحة، المفروشة بالبروكار والموسلين وطنافس الملك.

تعرفت على وائل الأسدي: ضابط قوي البنية شوّه أبوه في حرب ال٤٨ بعد أن هاجروا من اسكندرون. يملك سيارة فارهة يصطاد بها النساء بسهولة. إنه حالة خاصة: مزيج من الجنون السادي والعبقرية والتدرّن الفردي. إنسان عصابي. منى تقول الشعر أو قُلْ إنها تتعلمه. لغتها الشعرية فجّة. غير أنها عبر كلمات لا شعورية متناثرة، تحاول أن تعبر عن الخلل الكوني فيها وفي الإنسان منذ حدث السقوط. في كلماتها الفطرية نزوع مستمر نحو الأعلى. إن مفرداتها تتحدث عن النجوم والغيم والشمس بوجدانية متطهرة، وفي تعابيرها تستعمل البحار الزرق والجزر المهجورة والغابات والجحيم والمطهر المسيحي. يخيل إلي انها دون أن تدري، تحاول أن ترثي من خلال نفسها الجنس البشري الذي هوى من قبة اخلاقيته فوق أرض معفرة بالغبار والدم والإثم. إنها تبدو لي عالمين قائمين على أرض واحدة: حياة خاصة ملوثة، منهوبة، منحطة. ثم حياة تتجلى في شعر تطهيري معاكس للتلوث يحاول الإنباء عن أعماقها النقية، ومن ذلك الداخل تنتحب على نفسها وعلى البشر الذين أصابهم ذل بلا حدود.

لم يعد لديها ثقة بالناس الذين مرّوا في حياتها فأحدثوا لها جراحاً لا تندمل. انتهت الثرثرة عن منى، غير أن ما لم ينته بعد، ذلك الخيط الذي يكرّ باتجاه كشوفات جديدة. أعتقد أنه سينقطع عما قريب عندما يداهمني الملل يوماً والشعور بلا جدوى كل ما وصلت إليه. ولكن هل وصلت إلى شيْ. هل اقتربت من النسوغ؟

«سلاماً أيها العزيز الذي يعيش خارج عالمنا المتّهم. اكتب متى أردت».

أحسست بتعب نفسي مُضْنٍ بعد أن أنهيت الرسالة فتمددت على الفراش، لم تكن لدي القدرة على التفكير بشيْ، حتى منى عبر اسمها في ذهني ثم انطفأ

بسرعة. وأنا مستلق على سطح النوم تذكرت أنها كانت قريبة مني منذ لحظات وفجأة استدركت أنني لا أعرف أين هي الآن!

– ١١ –

هذه أزمنة الغربة؟ ربما. أزمنة الجنون؟ ربما. لكنها أزمنة الذكرى قطعاً. ليل. موسيقى من الصمت والوحشة. نساء عرايا في برار موحشة. للأرض طعم خاص ولجسد المرأة فوق التراب الحار رائحة الوطن، ولرائحة جسد المرأة رائحة التراب.

في ظلمة الليل تنثني فوق الجسد الأخضر، على الأرض الخضراء فتحس مجد العالم، وأنك والإله في مرتبة واحدة. هنا في هذه الأقاصي بعيداً عن الناس، يحملك الحلم. وحيداً ولا من يراك. وأنت ترى نفسك، هذه التواقة للتمدد في بحر مطلقها الشخصي، والجسد جامح يودّ أن يتفتح بازدهار لا حدود له في غابات الجسد العظيم. وقربك جسد مسبي يلوب عن حب. جسد مهجور منذ عصور أجدادك الدينيين، والإثم ليس أكثر من خرافة نسبية عنكبَ الزمن عليها داخل كهف هُجر هو الآخر منذ أعوام ما عدت تذكرها. منى تقول: إذا لم يتحرر الجسد فالروح سجينة حتى آخر الدهر.

مزيداً من الحزن. مزيداً من الحرام. مزيداً من لهفة البحث.

وتسأل نفسك لماذا يتم الجنس هنا كما يتم القتل في الغرف السرية؟ ولماذا المرأة الدمشقية تطلب أكثر من عشيق، تباهي بهم في محافلها الخاصة ثم تقول: هذا الذي انقرض كان عشيقي؟!.

هوذا العشيق الجديد يأتي. راع محروق بالشمس والتعب. مولود من شهوة رجل ثمل كان يصلي الأوقات الخمسة وصلاة التراويح أيضاً.

«سميته الشبل وأنا أبوه. درتُ أزقة القرية وأنا أنادي: يا قوم هوذا الخارج من ضلعي ينمو ويتألم. يصير رجلاً بعد شقاء مرير. يخرج علي ويلعنني في آخر الزمن لأنني أصير في عينيه عتيقاً بالياً. يهجر باديته ووحل أزقته، ويتقدم نحو

مدنكم. يحكمكم أعواماً فتلدون من نسله. يطهركم فيكون لذريته دويّ في طول الأرض وعرضها. ذرية مباركة، في دمها الخمر والنساء والمكابرة والقتل وهجير الصحارى. ومن أجل أن يكون ذلك حقيقياً هأنذا أفصد دمه فوق هذه الصخور. أمرّر لحمه على الشوك والرمال الحارة كي يكون صلباً قوياً لا يهاب».

وفي البيت كنا وحيدين. وكان هناك الفراغ والتوجس. وسوسني إحساس أنها خائفة مني. بدأ ذلك في ارتعاشة يدها على مقبض المكواة وفي ذعر عينيها الوعليتين الوجِفتين. ورغم إحساسي الشفاف نحوها، حاولت أن أوازن بين مشاعري وهذا الوجف المهتز.

كانت تتحرك في غرفة ضيقة، وثوبها الداخلي يحفّ بي أثناء غدوها. وفي تلك الليلة تبدى جسدها تحت قميص النوم في قمة إهماله، لكنه كان شهياً كما ينبغي تحت رغبتي. وأنا أتملاها سفّني الحزن. مرّت ريح الخيانة فوق سهوب نفسي محملة بالأذى والندم المتوقّع وقلت: هذه السمكة العالقة في شصّ. وما كان مثلها بين النساء في ستر أحزانها. وإذ بحْتُ لها بذلك ابتسمت بمرارة من تخاف الاغتصاب بعد لحظات: الحزن يرسو في الأعماق. لا يُباح به.

وحدثتها عن الشرق المبحر نحو هويته الضائعة، وكيف يعيش الناس أعمارهم في النسيان واللاشعور خارج الزمن الحقيقي المخصص للجسد والنفس، وانهم لا يدركون كثيراً المعنى الكبير لوجودهم، ومن كثرة ما انهمر الدهر التحريمي عليهم ناموا تحت وطأة الزمن والمصالحة. وإذ يسأل أحدهم: لماذا أنت هكذا ولست نفسك؟ يجيب: جميع الناس هكذا!!

[]

ديانا عالم سكوني باهت. بحيرة منسية في غابات عذراء. اعتادت الصباح والطعام والتبرج والأماسي الباردة. وبفعل الطنين اليومي هدأت فنسيت من تكون. في الأيام الأولى من تعارفنا بدا كل شيْ عادياً بارداً خلا جسدها الجميل الذي يشبه حجراً من رخام يلمع تحت البصر النافذ. فما بعد أذكر أن سامر البدوي حدثني عنها يوماً بطريقة مؤذية، اشتهاها كنموذج لجسد شرقي غريب عن دمشق.

يومها قال عن جسمها: أنه إلهي في تكوينه. وقلت مغيظاً: أيشتهي الإنسان صفيحة من البرونز؟

- هذه امرأة حقيقية أيها الخنزير. أنت فاقد لحاسة الشمّ الحارة. وفي مرات كثيرة حاولت أن أبوح لديانا. أن أقول لها ماذا تعني بالنسبة لي بطريقة صحية بعيدة عن الخيانة، لكن مسرور كان ينتصب بيننا كجدار مهدم عاجز عن تحمل أية صدمة جديدة.

ورغم ما كان يبدو في سلوكها وكلماتها من انطلاق، كنت أتصور أنها موثقة ومحصنة، لا بالشرف الأصيل النابع من أعماقها، إنما بالخوف التاريخي الذي ورثته من المعاشرة والاستهلاك الاخلاقي الساتر للخيانة الداخلية.

كان بودي أن أحدثها يوماً عن الامتلاك النفسي، هذا الذي يتم أحياناً بين امرأة ورجل لا يتواصلان فيكون الآخر هو البديل في لحظة المواقعة الحسية، أو يحدث من خلال نظرات حادة في المسافة الواقعة بين البصر والبصر، أو بالتصورات عندما يذكر اسم الرجل المُشتهى في الداخل وتحضر صورته في الذهن. كان يخيل إلي أن تلك المصارحة مهمة جداً في عملية الشفاء التي نحتاجها جميعاً، لكن ما كان يخيفني لدرجة الازدراء، اعتقادها بأن ذلك ليس أكثر من تمهيد لامتلاكها حسياً.

ولما طلبت مني البقاء في البيت، خمّنت أن خوفها بدأ يتبدد. أحسست بالحرج وانني ربما كنت مخطئاً.

وتساءلت: أيكون مسرور قد خُدع للمرة الثانية؟

كانت عيناها تشعان ببريق خاص، وهي ما تزال تكوي الثياب تحت ضوء ساطع، وأنا أتكئ على الخوان أدخن وأراقبها. لا أدري كيف تخيلتها فوق سرير مريح، أو في برية موحشة تحت المطر والصمت واصداء الفراغ البدائي. وكيف تسللت نحو خوفها الممتزج بالرجاء ثم نحو عالمها الملفع بالليالي الباردة. كانت هناك على مسافة أمتار من الفرح، محرومة ككل نساء الشرق تشبه آنية من خزف فوق رف منسي.

وبقيت. شربت كأساً ثالثة. طلبت موسيقى. وكانت تروح وتجيء. زنداها عاريان حتى الإبط، وتحت ابطيها شعر خفيف. تمثلها ذهني خائفة، متشهية، مسكونة بفرح مجهول. من تحت إبطها تفوح رائحة خاصة توحي بالعري واللذة. الموسيقى تصدح. هي الأخرى لها رائحة. ساقاها المرمريتان تشعان تحت الضوء. تحت القمر والريح. تنفرج شفتاها فتوشك السفلى على الهطول. أسنانها في لون

الثلج. قميص زهري شفاف تحته جسد مني خلقه الله ليكون تاج الرجل وزاده في ساعات الضيق. هوذا وحيد متروك للريح والغفوة. لم يستيقظ بعد لأن الرجل الذي يفتح كل مسامّه لم يأت بعد. ولأن الرجل الذي يجيءْ عليه أن يفتح النفس قبلَ الجسد.

«وها هوذا الرجل الذي يهب الاطمئنان، ممدد هناك، يشرب ويدخن ويحس بي. وأنا هنا في العالم الذي حلمت به منذ الطفولة وهذا الرجل على بعد متر واحد. ما عاد غريباً كما كان يوم دخل البيت، وما عاد وجهه الممتقع يوحي بالخراب. يا إلهي كيف تتبدل الأشياء بمثل هذه السرعة. الأشياء أم النفس؟ هل الزمن في الخارج أم فينا. أهو مطلق أم نسبي؟

وهو هناك بعينيه الوحشيتين ولا مبالاته.

قال يوما: المرأة وطن الرجل. لكن كيف تتعرى امرأة لرجل غريب؟ هل قلت: غريب؟

ولكنني لا أرغب الرجال. المداعبة فقط. وفي تاريخ الشرق لم يحدث أن تقدمت امرأة من رجل تحبه وقبلته في البدء. لكنه هنا أكاد ألامسه. أشعر بنظراته تعريني. ساقاه ملفوفتان وصدره مفتوح وشفتاه محروقتان بلفح شمسي. إن صدره يعلو ويهبط. ينهض. يتقدم مني ويمد ذراعيه. كياني كله يهتز وجسده يلامس جسدي. نرقص. يتحرك بي بحنان. مسحورة، محمولة على جناح غيمة وأنا مفعمة برائحته. يضمني ثم يلقي رأسه على كتفي. أغيب في عالم مسحور. في عالم طفولي يزدهر بالحنان والعذوبة والألوان. أغمض عيني حتى لا أفيق من حلمي. بهدوء يسحبني نحو الممر. أشعر بذراعيه تضغطان جسدي. أنامله تسري على ذراعي. آه. غبطة. شمس تشرق علي. أنفاسه تلفح وجهي لتغفو فوق شفتي. أية حرارة تشيل في شتاء جسدي. فجأةً ندخل في الظلمة. أنامله تهوي إلى الأسفل. يهمس: خصص الله للخلق ستة أيام واليوم السابع خصصه من أجل ساقيك. أسمع أنين السرير فأفتح عيني. غرفتنا. لا ..وأندفع من الحجرة».

- ١٢ -

من البيت إلى الوظيفة ثم العكس. استيقاظ وقهوة وثرثرات. حركات عشوائية وظلال باهتة من الضجر. حياة العربي تشبه الحياة لكنها تسير بقوانين العطالة. يحلم ويعيش في المطلق. يتخيل أنه يُنجز، لكن الزمن يعبر قربه ويمضي. يقتله دون أن يشعر ويمضي. تماماً كما تعبر منى في رحم دمشق وتظل دمشق عاقراً. ومع الزمن تُخصى الأحاسيس. ترتخي حيوات الناس في هذا السجن الزمني الغارق في حلكة العصور. أردت الخروج من جلود البشر، من جلد الأيام الضجرة ومن العجز بعد أن فقدت منى، فاصطدمت بأمينة. وبكل ما ادخر هذا العربي المنهك من ضغط تواريخه وتوقه للتفريغ، حاولتُ أن أتوازن معها، غير أن الصدع توضح أخيراً وبدت لي كلمة تطهير كإعادة بزء للإنسان المشروخ منذ آلاف السنوات، لغزاً في ضمير اللغة، ربما يحتاج آلاف السنوات أيضاً حتى يُفهمَ معناه. ولو قلت لأمينة أنني أشفى على تخوم جسدك لأنطلق بعد ذلك إلى الصحّة والحركة التي توقفت منذ التتار والأتراك والمماليك، لكانت اللغة التي أتحدثها هيروغليفية جديدة.

أواه. كم أحس بحاجة إلى لغة.

لهذا ظللنا مصدعين: هي تسرد تاريخها الشخصي المُصاب، وأنا أرعى جسدها بجوع حيوان لم يشبع منذ وُلد.

كانت تشعر أبداً أنها تخون، في حين أحس بشيْ من الحرية وأنا أرتع في سهول جسمها النامي.

وعندما كانت تسألني: متى نمارس ذلك بحرية وحلال دونما خوف؟ اجيبها: مانفعله طبيعي. وما هو مهمّ فرح اللحظة.

تتأوه وهي تعانقني كأم عاشقة: لماذا لم ألتق بك في صباي؟ آه. كم انا تعيسة. قدري هكذا!

– عدنا الى القدر!

– الا تؤمن بشيء اسمه القدر؟

– أؤمن بشيء اسمه أنت.

– وهل انا القدر؟

– أجل. اسمعي هذه الحكاية: يوم وزع الله حصص الأرض على الناس كنتُ غائباً. ولما عدتُ توسلت اليه ان يعطيني شيئا أعوّض به عن غربتي. سألني أين كنت يوم التوزيع؟ فقلت كنت مسافراً. وسألني ان كنت قد صليت وذكرته خلال سفري فقلت: كادت عيوني تعمى من السهر وركبتاي تمّحيان من كثرة ما سجدت.

ارتاح وقال: ايها الغريب لقد ذكرتني وانا لم انسك ايضا. فالله لا ينسى عباده الصالحين. هي ذي امرأة جميلة وحزينة كانت مذنبة فعاقبتها برجل شرير. اني امنحها لك فانعم معها ولتنعم معك. عيشا بمسرة ولا تسبب لها حزناً. هي من خاصتي ولا أريد لها غمّاً.

– انتهت الحكاية؟

– انتهت.

اشرق وجهها بفرح تهلل له جسدها.

طوقتني عندما دخلت الطمأنينة قلبها، فانجابت غمتها. سألتني: ما نعمله اذن بارادة الله؟

قلت: أجل انه مقدر علينا منذ بدء الخليقة وليس شرا يا عزيزتي أمينة.

فاجأتني: يوه. كم انت خبيث وملعون.

□

حدود التوق البشري هل لها نهاية؟ والمدينة التي سحرت الجميع في غفلة من الزمن من خلقها وكيف؟

الليل. الضمير المستتر لدمشق، ثم هذا الموت البطيء داخل حياة التبست حتى على الذين يملكون ذاكرة كالبرق. أية روائح تدخل مسام الجلد والنفس فتستوطن هناك. تصير ماضيا حينا. وحينا آخر تنبثق كالرعد.

ولما طُويتْ منى في ملفات الأرشيف التاريخي ظهرت هذه المخلوقات الغريبة كبثور فوق سطح الجلد.

– جميع النساء اللواتي عرفت كنّ مشوهات.

دُهشت. فتحت فاها مستنكرة: انا مشوهة؟!

– على ما يبدو.

بعد ان توقفت يدها عن الكي ، عادت الى فرد الثياب ولمِّها. فجأة خطر لي ازعاجها باختبار سطحي : هل تدركين ان شفتيك شهيتان ؟

– صحيح ؟
– وان عينيك تلمعان كعيني قطة برية ؟
– في صغري كانوا يسمونني القطة.
– وان جسدك متناسق ؟
– تمنيت يوما ان ادخل مسابقة لملكات الجمال.
– ولكنك معطوبة من الداخل !

فاجأتها الجملة كمن طُعِنَ في غفلة ، فاهتزت يدها القابضة على المكواة ، ثم ضغطت بعنف على ياقة قميص مسرور، ولم تجب.

ويقول ايوب السرحان وهو يحتسي خمرته : لم يبق لي صديق يا أخي. الأصدقاء الذين جئت بهم الى بيتي نهشوني بعد ان شربوا خمري وأكلوا طعامي. سألت امينة يوما : هل تحبينني ؟ فقالت أحب ابنتي وانا اريد مالي الذي هدرته على الخمر. عشرون سنة وانا اجهد من اجلها. بعت رزقي وبيوتي وحفرت الأرض كفلاح لكي تظل امرأة في مستوى لائق بنا. من ورائي جنت آلاف الليرات وخبأتها عني. وذات مرة احتجت بعض المال فطلبت منها فمنعته وهكذا وقعت في الديون والخمر. المرأة ابليس اياك ان تأمنها. في البدء تظهر لك ، ولما تحصل عليها تصير افعى. تمتصك يوما اثر يوم ثم ترميك كالنفاية. هؤلاء نساء بلدنا.

وراح يكحّ على نحو يوحي بالاحتضار، بينما آنية القهوة ترتعش تحت تأثير سعاله المتواصل. واصل مواعظه عن المرأة التي يدللها الرجل فتمتطيه. وقال بأن الرجل الحقيقي من يشعر بانه سيد والمرأة عبد. المرأة هنا لا تحب الا نفسها وثيابها واثاثها ومن خلال هذه الأشياء ترى الرجل : المرأة شر اقول لك الصدق. إيّاك أن تصدق ان آدم خلقها من ضلعه. حاشا. لقد خرجت اليه من وكر في جذع شجرة بزيّ ملاك ولما امتلكته عادت الى طبيعتها الأصلية.

وهجست النفس : لكنك تنسى ذلك وهي تمنحك اللذة وانت تتلوى فوق سفوح جسمها الأملس. بغتة تذكرت أي جسد آخر يتلوى فوقه أيوب البائس ،

فقلت : المرأة مخلوق ناقص ومغبون تحتاج حنانا ورعاية. فقال ايوب : انت لم تجرب بعد. عندما تتزوج ستتذكر كلماتي.

بحرقة يحكي ايوب السرحان. لقد هدمته امرأة. لكنه يحكي كذلك الذي هوى في قبره والذي كان يقول : واذا القلوب تنافرت عن بعضها كالزجاج كسره لا يُجبر. احفظْ ذلك.

وأقول : لماذا تريد ان تورثني فلسفتك وخيباتك ؟ الا يكفيك أنك متّ ؟ لماذا تأتيني ابداً في هذه الكوابيس محمولاً مضمّداً وفي عينيك تهمة ؟

دائماً كان يتحدّث بالتباع عن امي وعن الحروب القادمة. حروب العرب واليهود : منذ دخل الاسلام جزيرة العرب وهم يكيدون له. كان الرسول على حق يوم حاصر بني قريظة وذبحهم. كان علي سيف الاسلام في خيبر. وذات مساء في تلك الخيمة القائمة بين المروج قرب البحر قال : امك ملعونة لا تختلف عن هند التي لاكت كبد حمزة بن عبد المطلب.

– لكن محمداً تزوج من يهودية. كثير منهم دخل الاسلام وأعملوا السيف في اعدائه. لقد انتهت حروب الأديان وابتدأت حروب أخرى.

«أبي أيها الذي متّ، انت اعمى في القرن العشرين».

لا يريد ان يصمت ايوب المتهدم. كل الجدران سقطت من حوله وها هو يترنح في الريح ، متكئا على غلاف خَلِقٍ ينسجه من ماضيه. بقرة عجوز تجتر ما مضغته في غروب شمس.

متى يفهم ايوب السرحان ان هذا الزمن الذي ينعطف بجنونه المبرق ، قد اختطف روحه وانه ليس بالحي ؟

- ١٣ -

كمنى ابحث عن حب. عن مغامرة لم تخطر ببال بشري. عن امرأة تحب حتى الموت وتكره متى تشاء. تسمع صوت الزمن فتجيء. وتحس توقفه، فتدبر. تسير عارية القدمين، هاربة من مدائن المستنقعات والكذب والأثواب المزركشة. معا نحو البراري. ننام على تخوم المدينة، في الخرائب المهجورة، وتحت شمس الضحى. نبني بيتاً من الحطب القاسي وننام عرايا فوق التراب الحار، نتعانق لدرجة الحلول، واذ تضجر مني تهجرني وبعد حين تعود. تثوي في دمي. ننشد اشعاراً واغنيات مع الفلاحين الفقراء والعمّال والصيادين. نبكي ونضحك. نفعل الجنس في الحدائق وعلى شواطىء البحار. في كل مكان نرسو فيه نلد نسلاً قوياً كالصخور ساطعاً كالشمس، يصلي للعمل والحرية والشعر، ولا ينسى. واذ نموت بعد ذلك، نموت بلا ندم.

سامر البدوي الوحيد الذي عرف سر الزمن واكتشف الكذب والأخيلة.

قال للطيوف المهوِّمة في سماء العرب: الى الجحيم!

ووحده أدرك سر المدينة المسحورة، المُصابة، فغرق في ضلوعها وفي شرايينها حتى وصل النسغ. لقد اختار الوجد الحسي حتى التلف. عنه لو سألت أي انسان: اين ألقاه؟ لأجابك: في الخمارة او في بيت امرأة.

وفجأة تكتشف انه متزوج منذ اكثر من خمسة عشر عاما. زوجته امرأة دميمة من فرط حبّه لها سماها: الخفّاش. غير أن ذلك لم يكن يبدل من المأساة شيئا. ففي اخريات الليل فقط، كان يعود لينام في فندق زوجته بعد ان يعيا من الدوار.

عالمه فلك يدور. يسلمه زمن الى زمن، ومكان الى مكان، بحثاً عن أصله المفقود عبر سراديب التاريخ، وكل زمن، كل مكان يرتمي فيه يعتقد انه هو الزمان والمكان المطلوب. انه يرتاح هنا، والولد الضال تائه داخل نفسه، داخل حسه

المتوثب. خائف من السكينة لأن السكينة تعني الموت. بعين ذئب ينام وبالأخرى يرصد وحش الموت الكهين.

- انا مبتل بجسدي.
- بجسدك أم بتاريخك؟
- ماعلاقة التاريخ بالموضوع؟.
- اعني الارث الناقص.

تحت شجرة صنوبر في حديقة المزرعة، نرتمي. في السماء الربيعية قمر دمشقي مضيء يشبه وجه مني. يتحرك مُثاراً فيزفر: كنت جميلا في صغري. قالت لي امرأة يوما وعمري لا يتجاوز الرابعة عشرة: ابن الحرام ما أجملك. حتى أختك تشتهيك. آه لو انجبت منك ولداً. بعد عامين لقيتها في البادية وكنت أتلهى بمطاردة الحشرات. آه. يا الهي اية افراح وحشية شعرت بها آنذاك. استمر ذلك طويلا داخل كهف عاتم. انني اذكر كيف كانت تعض لحمي وهي تتلوى كأفعوان بين يدي. امرأة قاسية شهوانية لا تشبع. كان يدخن بحرارة تلك اللحظات. وهيأ له الصمت والهدوء الليلي الرطب حالة انسياب، فبدا وهو مستلق فوق العشب كأنما يتمدد فوق كرسي التحليل. يتحدث عن طفولته وابيه القاسي: كان اميراً ذا سطوة. لم يكن يحبني. سماني الخارج وكنت اشبهه. كان يضرب امي لانها تحبني وتحميني منه. مذ سمعت اول كلمة اعجاب اصابني زهو. يا أخي كلمة اطراء تسمعها من فم امرأة تضاهي ليتراً من الويسكي. كان عملاقا بين الرجال، له وجه مسكوب فيه ضوء القمر. لم يكن يملّ من النظر الى وجهه في المرآة. اغرب حادثة عنه انه كان يعشق التحديق في يديه. يمررهما امام عينيه ويتفرج على اصابعه لمدة طويلة. ياالهي اي معنى لهذا الحديث. لماذا اتحدث هكذا؟ الانسان حالة غريبة في هذا العالم. لغز. ويمر صمت. لحظة من التوجس والطبيعة ساكنة. لا ريح، لا حركة. ضوء القمر ناصع فوق الأعشاب، وفوق وجهه الأبيض، والندى يتألق تحت الأشعة. ويستمر: آه. هو العمر يمضي. الزمن هذا الحيوان المفترس. انظر الى نفسي وانا على مشارف الأربعين فأكاد أصعق. تنتابني حالة جنون داخلي. ماذا صنعت خلال تلك السنوات المديدة؟ هل يمكن ان اكون انا قبل عشرين عاماً؟ لا بدّ أنّ الانسان حشرة لا قيمة لها.

ويبصق بقهر.

صمت آخر او هو الصمت يتناسخ. متكىء على جذع شجرة. عيناي

راسيتان فوق صفحة وجهه المغضن، راثياً لجسده المكوم فوق عشب الحديقة. الجسد الذي صعقه فأضاع صواب الثورة في نفسه.

– ضاعت فلسطين وها نحن نضيع. آه. العربي يسحقه القهر دون ان يستطيع فعل شيء مالنفسه.

أي ذبول هذا الذي يتمّ تحت الشمس. نساء. خمر. كلمات فارغة ودوار والعمر يتقوض. يهرم الجسد لكن الروح اقوى من الآلهة: عندما يضيق الجسد بالروح الفتية!

ويقوم سامقاً عريضاً كشجرة سنديان، ضجراً مني ومن نفسه ومن السكون الذي خانه.

نثب عن الحاجز الحديدي: انظر لقد وثبنا بخفة الفهود.

في الشارع الخالي يدندن ترنيمة بدوية مفعمة بالحنين والكآبة.

نهضت وفي نفسي رغبة تقبيلها. امسكت زندها العاري وهممت أمرغ شفتي عليه. رمقتني عيناها عتابا ممزوجاً بخوف، ثم سحبت يدها: لا ينبغي ان يحدث ذلك.

من باب الغرفة مرقت كسهم وفي فمي مرارة. أرتجتُ الباب ثم أسلمتُ ساقي للشوارع المعتمة.

مشيت. مشيت. دخنت وترنحت. ومن اقرب حانة تناولت خمراً. ثم مضيت فوق الخطوات القديمة.

– ١٤ –

جيل ملتهب. يتشوق قبض العالم. يسأل محاله الذي لا يُطال: لماذا ولدت هنا على هذه الأرض الناقصة في عصر يكبح رغائب الانسان الجامحة كالمهور في فجر فتوتها؟

وفي دمه يسري الزمن القديم جنباً الى جنب مع الزمن الذي يريد: زمن المستقبل. وفي الأجيال التي اختلطت عليها الانقلابات والثورات ولّدت محاولة التوازن حالة انكسار تاريخي لا يُجبر. ومن الفرد الى الجماعة يمتد خط من الاخلاص قرب خط من الكذب والخوف والمساومة والتنازلات المستمرة. بينهما سُحقت مني.

– لكن انسان هذه الأرض معرض للاندثار. اقول لراني.

ويقول: أريد ان احيا. هذا عصر النموذج.

– انت لا تؤمن بالفدية؟

– أي سؤال غبي هذا. انك تفكر كقائد سياسي احياناً.

– لماذا لا تقول كجريح ومغتصب.

– هذه مرحلة تاريخية نحن مهزومون فيها لا محالة. كل ما فيها ينبىء بذلك.

– هل توقن فعلا بالهزيمة؟

– أيقنت ام لم توقن فالتاريخ يقول هذا.

– انك تتحدث عن الحتمية وانت قلت انك ضد الحتمية التاريخية.

– انني اتحدث عن التكامل. عن الجيل الذي لم يبلغ بعد. الزمن الذي لم نصل فيه الى حالة النمو الصحي. على نحو فاجعي سنندثر وحياتنا هذه تحمل جرثوم الموت. ربما تكون تمهيداً للزمن الحقيقي، فأنا أؤمن بصراع الأجيال كما قلت لك، اما الآن فنحن في النزع، ولا ينقصنا الا طلقة الرحمة.

– والحالة الثورية؟

– هل الحالة الثورية أن نثبَ فوق الزمن ؟ هراء. هذه حماقة. مكابرة سخيفة. نحن جيل يعيش بماضيه ولم يصل جيل الحاضر والمستقبل بعد.

– متى تعتقد انه يصل ؟

– بعد ان تكتمل عصور الانحطاط وتندثر. هذا النقص في فهم الحرية والانسان. هذه الحياة القبلية الدينية ماذا تعني ؟ الانسان هنا لما يتطهر بعد من موروثه الطوطمي.

– لكن الثورة حالة جديدة تغير العالم. رجَّة تاريخية تزلزل سكونية الزمن.

– بالعنف. انظر ماذا يحدث. جيل استلم التغيير يغازل رجال الدين والتجار والبورجوازية. غارق في الانتهازية والسلطة والامتيازات والتقسيمات القبلية. هؤلاء من اين خرجوا ؟ أليسوا منا ؟ انهم يتعثرون لانهم جاؤوا قبل الوقت. في دمائهم قرون من النقص التاريخي والنفسي ولهذا فهم عاجزون عن تنفيذ مهام الثورة. انا وانت عاجزان ايضا. جيلنا جيل موسوم ومنحط. جيل خرع. هذا يقيني.

وهو يتحدث بألم أشعر بضغط. يكاد رأسي ينفجر. أحرك رأسي الموجوع واتمنى ان يصمت راني أكاد أقول : لا تقل ذلك.

– هذا مفزع وموئس. انه يعني النهاية.

يهزأ من كلماتي : هيا الى امينتك ياعزيزي. هيا. هناك تنام الثورة !

شعور قاتم يغلف الدنيا. احساس من رُميَ في برية وحيداً وغُودِرَ. يسمق الحصار فأوشك على الصراخ في محاولة للخروج من هذا التيه. من هذا السجن : اصحيح ان كون الانسان هنا معطوب الى هذه الدرجة ؟

وكمن ينحتُ باظافره صخراً من صوان، احاول ان امد جسراً مع منى. هذه التي لُسِعَتْ في ماضي وحاضر الزمن.

لكن محاولاتي كانت تبوء بفشل متواصل.

اقول لها : ليس جميع الناس سلسلة مكونة الحلقات بطريقة فيزيائية.

تقول : كلكم يشتهي ويقتل. يضاجع ويغتصب ويحقد. يطمع ويكذب ويريد نفسه.

اقول : حتى هذا يختلف من انسان لآخر.

تقول : جميعا. كلكم يشتهيني ويرغب النوم معي. تأكلون لحوم بعضكم بعضا ثم تقتلون باسمي كذباً.

اقول : ولكن. منى انا اريد ان اغني لكِ في الغابات والأودية حيث لا حقد ولا كذب ولا تلوث وحيث للموت معناه. حيث الأشياء تولد مجدية مبرأة.

تقول : سننحدر يوماً الى المدن ويعود الكذب والتلوث والاقتتال والخداع.

أسير في الشوارع. ادندن اغنية. ينتابني غم وانا ألمح كنّاس الشوارع والحارس الليلي وصبي المخبز: الناس البسطاء الذين يقومون باعمالهم، ثم ينامون سعداء، ولا شيء آخر.

في العطفة الثالثة من الشارع تكون غرفتي. افتح الباب واعبر الصالون. تفح رائحة الرطوبة والوحشة. في العتم أرتدي منامتي وعلى السرير استلقي كحيوان انهكه المسير. جميع ما مرّ، حتى الماضي البعيد يعبر سريعاً، مقتضباً، مشوشاً.

[]

لم يحببه احد. حتى اخوته كرهوه ونهبوا رزقه، وحتى زوجته بغضته لصراحته. كان كريماً، وفي الحق لا يخاف لومة لائم. من طلوع الفجر حتى مغيبه كان يضرب في الأرض. صار بينه وبينها حلول وعشق، وقبل ان يموت أوصى الا تُباع ذرة تراب منها.

كان يقول : الانسان من الأرض والأرض من الانسان. دمه وعظمه وعرقه تغلّ في اعماقها فكيف يبيع الانسان دمه. انظر يابني الى لونها الا يشبه لون دماء الانسان ؟

وكان يصلي لله وللمطر وللمواسم، وفي أواخر الليل عندما يهدأ الكون وينتهي العمل في الأرض يستلقي في الخيمة، ويروح ينشد أشعاراً لابن الفارض والمكزون ومنتجب الدين العاني وأبي نواس، ويحكي قصصاً اسطورية غامضة عن **الأولياء وأهل** التقى والمتصوفة. هؤلاء الذين كان يقول عنهم انهم يمتلكون إشراقات خاصة، ترى ما لا يراه البشر العاديون الغارقون في جشع الدنيا وسفالتها. قدراتهم تفوق قدرات البشر لكنها دون قدرة الله. يستشرفون المستقبل لأنهم الصفوة المختارة. لقد شفّت نفوسهم يا بني وتخلصت من كل دنس. تطهّروا بالتأمل العميق في الكون فانفصلوا عن تفاهات البشر ودناءاتهم، فاقتربوا بذلك من الباري تعالى حتى صاروا أحبّاءه.

وإذ يسأله : ألم يكونوا يعملون ؟ كان يجيب بانهم انصرفوا الى المعرفة وطرق

الوصول. عافوا الدنيا بكل مغرياتها فانتصروا على رغباتهم وبذلك نجحوا في امتحان الباري لهم، ودخلوا المطلق. وبخشية كان يسأله ان كانوا يشربون الخمر فيرد بجدية صلبة: الخمرة طريق من طرق الوصول الى المعرفة، عندما يشرب المؤمن خمرة الله الباطنية، تصفو ذاته ويدخل عالماً آخر لا يعرفه الا الذين أوتوا نور الكشف في نفوسهم.

واذ يرد بخوف: لكن الخمرة محرمة في كتاب الله؟

اذ ذاك كان ينهدُ مستوياً داخل الخيمة السهلية المطلة على البحر، متأملاً النجوم التي تلمع في سماء صافية: الخمرة التي يتناولها المؤمنون يابني شيء آخر غير هذا المزيج الأبيض الذي تراه. هذه أمور خفية لن تعرفها الآن لأنك لم ترشد بعد. وفي غمرة حلولية منتشية يدندن مطلع قصيدة: «لا تشرب الراح الا مع أخي ثقة موحّد عارف بالعين والميم»، وعبر الفضاء العاري والسهول الخضر يتماوج ذلك الصوت الصوفي الشجيّ.

[]

من اين أتى هذا الماضي المغرق في القدم والنسيان؟ ولماذا أتى الآن؟ هو كان صوفياً لانه متدين عاش الحياة من خلال ما اعتقد. عبد الله والأرض، وسكنته القوى الخفية. وانت تؤمن بشيء آخر اسمه الانسان. والانسان مذهب ما يخلق والله حكاية قديمة جسَّدها العجز القديم عن تفسير ما وراء الظواهر. وانت مسكون بمنى لانها التغيير ونقيض الثبات، ولكن منى لا تؤمن بك وتقول عنك: مسكون مثلهم بالإرث والنقص تلا الزمن عليك حكم الاعدام.

صديق قديم قال لك: اذا جاءك الأرق فتخيل نفسك على شاطىء بحر والريح تهب ناعسة رخوة. تصور انك محمول على بساط مخملي نحو جزر بعيدة واصوات نوارس البحار رخيمة حزينة تصوي في اذنيك. آنذاك ستنام حتماً.

لكن سامر ووائل وهدى وأيوب وديانا ومسرور وامينة وراني، كيف ينام من يتذكرهم في جميع الليالي؟

- ١٥ -

الوظيفة. هذا المستنقع البيروقراطي، تغطس فيه منذ الصباح فلا تستيقظ الا وانت على شاطئ التلف. يلوث نقي العظام فيك. ومع نسخ الأيام المتشابهة تتحول كتلة آلية بلهاء مشتقة من الكرسي او المكتب. للكرسي والمكتب رائحة زنخة فقدت انتشارها من كثرة ما عشعشت في الخياشيم، والداخلون الخارجون دمى تأتي وتنصرف بطقوس تشبه طقوس المصلين الوافدين الى الجوامع والكنائس في ايام الجمع والآحاد.

واحد. اثنان. ثلاثة. عدّ حتى تسقط اعياء فلن يتبدل شيء. تلف يومي. تفسخ زمني يسحق البشر ولا جدوى. استرقاق يشد آلاف المواطنين الاستهلاكيين. يوثقهم الى الكراسي والمناضد، كأنما محكومون يُساقون منذ الصباح بآلية الأيام نحو غرف الغاز ذات الروائح النفاذة، روائحهم.

بمرارة أضحك وانا اتذكر ان ايوب السرحان وظيفة امينة وقد أحكم ذلك الشرع الشريف، في حين كانت زوجة سامر البدوي وظيفته، لكن أحداً منهما لم يكن يداوم في عمله.

سألت سامر البدوي يوما: لماذا تصدعت الحياة بينك وبين زوجتك؟

سخر من سؤالي وقال: المرأة قطعة غيار تتلف من كثرة الاستعمال.

– لكن الشرع يقول: المرأة رفيقة العمر!

وينخر: بالنسبة للذين صارت احاسيسهم ماخوراً.

– ولكن انت الم تتزوج بحب؟

– بلى. ولكن هل الحب مستمر كالسهم باتجاه واحد؟

– لماذا يحدث الانحراف فيما بعد؟

يقول: الطبيعة البشرية كالبركان. بعض البراكين تثور مرة واحدة ثم تخمد. والبعض الآخر يظل في ثورة دائمة. الشعراء براكين متمورة عندما تخمد يكون الموت قد

أقبل. تزوج أبي ثلاث نساء جميلات والأخيرة كان عمرها لا يزيد عن سبعة عشر عاماً بينما ناهز هو حدود الستين.

– ألم تخنْهُ ؟

–كان رهيباً قاسياً يتمتع ببطاقة جنسية لا تُحدّ. رغم كبره كان يتصرف كشاب فتي. كانت مدللة يمضي في فراشها جُلّ وقته وكان يرضيها.

ضحكت: الولد طالع لأبيه.

في خلاياه تمددت غبطة سرية، وفي عروق وجهه سرى الدم. دم ينبىء عن فيض جنسي ووثوق وراثي أصيل.

[]

ذلك الماضي السحيق وحده يلوح مطهرا من الرجس. يشبه اكليلا ابيض في ليلة عرس وفوقه تخفق حمائم بيض. وهم يسيرون فوق مروج خضر ومزهرة والسماء ناصعة كبحر رائق. بذلك الحلم الذي مضى ويعود الآن، وفي جميع الأيام السود، كانوا موثقين. أخذهم ماضي آبائهم وطفولتهم التي مضت، وعلى الدروب المسدودة والمغرقة والمحرقة. كانوا يتقدمون ببطء سلحفاة في العصر النووي المدهش.

وانا اغادر سامر البدوي بعد ان التف حوله اناس لا طاقة لي بالبقاء معهم تساءلت: لماذا يكرر العربي مجده الغابر؟

كنت أسير في نهار دمشق تحت سماء توحي بالمطر.

وكانوا قد بدأوا الحديث عن السفر والطعام والثياب والسيارات والمنازل المؤثثة والنساء وأنواع الويسكي، ثم تشعّب الحديث عن الحيوات الشخصية وما مرَّ في حياتهم من نكات ومفارقات وبطولات طفلية، وكان سامر نجم الحضور. تألّق الجانب اليومي وتواترت حكاياه المختلفة. استطالت حتى غمرت الموجودين. فانسحبت حتى لا أكرهه.

كان الناس يعبرون الأرصفة بمجانية نهر يجري، واختلطت ابواق السيارات بطقات النرد ورشف الشاي في المقاهي المنشورة على ضفاف الشوارع. كان الوقت عز الظهيرة.

سرت بين الناس. وحيدا حينا ومع سامر البدوي حينا آخر. كيف يكون متوافقا مع الناس ثم شارطا لقوانينهم في آن؟ كيف يخدع بعض من احبوه وما دروا انهم مرايا عاكسة. محطات راحة للذي يهوى ركوب القطارات فلا يمل من هجراته؟ هل كان يبحث عن شيء مفقود؟

لقد قال لي في ذلك اليوم: كان ابي يطيل النظر الى المرآة. يسافر في وجهه ثم يمسده بليونة وشغف. احيانا كان يتعرى تماما ويتفرج على ذاته لقد رأيت ذلك بنفسي. يومها كان في اقصى حالات الثمل. وما أحب أكثر من دمشق.

– دمشق مركز العالم. كان يكررها كآية محفوظة.

وفيها كان يهاجر من جسد الى آخر. من امرأة الى أخرى. ولم يكن يبحث عن شيء. كان يفرغ رغباته فيها، رامياً خلفه كل اللوائح والشرائع التي استُنّت في غيابه. ثملاً الى الأقصى داخل جحيمه الأبيقوري قبل ان يدهمه الموت المفاجىء.

وفي جميع الأيام كان يبدو تعباً، لكنه كان يولد من التعب طاقة جديدة للبدء بالسفر من نقطة المركز الى اية نقطة من محيط الدائرة.

واذ نبدأ اللقاء مع الحسوات الأولى للخمر، يهاجم الضعف الجسدي في الانسان. يرنو باحتقاز الى جسدي النحيل ويقول هازئاً: انا اشك برجولتك الجنسية.

فأستفزه: التجربة تثبت.

يتقزز فيهاجم: منحط. منحرف. ديوث. ثم ينهد حاسياً كأسه: امتصتك امينة ولم تترك فيك غير العظام. انظر الى نفسك أهذا جسد ابن آدم؟

– وهل جسدك جسد شاعر؟ انت مخلوق لتكون مصارعاً.

ويصيح: وهل ينبغي ان يكون الشاعر هزيلاً شاحباً كي يحتاز مواصفات شاعر؟ المهم الحيوية النفسية.

– لا. سيدي. لا. للقوة النفسية حدود. انا أرى ان الرومان من أعظم الشعوب. في هذه المرحلة على العرب ان يكونوا في قوة الرومان ليحرروا وطنهم.

– ياأخي انت بليد ومغفّل. هل الرومان اعظم من اليونانيين؟

– هذا ليس عصر الفلسفة والأدب بالنسبة لنا. نحن أمة مستباحة ومهددة بالانقراض. لسنا بحاجة الى أرسطو وأفلاطون وكازنتزاكي. اسرائيل ثكنة مدججة بالسلاح تذكر بألمانيا الهتلرية، ومن اصل اقل من مليوني نسمة هناك حوالي ثلاثمئة ألف مقاتل على استعداد للإنقضاض علينا واجتياحنا. وانا أشك ان تستطيع الأمة العربية مجتمعة تجنيد مثل هذا العدد الآن.

– ياإلهي. تتحدث بطريقة لا مثيل لها في الغباء. المانيا كان لها فلاسفتها وأدباؤها. نيتشة وفختة وكانت وغوته. اسرائيل ايضا لها فلاسفتها وعلماؤها. بهم تبرر وجودها وتقنع العالم.

– هذا عصر القوة لا عصر الفلسفة والشعر. نحن ممزقون سياسياً ونفسياً، مانزال نعيش على امجاد طارق والحجاج وعقبة بن نافع. هراء. منذ عصر الانحطاط ونحن في حالة دفاع عن الذات. لم تُخلق بعد في نفوسنا حالة الهجوم. حالة الهجوم فينا تفرغ عن طريق الكلمات. فمتى تنتهي حالة الثرثرة اللامجدية هذه؟

– على اية حال المواطن هنا لم يتشكل بعد. غير ان هذه الأمة اقوى من الموت والانقراض. قد تستمر اسرائيل ردحاً من الزمن، لكن اي انسان يفهم روح الشعب العربي وتاريخه ويحلل، يدرك ان اسرائيل بتكوينها العنصري الديني ستزول.

– هذه الأمنيات الدونكيشوتية لا تكفي، هذا العصر ينبغي ان يكون عصراً اسبارطيا بالنسبة للعرب، وانا افهم ان الحزب الثوري هو المسؤول عن ذلك. هكذا حدث في الصين وهذا ما يحدث الآن في الفيتنام.

من سماء دمشق انقشعت الغيوم وماهطل المطر. كنت قد شارفت بيت مسرور الكائن في حي المزرعة. شردت احلامي نحو عالم منى: كيف استرد هذه التي استلّت مني دونما ذنب، أأنا المعطوب ام البشر الذين يحيطون بنا؟ أم هذه الدمشق المنزلقة كسمكة من أيدي جميع الصيادين؟

– ١٦ –

– «الى اين يمضي بك اللاشعور ايها العاشق الفاسق؟».

الخطوات تضرب جلد الأرض ولا تتوقف. تسير وتسير وتتقوس ثم ترتمي وتقوم. متعباً فارغ الفقرات وتتابع الجري على الطرقات ذاتها. الايقاع نفسه للأرجل والتصورات الداخلية المشتبكة في الذهن المريض حينا والصاحي أحيانا. مع الناس ثم وحدك تحاول معرفة وحدة الانسان متلمسا بقوة البصيرة العجز والقصور، يسبح في بحرهما طفل تائه رمي على حوافي التاريخ بعد ان انسل من نور الماضي وسقط في ظلام الحاضر. لقد ارتبكت وانت تسير فتقوّست العظام من جراء المشي المبكر. وفي زحمة هذا التفجر الميكانيكي والعقلي ضيعت أباك. تصيح بلوعة من ضلّ طريقه في سرداب ملتو حالك: أين انت ايها الأب القديم؟ اعطني بصيصاً. ولا يأتي البصيص وترفض قطع حبل السرة رغم انك لا تسمع الا صدى صوتك الجريح.

وتبدو منى وحدها الضحية في هذا العالم المشحون بالعواطف الكاذبة. ويقينا كنت شبه عاجز من استرداد ثقتها بي وبالبشر المحيطين بها، لكنني لم أكن يائسا بشكل مطلق. كنا مانزال نلتقي في بيتي وبيوت الأصدقاء خلال فترات متباعدة قبل ان ترحل. نثرثر عن الأحداث اليومية التافهة وكان هذا معذباً. فأمامها أبدو ممثلا يثير السخرية، وانا أرمي كلماتي وهي تدخن مبتسمة، لافّةً ساقا فوق أخرى بينما لحمها المحرّم يتضوأ تحت بصري. احاول إثناءها عن الرحيل لأن ذلك سيسبب حزناً وكآبة. بلا مبالاة وسخرية تنبضان من ذرات شفتيها وبريق عينيها، كانت تجيب على شفاعاتي بهزات من رأسها الصغير، ثم تتمدد على السرير راسمة بلفافتها دوائر، تتأملها وهي تتصاعد نحو سقف الغرفة ثم تتبدد.

وأتأملها وهي ترفع قدمها اليمنى على الجدار. تحركها ارتفاعا وانخفاضا كأنما تكتب برؤوس اصابعها. واذ ترفع ساقها أكثر، ينحسر ثوبها وتحت الضوء ينساب

فخذها الوردي.

– بماذا تريدين ان أشفع اليك كي تبقي ؟

تبتسم : بك.

– بي أنا ؟

وتومئ وهي تمصّ لفافتها ثم تنفثها.

أقهقه : لماذا تهزئين منا جميعا، منى ؟

– أنا لا أهزأ من احد.

– لكنك تسخرين مني الآن !

– أبدا ياعزيزي. انتم الذين تفعلون ذلك بي وبأنفسكم.

– منى. انت لم تحسني الاختيار. ألا تعتقدين انك فقدت القدرة على ذلك ؟

– أنا لم اختر يوما الا مرة واحدة وقد فشلت. انتم اخترتموني فيما بعد.

– خسرت مرة فقط.

– هذا يكفيني.

– لكن الرجال ليسوا نسخة واحدة.

– تريد ان تقول انك تختلف عنهم ؟

– المسألة ليست على هذا النحو الفردي تماما.

– ولماذا حدقت بشبق رجل نهمٍ الى ساقي ؟

– لأنني رجل محروم وناقص !

– انت كالآخرين تبغي أكلي. كلكم ينشد صيده ثم يمضي.

– منى اسمحي لي ان اقول لك انك مؤذاة. ربما كنت ابغي جسدك. لكنني اريد ان تمكثي بقربي وفي داخلي الى الأبد. نحن مرتبطان بأقوى من الجسد وانت لا تريدين ان تدركي ذلك. عندما اقول لك انت شيء خاص موثق بتاريخي في الحاضر والمستقبل فأنا اعني ذلك فعلا. انا بدونك لاشيء. نحن بدونك ضباب. ينبغي ان نحرق ماضينا ونتقدم في التجربة حتى الأقصى. بدون أب بدون أم بدون أخوة حتى ولا أصدقاء الآن. نحن بداية هذا العالم هذا ما أحسّه معك أبدا.

بريبة وحذر تتملاني، وفي وجهها الماضي والجرح يتصالبان مع الخوف. كان رحيلها يفزعني. في هذه المرة سأفقدها ربما الى الأبد وهذا يعني استحالة بناء صلة جديدة من هذا النوع.

في دمشق تعلمت كيف تفكر المرأة وكيف تعيش. البيع والشراء وتبديل الرجال كما تبدل الأحذية وحقائب اليد. وما كان باستطاعة امرأة ان تغرس في نفسي كما غرست هذه الطفلة التي نمت خارج المستنقع. كنت أقول لنفسي علي أن أوطنها على الاقتناع محاولاً بكل ما تبقى في داخلي من صفاء ان اشفيها من حالتها، بعد ان وطنت نفسها على العزوف عن الالتصاق بالمغامرين والانتهازيين.

[]

بافترارة عادية استقبلتني ديانا، مفسحة المجال لدخولي وكأنني زوجها أو أخوها. سألتها عن مسرور فقالت انه خرج منذ دقائق.

كانت ترتدي تنورة ضيقة تظهر تقاطيع جسدها الموحي بالاثارة، وقد اكتحلت، وفي شعرها المسرّح المثنى حول عنقها غرست زنبقة بيضاء.

– أكنت تتأهبين للخروج ؟

وقالت بأكذوبة بينة : لا. ثم استطردت : كنا سنذهب الى السينما وفجأة طلب مسرور الى العمل.

هبطت على الديوان، وجلست هي بقربي.

اشعلت لي سيكارة وكان وجهها قريبا. وجه قمحي ناعم وشفتان تلمعان بومض شهوي. خامرني احساس مفاجىء بضم وجهها بين راحتي كفي، وان اتملاها علني اكتشف ما وراء هذا البهوت الراقد في عينيها، واذ تحركت ذراعي بتلصص نحو الأعلى، اصطدم بصرانا. بغتة رفعت رأسها وتهاوت على الكنبة المجاورة.

وسألتها : لماذا غادرتِ الديوان ؟

فابتسمت ببرود : عيناك هائجتان.

كذبت : أنا معجب بزنبقة شعرك.

– وأردت أن تلمسها. هاه؟. ضحكت.

نظرت اليها : كان عطرك مثيراً.

غنجت : عطري فقط ؟.

ولم أنبس.

ورمت رأسها بحركة مزهوة الى الوراء ثم نفخت دخان لفافتها في الفراغ.

كانت تنورتها منحسرة الان وفخذاها سائبين، ولم تحاول سحب الثوب ولا ضم ركبتيها، وبدا ذلك عفوياً، وكان ثوبها الداخلي المخرم يبرز قليلاً. في

الكنبة كانت غارقة والكنبة تضمها، تستوعبها تماماً، والمسافة بيننا قريبة بحيث لو خطوت خطوة واحدة لصرت في حضنها. وكانت تتنفس بسهولة، وبدا ثدياها ناهضين يخفقان على مهل وعنقها مُتلعاً. كالتمثال بدت امرأة حقيقية، كاملة، مثيرة، عابقة، متوحدة، لكنها كالحجر هناك.

وحدث شيء آخر. تحول لامرئي بدل مشاعري. حدث ذلك آنيا كما تتفجر شرارة دونما ضجة.

ولم أستطع رصده تماماً رغم انبهاري به. أذكر انني بُهِتّ وأنا أتصور الحالة وهي تبرق في ذهني.

وكنا في غرفة النوم وهناك جثم سريران أبيضان وخزانة رمادية، وجلست على أحد السريرين واعتقد اننا كنا عائدين وكان الغروب باهتاً ومؤسياً في ذلك الصيف الحزين، وفي رأسي كان المثال عن امرأة رائعة ذكية وجميلة، تحب الوحدة والشعر والجنس والبراري. وكانت هناك اسطوانة تدور بموسيقى حزينة مفعمة بالروائح والتذكرات، وكانت الستائر زهرية ومسدلة فوق النوافذ، واحسست طراوة السرير فتمددت فوق الغطاء الابيض المصنوع لعريسين ربما. وافعمتني رائحة جنسية لذيذة فاحت من المخدة. كنت أضع رأسي فوق رأسها، واذ انتشرت الروائح داخل نفسي وجلدي رغبت احتواءها. وسألتها آنذاك: أتنامان منفصلين؟ فأجابت: أكثر الليالي. وقلت: كم مرّة نمت عارية معه؟ فقالت: مرة واحدة. واذكر انهما كانا متزوجين منذ عام ونيف. ثم سألتها: هل تجردت من ثيابك تماماً؟ فاجابت: كما ولدتني امي. واهتجت متلذذاً بالأسئلة: وكان عارياً هو آخر؟.

فقالت: أجل.

– ومارستما الجنس؟ فأومأت. وبدا في وجهها امتعاض.

وقلت: كنت حارة ثم ابتردت بعد ذلك؟ ونفت استنتاجي. فسألتها: لماذا؟

واذ قطبت حاجبيها ظهرت تقاطيع صدغها: كان جسده مخيفاً. وسألتها عما أخافها في جسده فنرفزت: لا أدري.

والححت: بل تدرين. هيا قولي. فصرخت محاصرة: كان جسده مغطى بالشعر. لقد بدا كقرد.

وقلت: وكان محموماً متوثباً.

– أجل كان ذلك مخيفاً.

وبنشوة خاصة سألتها: وأنت ماذا تذكرت؟.

وقالت: لم أتذكر شيئاً. كنت كالحجر ولم أشعر بشيء. لقد مارس هو الفعل.

– وبم أحسست؟.

وقالت بضيق: بسكين تحتزني.

وارتفع صوتي: كان يغتصبك اذن. ووثبت ممسكا زندها العاري فنترت ذراعها وابتعدت: دعني. وصفعتها: أنت مريضة. وصاحت: انتم مغتصبون لا تختلفون عن الوحوش في شيء. وانفلتت هاربة في الممر الضيق.

وتوقفت الاسطوانة. ثم سمعت نحيبها هناك.

[]

هاأنتذا تعود ثانية. تراوغ نفسك وهذه المرأة المتأبية. رافضاً ما حدث في الماضي البعيد. تحاول الوثوب فوق الوقائع المرضية التي اعتقدت انها أحابيل لتغطية مراسيم الخيانة. لقد حدثت الخيانة في الذهن وانتهى الأمر. وذلك الرجل الذي ادرك بالحدس بعض قوانين الانسان يقول: النية تسبق العمل. هو الذي فسر الخير والشر والحلال والحرام بالشرع الشريف وما فهم قوانين الرغبة، والنزف الداخلي للطبيعة البشرية هذا الذي يقصف الاعمار في منتصفها ان لم يجد مسرباً حراً.

وفي مساء ما غالى راني برد الفعل فقال: قتل طفل ولا قتل رغبة.

قرع الجرس، فنهضت ديانا تفتح الباب. وولج البيت رجل جهم طويل يشبه رجال الاساطير القديمة. في وجهه جهامة وهيبة ويرتدي عباءة.

سلم مصافحاً اذ وقفت لاستقباله، فشعرت بكفه العريضة تسحق أصابعي.

خرجت ديانا من الغرفة لتدخل ما حمل الرجل معه من حاجيات، وبقينا وحيدين.

سألني عن مسرور فقلت بأنه في العمل ونحن بانتظاره. بين حين وآخر كنت اتملى وجهه الغضب المخدد، المعجون بقسوة قديمة.

لم يلزمنا وقت طويل للتعارف، وانصبت اسئلتي عليه. اسئلة عادية بدا

خلالها مزوحاً على غير هيئته ، وبدوت وأنا اثرثر معه انساناً في منتهى اللطف والاستماع . عندما خرج ليغتسل من وعثاء السفر ، أعربت لديانا عن دهشتي به . فقالت بانه قاسى كثيراً قبل خروجه مع اسرته من فلسطين وغمزتني أن أكون حذراً أمامه لانه زميت لا يفوّت صلاة .

وقلت : أعرف ذلك . لكن لا بدّ انه يعرف أشياء كثيرة عما حدث في الماضي . فقالت : أرشيف . قاتل في الجبال في عام ١٩٣٦ وفي الـ ٤٨ . وقد قَتل كثيراً من اليهود والانكليز .

واذ عاد استأذنت منه . ودعته فلم يعترض لخروجي بهذه السرعة .

[]

في اعتقادي انني لم أكن مريضاً . ربما كنت مخطئاً في هذا الظن . لكنني كنت واعياً نسبة عالية من حالتي . وما تبقى كان مشوشاً ، وبين حين وآخر كان يعاودني وسواس المرض . يصل بي درجة ان أعرض حالتي على طبيب . ومن أطرف الامور انني كنت احضره في مخيلتي ثم أبدأ حواري معه ، وخلال الحوار كان يسألني عن طفولتي فأسرد له حوادث عادية مرت . لكنه كان يلح علي أن اتغلغل اكثر واتذكر الحوادث الاستثنائية . اقول له لا اتذكر إلاّ هذه . لكنه كان يلح ، وعبثاً احاول الابحار . يسألني مم تشكو؟ فأقول : فقدان الرضى في النفس والجسد . واذ يبتسم بعذوبة من يدرك ذلك يسألني : ومن هو الراضي في نظرك؟ فاشير نحو البشر السارحين تحت الشمس ، لكن الابتسامة تعود اليه ويقول : هل تعتقد انهم راضون عن حياتهم؟ لكل حالاته المرضية الخاصة به . فاسأل : حتى الاطباء يا ترى؟ .

فيرد بهدوء واثق : حتى الاطباء ليسوا بناجين . وبارتكاس ذاتي أعترف له بالجوع والملل والقبول والرفض وحس التميز والعادية ، ثم هذا النوسان بين الأحاسيس النفسية والتوضع المادي للاشياء ثم أقول : أليس هناك تعارض بين هذه الامور؟ فيقول ان الانسان بطبيعته ملول والنفس الانسانية مزيج من التناقضات وهذا يعود الى الطفولة والتربية والوراثة والثقافة .

وافصح له قليلاً علني اثيره : ترى لماذا أرغب قضم لحم الجسد الانثوي عندما اعجز عن الارتواء منه . يفكر قليلاً ثم يقول : هذه عودة داروينية تثبت صلة الانسان باجداده أكلة اللحوم .

اقول : لكن أنا من سلالة امضت جل تاريخها في الصلوات والتحريمات وممارسة الحب في العتم بعد منتصف الليل . سلالة معطلة . شفاهها بدل القبل تحتسي الخمر والشاي ، وايديها بدل العناق والعمل انحرفت نحو العادة السرية ، وركبها امّحت من كثرة السجود . عيونها تراقب النجوم والسماء والمطر وتنتظر هبوط مطلقها منها . يا عزيزي الطبيب هذه السلالة اعماقها ساحة حرب بلا هدنةمنذ العصر الذي قتل فيه طرفة بن العبد لانه هجا عمرو بن هند الملك حتى عصر الثورات المجيد هذا .

ويبتسم قائلاً : علم الوراثة احتمالي . هناك بين الشعوب المتحررة والتي قطعت أشواطاً في الحضارة حالات مرضية مشابهة واكثر حدة في الاستثناء . ثمة حالات مشتركة بين الانسان لا صلة لها بالتاريخ الخاص .

واذ لا اقتنع كثيراً بما يقول ، أسرّحه . أمضي في الطرقات مهلوساً بوطن حر ، بانسان يحيا بعيداً عن العقد والتشويه والمخاوف . وطن بلا خيانة . وطن حرّ وغير جائع ، وطن لا وجود له إلاّ في مخيلتي المهتزة .

وأنا امضي احاول التغلغل نحو احلامي الآثمة والاضطهادية . مشاعري اللاشعورية نحو ديانا وسمية وكل النساء الشهيات اللواتي يعبرن شوارع دمشق ، اعريهن في ذهني دونما خوف من الشرطة الاخلاقية وآيات الله البينات . واذ تشرق مني داخل هذا العالم المائل ، اشعر بالشفاء والهدوء .

– وهل تعتقد ان هذا كل الازمة؟ .

– أزمة من؟ .

– ازمتك .

– ماذا تعني؟ .

– قد يكون ابوك برجا هوى ولا خير منه لكن...

– ماذا تود أن تقول؟ .

كان يحدق الآن في وجهي بكل ما في عينيه من شراسة وانتهاك .

وسألته : لماذا تضربهن قبل العملية؟ .

يفتعل الغياب . يضع يده على صدغه : لا ادري . أشعر بحاجة ماسة لان أضرب . عندما تقوم بذلك تحس بانك افرغت شيئاً من قواك ولا تلبث هي أن تخنع . أحب المرأة هادئة مستسلمة في الفراش .

وكحيوان عطش دلق الويسكي في جوفه. وكانت هناك موسيقى صاخبة. وراح هياجه يرتفع. وسألته: هل تحب الموسيقى؟.

فابتسم باحتقار ولم يجب.

وقلت مازحاً: هل تسمع موسيقى خلال عمليات التعذيب في القبو؟

كأنما صعق: لماذا تسأل ذلك؟.

وقلت: مجرد سؤال خطر لي.

كل جسدي راح يطعنه بنظرات ذئبية وقال: هل قال لك أحد بانك انسان قذر وابن عاهرة؟.

وضحكت: لا اعتقد. ربما سامر يستعمل شيئاً من قاموسك الجبان هذا. على أية حال ربمـــا اكون قذراً بحكم التصاقي بك هذه بدهية. لكن امي مع الاسف لم تعرف غير ابي فلم تكن لها اية أحلام وكان أبي حنبلياً في قضايا العرض. انتهى تقريري. هل لديك اضافات أخرى؟.

– أنا اشك انك ابن شرعي.

ولم يكن قد ثمل بعد. وارتفع حسّ الاهانة: أنا لست ابناً شرعياً أما أنت فابن شرعي لهذا العصر. رجل قوي يتسلط على النساء والرجال. يملك سيارة ومركزاً حساسا. تنظر الى شاراتك في المرآة فتزهو وتحس بان العالم تحت قدميك. لكن هل نظرت يوماً في مرآتك الداخلية لترى ماذا أنت؟.

– ماذا تريد أن تقول؟.

بهزء: لا شيء. محض دردشة عن الاولاد الذين جاؤوا سفاحا والذين هبطوا خطأ من صلب آبائهم. هذا كل ما في الأمر.

وقهقه مزدرياً: تبدو عالم نفس يا عزيزي الصرصور.

– هاه. انك ترى جيداً كيف تنظر الى الناس. هم في مراياك ليسوا اكثر من صراصير. تعتقد جاداً انك تحكم العالم أليس كذلك؟.

وبفوقية قال: انني احكمك شئت أم أبيت.

وضحكت مشفقاً: بل ربما كنت المحكوم ولا تدري. تحكم نفسك داخل غرفة مقفلة يفوح منها الرعب والجبن. فيها تمارس العابك. صدقني أن أحداً

لا يخافك خارج القبو، ويؤسفني أن أقول لك انك مهشم وأجوف وشمسك مشرفة على الغياب.

ودخلنا في حوار جاد. أنا على الأقل لم أكن أمزح. خيل إلي انني قد أمضي في النعربة حتى النهاية. وإذا رأيت عينيه ارتخنا، حضرتني شفقة واعية. كنت حَنِقاً من هذا البنيان الكاذب الموشك على الانهيار. وددت القول: أن هذا خطير وقاتل! فأدركت ان هذا لا معنى له.

- ١٧ -

استقبلت وجه منى ببشاشة. دهمتني غمة مفاجئة وهي تقول : هؤلاء هم أصدقاؤك. شعرت انها كتمت صفة : النهمون.

صححت لها : هذا تعميم خاطئ. ينبغي أن تميزي بين الظل والحقيقة. بين المبدئي والمرحلي. احكامك قاسية منى.

وفي ذلك الزمن العصيب كنا نتأرجح أنا وهي عبر تيارات جارفة، شديدة الانحدار، وما كان بالامكان أن نتماسك لينقذ أحدنا الآخر. وكان النهر عكراً. تسبح فيه هوام غريبة بعضها جائع والبعض مهووس، والقسم الاكبر كان محمولاً فوق حطب طاف يتشمس وينام على الاطراف وفي الفجوات البعيدة عن الاصطخاب. وروت لي كيف عرفتهم جميعاً، وكيف اعتنقوها زمناً. حوّموا حولها وهاموا بجسدها لكنها قدمت لهم الازدراء واللامبالاة وختمت حديثها قائلة : كانوا في النهاية ممثلين هزليين يثيرون منتهى السخرية والمرارة.

ولما قلت : ولكنك اصبتني برذاذ احتقارهم دونما ذنب. انعطفت نحو ميسالينا فحكت عنها بأسى عميق. ولأول مرّة سألتني عن ابني القادم من امرأة أخرى ماذا سأسميه؟ فقلت بانني لست راغباً في الزواج. والحّت بمزاج جدي : لنفترض انك تزوجت واعطتك زوجتك غلاماً؟.

فقلت : لا ادري. سمّهِ معي.

وضعت اصبعها في فمها ثم نظرت نحو سقف الغرفة : آدم!.

سخطت : أنا معقد من الأنبياء. .

ردت بعذوبة : آدم كان انساناً مثلنا. وغمزت بعينها اليسرى : اعني مثلك. انفصل عن والده وجنته وماضيه من أجل امرأة. واردفت : يتزوج آدم ميسالينا ويبدآن من جديد كما تحب أن تعبر. ما رأيك؟.

وقلت : ولكن كيف يلتقيان؟ هي في القاهرة وهو في دمشق وبين القاهرة ودمشق مسافات شاسعة صعبة العبور؟.

واستطردتُ : أنت فعلاً شاعرة ذات خيال ولا أخصب منه.

وقالت بعفوية : كما التقينا. أتذكر؟.

(حدث ذلك في غروب خريفي في بستان مشجر معشب، المكان كأنه ضاحية من ضواحي المدينة. كان هناك سواقي يجري فيها ماء صاف وتحت المياه حصى ابيض ورمادي وطحالب خضراء. وبدت كأنها قد شردت عن أهلها.

وراحت تثب فوق العشب كظبي آمن. واذكر انه كان معي بندقية صيد. وفجأة كأننا انبثقنا من جلد الأرض وجهاً لوجه. ودهشت. سألتها عن اسم المدينة فسمّتها. وقلت : هل انت منها؟ وماذا تفعلين هنا؟ وأين أهلك؟ ونظرت نحوي عجبة من اسئلتي ثم ابتسمت. وجثونا على ضفة ساقية، واذكر انني كنت فرحاً بوجودها وتأملتها. لم المح خبث المدن في وجهها وراحت تداعب مياه الساقية برؤوس أصابعها. كان لحمها نقياً لا غش فيه، وصلباً. وابتدأت تتحدث دونما خوف. وقلت في سري : ربما كانت هذه هي التي تبحث عنها. وقلت : لو رآنا أهلك معا؟ امسكت عوداً يابساً وكسرته وقالت : ما علاقة أهلي بذلك؟ وقلت : نحن شرقيون. وضحكت حتى كادت تقع على ظهرها. انحسر ثوبها، وراح نهداها الصغيران يرتجّان بحيوية تحت بلوزتها الخضراء، وخصلات من شعرها الاصيلي تنسكب فوق وجهها حاجبة قسماً من عينيها المشعتين بومض غريب. وسألتها لماذا تضحك فنهنهت : قل لي. هذه ضحكة غربية أم شرقية؟ مرت لحظة صمت. كان الماء الصافي يغمر بعض ساقيها. وسألتني من أين أنت؟ ولماذا تحمل بندقية؟ وهل أنت صياد حقيقي أم تمثل دور الصياد؟ فأجبت بانني لم أتوغل في الصيد بعد. واذكر انها تحدّتني ان كنت صيادا فعلي اثبات ذلك. وقلت : ما جائزتي؟ على شفتيها وضعت سبابتها. هدّلت السفلى ثم مدت عنقها نحوي. فرح طاغ اجتاحني وخفت السقوط في التجربة. كانت البندقية في حضني وأنا افكر بكيفية التجربة وهي تنظر نحوي متحدية. وفجأة خفق فوقنا طيرا يمام كانا يطيران بسرعة عادية. لست اذكر الآن كيف حدث ذلك وبمثل تلك السرعة الخاطفة. لقد هوى أحدهما كما يهوي حجر فوق العشب. وكنت أنزع الطلقة الفارغة بينماالطائر يمزقه الألم هناك ناثراً دمه على الأعشاب. واستطال زهوي اثر ذلك حتى بلغ شفتيها. حدث ذلك كله كالبرق، كانت واقفة اذ ذاك على ضفة الساقية وفي عينيها سكون

ودهشة. وتحركت قليلاً نحو الطائر حملته وهو في نزعه الأخير ثم رمته الي. ولم ننبس. سرنا معاً فوق الاعشاب وتغلغلنا بين الأشجار ثم خرجنا من البستان وتهنا في برار فسيحة. ولم أعد اذكر شيئاً).

[]

فيا بعد خمد الذهول، اختلط الشهود بالممثلين، والصيادون بالقتلة، وعادت دمشق إلى سكونها القديم، تتابع سيرتها في البيع والشراء، في الضحك والصلاة. كما عادت مني غريبة في هذا العالم.

شيء خاص حدث خلال سني التحوّل والارتكاس. لقد سكنتني تلك المرأة على نحو يقرب من العصاب، في الوقت الذي بدأت فيه انهياراتي النفسية تشارف حدود الرفض لجميع الآخرين.

ها أنذا أحس بهم في لحظات الصحو النفسي وهم يمضون. وأحس بها وهي تقبل (أيكون هذا تعويضاً شخصياً مختلقاً ضد الوحدة والخوف من الانقراض المرفوض). احسهم تاريخاً عابراً، حُفِر على جدران ذاكرتي لكنه عصي على اللمس. متمرد على التكوين السوي. بينا تتقدم منى ببهية موردة كالشفق، وهم يمضون بأعمارهم وتواريخهم الملوثة بالوحل كأنما اخذتهم غيبوبة.

(ها هم هناك مُفلتون بلا ذاكرة. غارقون في مستنقع التاريخ. لقد وُلِدُوا في عوالم مختلفة متناقضة. عوالم فردية. جاؤوا من بلاد قصية مطرودين، ملهوفين، مسكونين بالاحلام والمجد والظمأ. وهنا عاشوا بحنين لا حدود له لماضيهم وللرحم الذي انسلّوا منه يوماً، بعد أن نسوا أن يبنوا مدن نفوسهم في صحارى مقفرة يحدها الانقراض من الجنوب والاغتصاب من الشمال ومن الغرب البحر ومن الشرق الرمل. وتحت جلودهم كل وشل التاريخ).

من ثارات الجاهليين وغاراتهم في الليالي الدامسة، وصرخات الثقفي اني لأرى رؤوسا قد أينعت، حتى الانقلابات الاقليمية التي تميد بها أرض العرب، وُلِدَ جيل الثارات المعاصر. جنس يمارس كالقتل. انقلابات. واتهامات تطعن كنصل خائن في الظهر، بينا فلسطين موطوءة ما تزال ترفرف في سمائها نجمة داود. ثم تقول لنفسك: الرجل الجاثي خلف مكتبه سيد قومه، والسيدان العابران فوق الارصفة أحدهما أرسطو والآخر لقمان الحكيم، والذي يخترق الشارع بسيارته الفارهة موسى بن عمران. والفراعنة يتجددون في العصر الحديث، بينا السائمة تعبر مغلولة

محكومة بالنفي والخروج بعيداً عن حركة التاريخ. ولكن من أين جاءت هذه الآلهة المزوّرة؟.

– منى أنا لست سيداً ولا بطلاً ولا نبياً ولا فيلسوفاً. لست أكثر من مارق فقير بلا أب وبلا أم، سقطت خطأ هنا. أعبر وحيداً قلب هذه الصحراء الملتهبة المجنونة بحثاً عن قطرة ماء.

– ألم تلتق بنبعك في الخمارات وفي جسد أمينة وناديا وتصوراتك المحرمة؟.

– أبحث فيهن عنك.

تقهقه: أي تعويض خسيس!.

وتبدأ تحدثني عن هجرات نائية وعن أوطان لا كذب فيها ولا خيانات. مدن مغلفة بالشعر والعمل يسكنها اناس بسطاء يبتسمون كالأطفال. يأكلون الخبز الناضج من عرقهم بدل لحم اخوتهم. يشربون النبيذ المصنوع من كرومهم التي زرعوها بدل دماء الاوردة. في تلك الأوطان يقطن الحب المقدس والعمل المقدس.

كانت تدنينا جميعاً نحن نسل النقص والحاجات العضوية. بعد أن خبرتنا شهوراً وسنوات ولم نتغير. ويوم ارتضت دخول غرفتي بمجانية لم أتصورها تحدث في بلاد الجوامع والطوائف، صحتُ من فرحي: منى أود أن أقذف بك نحو النجوم ثم اتلقاك عارية. أوسدك اضلاعي وبعدها أموت بلا أسف. ويومها تعانقنا بحرارة ما يزال طعمها في جسدي. فيما بعد أغلقت أبواب منى واستعصى علي الولوج. وفي لحظات انتهازية، وهي تقدم جسدها كحجر، كان الاحتقار يغمرني فأشعر بالتساوي مع سائر الذين عبروا هذا الجسد العظيم.

يقول راني الحزين: أيام عصيبة ستمر. أيام أشد حلكة من عصر هولاكو وتيمورلنك. السبي العربي هذه المرة. يشيل الغضب في أعماقي: نبوءتك تثبط العزائم. من أين تأتي بهذه اللوائح السود وهذه الأكفان؟ يتحدث عن العلاقات اليومية للناس. عن الكذب والصلاة والغش والأرصدة والنميمة والتبطل الذي طغى: احدهم يمضي سهرة لمدة ثلاث أو أربع ساعات وهو يثرثر عن الخضار واسعار اللحوم وآخر أنواع الطبخ، ثم ينتقل نحو الالبسة والازياء وانعدام الشرف العربي، ثم يحكي عن أسعار السيارات وغلائها بعد منع استيرادها. ينتقل بعد ذلك ليعدّد مناقب زوجته وقدرتها على ضبط مصروف البيت وجودة ترتيبها للمنزل ونظافتها. تصور هذا النوع من العلاقات يتم في زمن تهدد فيه إسرائيل بسحق العرب واعادتهم بدواً إلى

الصحارى. هذا مثال من ملايين الأمثلة الأخرى. وبعد ذلك تقول لي من أين لك هذه الأكفان السود؟!.

وأقول: المواطن ما ذنبه. لماذا لا تعبىء الدولة شعبها؟ المواطن معزول!.

– قد تكون القيادة مسؤولة. والقيادة كما قلت من هذه الامة. لكن المواطن هنا لا يهتم بغير تفاهاته الشخصية: وظيفة. أكل. سكر. رشوة. وساطة. مضاجعة. جمع الاموال بالطرق اللاشرعية. ثم شتيمة الدولة في الاماكن الخاصة. هل تضع لكل مواطن شرطياً أو موجهاً سياسياً؟!.

– أنا أرى أن مرحلة التحول الاولى للمجتمع، خاصة المجتمعات المتخلفة تحتاج نوعاً من الضبط القاسي الموجَّه. تغيير المجتمع لا يتم بمثل هذا التسيب. نحن نعيش في مجتمع متسيب. مجتمع ما يزال محكوماً بقوانين بورجوازية من الاسفل الى الأعلى. ينبغي تغيير القوانين والتشريعات البورجوازية الدينية قبل أي شيء.

– على أية حال. تغيير التاريخ والانسان لا يتم قبل مرحلة زمنية تستهلك جيلاً أو جيلين هذا ما أفهمه عن صراع الاجيال والتصاعد نحو الافضل، وخلال ذلك لن تنتظر اسرائيل. انها متقدمة علينا مئات السنين العقلية. وهذا الزمن زمنها.

– اسمع أنا أقول معك بفكرة الأجيال، لكن الثورة يمكنها أن تختصر الزمن. عندما تكون هناك ثورة حقيقية يولد شعب حقيقي. ويكون الزمن لها لا لاسرائيل. هذا هو قانون الارادة والشعوب.

نحو مجار أخرى ينعطف الحديث. يبدو راني فرحاً على غير عادته فيحدثني عن لينا وروايته. الرواية التي مضى عليه أربعة أعوام وهو ينحت فيها مثل فلاح يضرب في أرض محفرة. لكنه متفائل بها رغم القسوة التي يعاني منها: من الصعب أن تنشر هذه الرواية في وطننا. هذا ما احسه دائماً. سوف تفهم بطريقة مختلفة. كل ما في هذا الوطن موئس ومحزن. ينقبض وهو يتناول كأسه. يحتسي منه فينعقد حاجباه ويلوح العكر في مشيمة عينيه: لو كنت شاعراً لرثيت هذا الوطن بأبدع من مراثي أرميا وأنا أراه محمولاً على الراحات مضمخاً بالدم يوارى فينا. لقد قتلناه. نخبك ونخب الاوطان القتيلة.

بعد انقضاء السهرة في النادي الصيني، نسير فوق أرصفة الصالحية. ننعطف باتجاه شارع أبي رمانة. يضرب راني الرصيف وحيطان الابنية برأس حذائه. يخرج شبابته وينوح. يصير الليل مرثية. ننعطف. على نغم الناي يوصلني الى بيت أمينة.

يقول: سأجلس هنا على الرصيف اغني لك وانت تنام في أحضان خليلتك ما رأيك؟.

اعبر البوابة الحديدية السوداء بهدوء. اطرق الباب بينما ترتفع مواجع الناي في قلب الليل الجليل.

- ١٨ -

لقد أحب تلك السهول بالشغف نفسه الذي أحب فيه الله حتى صار جزءاً منها. حتى في الشتاء بنى كوخاً احاطه بورق قصب السكر الجاف وطيلة الفصل القارس نام فيه. وكان ينام معه على صوت الريح والمطر ودوي البحر. في تلك الليالي الموحشة روى له أموراً مبهمة عن الطبيعة والله والانسان والروح الحية في الاشياء واندماج الاشياء في حركة واحدة، وروى له أن روح الله قائمة في الريح والانسان والحجر والماء وهذه الروح خالدة لا تفنى.

وفي جميع الأصياف كانت السهول مخضرة. أراضيها والبحر. كانت لها رائحة خاصة شديدة الجذب، واذ كان الصيد والسمر الليلي والصراع مع الثعابين والوحوش تذكر، كان اسمه يثب عفوياً الى ذاكرتهم وهم يسمرون على حافة الساقية، يدخنون التبغ الرخيص ويتحدثون عن المواسم وعطش الأرض والاقطاعيين القساة.

من الغرب يلوح الافق البحري، وبين حين وآخر يسمع زقو النورس، هذا الطائر الذي لا يتعب من النواح والسفر من الجزر الى الشطآن ومن الشطآن الى المراكب التي أوقدت مصابيحها، وراح بحارتها ينشدون وهم يرمون شباكهم وصناراتهم المطعمة.

وفي تلك الليالي البعيدة الهادئة، كان يعبر فوق السهول وفوق خيام الفلاحين، طائر الكروان وهو يغني بعذوبة وحنين من فقد صديقه. وكان يسأله عن هذا الطائر الحزين الذي لا يعبر الآ ليلاً فيقول له انه يهاجر صوب الصحارى. ولا يذكر انه رآه يوماً. صوته كان يئن في أذنيه في أخريات المساء، وظل في نفسه شوق عميق لان يرى يوماً طائر الهجرات هذا.

ويسأله لماذا يهاجر في هذه الأيام فيقول: في الجزر التي يعيش فيها، تأتي طيور غريبة شرسة في مثل هذه الأيام، تحتل مساكنه وأراضيه بعد أن تقتل فراخه

وتطارده، فيهاجر خوفاً منها نحو الصحارى وهذا النواح الذي تسمعه هو بكاؤه على فراخه وأرضه الخصبة التي هاجر منها.

كانوا يتحلقون تحت الخيمة يحتسون الشاي التي أعدها لهم، يستمعون اليه في أمور الدنيا والدين بينا يتناول خمرته على مهل. ويسأله أحدهم: لماذا تتركه يأتيك بالعشاء وحيداً في الليل؟.

فيجيب بثقة: عليه أن يواجه الحياة لوحده. هل أدوم له؟.

— ولكنه طفل، والقط في الليل يزرع الفزع في قلوب الرجال.

ويقول: في قلوب اشباه الرجال. ثم يضيف معتزاً: هذا من صلبي. نسلي لا يخاف. جده قتل الذئب خنقاً بيديه وأنا قتلت الضبع بالعصا بينا البندقية معلقة في كتفي. ابن الفلاح الاصيل لا يهاب الموت لأنه يعيش مع الموت.

وكانوا يعرفون تلك الحوادث، ويعرفون انه روى ذلك أكثر من مرّة على مسامعهم. وعندما كان يثمل كان يُصاب بحالة من التصوف لا مثيل لها. وعرفوا عنه احتقاره للضعفاء من البشر والنساء والجبناء. كان يبدو قاسياً جباراً وهو يروي لهم حوادث قديمة عن الشعراء والقديسين، ويدافع عن أبي نواس كأعظم متصوف رحماني، وكان مثاله في القوة المتنبي. واذ يسألونه لماذا يحبهم كان يبتسم باحتقار: لم يكونوا كَذَبَة مثلكم ومثل شيوخكم الحرامية، ولا جبناء وتيوساً لا يفهمون من دينهم ودنياهم إلاّ ما تفقهون يا بُهْمَ السواحل الكسالى.

ثم يردف بصحو وثّاب: ورب الكعبة بامكاني الآن أن اخلق أفضل منكم. الاقطاعيون الكلاب يسرقون الماء والأرض أمام أعينكم. يبيعونكم ساعة الماء بمئة ليرة وأنتم كالخشب المسند لا تتحركون. انظروا الى هذه الآراضي كيف اصفرّت ويبست أمام أبصارنا ولا نحرك ساكناً.

— ماذا بيدنا؟ لقد اشتروا الماء من الوقف فصار ملكهم. هل تلاطم العين مخرزاً؟.

ويحنق: الدولة! الوقف! هذه مياهنا يتركونها تجري الى البحر واراضينا تحترق من العطش. بشر نحن أم حجارة؟ ونحن لو فينا ذرة دم لتحركنا. أنا اشارط اذا كان الدم يجري في عروقكم.

ويقول أحدهم: وماذا نفعل يا شيخ عبد الله؟ الاقطاعيون معهم القانون ونحن ما معنا شيء.

– معاولنا تشق الصخر فلماذا لا تشق رؤوس الاقطاعيين ومن معهم؟ الانسان لا يموت مرّتين. نموت اليوم لنولد غداً. الحق يؤخذ بالقوة والفلاح يظل مسحوقاً حتى يثبت انه قوي.

واذ كان يشرف على ربع السهارى والخيمة، من وراء التلال القريبة، ويرى الفوانيس المعلقة، يرحل خوفه فيكفّ عن الغناء. يشعر بأنه قوي فيقول في سره: أين أنت يا ضبع طريق السهول الذي أفزعتني أمي منه؟ وكالرعد يأتيه صوت أبيه، كأنما حدس بقرب وصوله، فيرد بقوة من اطمأن الآن: ها أنذا!.

– هيا يا شبلي هيّا. أأنت خائف؟.

– لا... لا. أبداً. مازقاً صمت الليل. يحس لصوته رعشة قادمة من صميم القلب. اذ ذاك ينظر اليهم شامتاً. يحتسي جرعة من كأسه ثم يقول بعنجهية مخمورة: هذا الشبل الصغير عندما ينمو سيسبي بناتكم ويدمي أولادكم العمش.

بصمت يرنون الى وجوه بعضهم البعض. يهزون رؤوسهم وفجأة ينفجرون بالضحك.

من الطرقات البرية الضيقة المزروعة بالغبار والشوك والحجارة، الى شوارع الصالحية وأبي رمانة والمهدي بن بركة. ومن الضواحي الفسيحة والازقة المسكونة بالحرية والوحل ورائحة العشب والتراب، الى ضفاف الارصفة العامرة بالبيوت الفخمة والفنادق والمقاهي والخمارات وأوكار النساء.

كذلك الحال من انطاكية وصفد الى بؤرة الثورة: دمشق الحبيبة، المتألقة، الثملة، الوضاحة، العاطية، فردوس الحالمين بالمجد والخلود، اختلط العالم واشتبك الوهم مع الحقيقة.

سطح حياتها كان يبدو رائقاً. وخلال لقاءاتنا لم يكن هناك ما يوحي بالقلق. لم تكن تمضي دقائق إلاّ ويضحك مسرور على نحو يوحي بالسكينة النفسية، واذ ذاك كانت مراسيم البلاهة تتضح. كان وجهه يوحي بهذا الانطباع، بينما تتسم حركاته بارتباك ظاهر، تكاد تنبيء عن خشية باطنية من وجودي.

سألتها: أيغار مسرور؟.

فردت هامسة: من الطير اذا عبر فوقي!.

– أخاف انه يغار مني؟.

– لا أعتقد.

– سأقول له ذلك جهاراً!.

كان مسرور يبدو فرحاً بهذه اللعبة. لم يكن يصدق انه اصطاد سمكة رائعة وان هذه السمكة له وحده وانها هنا في اناء تحت بصره. واعجب ما كان يثير الدهشة فيه انه لم ينبس يوماً بحرف عن فلسطينه التي هوت.

واذ دخل جبهته: غازلت ديانا في غيابك. ببلاهة مبتسمة يرد: خذ حريتك. أعرفها اكثر منك لا تعذب نفسك. نصيحة أخ لاخيه لا تعلق.

– لكنك تتركها وحيدة وأنا آتي في غيابك.

– يا جبل ما يهزك ريح.

– نمشي ساعات في الليل وأنت غائب.

– تسرد لي كل شيء.

– يعني رابط حقك بجميزة؟.

– الراعي وحده يعرف النعجة الجرباء من الصحيحة.

– أنت حر. لقد أعذر من أنذر. اذا ندمت يوماً لا تقل طعنوني في الغفلة!

كانت ديانا تبتسم خلال الحوار، وتدخلت أخيراً: لا تهتم مسرور، هذا انسان فضائحي بالكلام فقط. لقد حاول لكنني صددته. وغمزتني لترى رد الفعل.

وانتبه مسرور نافراً: ملاعين. أتعملونها في غيابي. ديانا. نحن اسلام هاه، وعند الحزّة رقبتك تُحزّ. وهرهر ضحكة صفراء.

وقلت: لا تغطّها. بيّنت. يعيش التقدمي الثوري المعاصر. يا...

واشتركنا معاً في الضحك.

□

في مساء ذلك اليوم قال الرجل التاريخي والد مسرور هازئاً مني ومن مسرور الغائب: أهذا جيل يحرّر بلداً؟ هذا جيل نساء وفلّينة وحكي.

كنا نجلس في ساحة الدار. وكان هناك عشب وجدار مرتفع وديانا تتشح بغلالة شفافة ممددة على كرسي من قش، مادة ساقيها العاجيتين. وفي وجهها حزن خاص.

وتابع الرجل القديم الجاثي قربي: عبد الله خان. هاه! قاد جيوش العرب ثم طعنهم في الخلف. طيب آمنا. اخواننا هؤلاء الذين زحموا الدنيا بالاصوات والتحرير لماذا لم يحرروها. اسمع أقل لك؟ شهاب الدين... عيب نكمل في حضور الحرمة. بدا نزقاً وهو يلوح رأسه بيأس. في جبينه بان غضب وراح يهاجم بصراحة مدهشة. بصدق من جرحته المأساة وخيل اليه انها اندلعت وها هي الجراح تتفتق. حكى عن المآسي التي وقعت والمذابح والمؤامرات والخيانات وحرب القسّام ضد اليهود والانكليز. وقال انه عصي في الجبال شهوراً وحاول الانكليز أن يرشوه ليكفّ عن حربهم، أعطوه مرتباً لكنه استمر في مهاجمة المصفحات والدوريات ببندقيته التي استولى عليها من العصابات اليهودية، وكانت معه «شبرية» ذبح بها ضابطاً انكليزيا برتبة كومندان. كان الانكليز يتقدمون نحو القرى والجبال بحثاً عن الثوار ووراءهم الدوريات اليهودية. كانوا يسلمونهم فلسطين قبل خروجهم. واذ كانوا يفشلون في العثور على المجاهدين، يهاجمون القرى الآمنة يدمرونها ويذبحون الاطفال والنساء كما ذبح النعاج.

وسألته: لكن الارض لماذا بيعت؟.

واحتد: كلكم يسأل عن ذلك. الذين باعوا الأراضي عائلات اقطاعية هاجرت من سورية ومصر ولبنان كآل سرسق وغندور وسلام والحلبي، أما الفلاحون فلم يبيعوا شبراً واحداً، لقد أُرغموا ودُفعوا على الهجرة بالقوة. قُتل من قُتل وطُردَ الباقي. أنت لم ترَ الارهاب الصهيوني والمذابح ومعسكرات الاعتقال.

وفجأة كشف عن صدره: انظر. واراد أن يكشف عن ظهره فاستحيا. ولاح صدره ممزقاً بأثلام عميقة بدت وكأنها التأمت لنفسها. كان الآن في قمة غضبه وقهره.

وسألته: لماذا استسلم؟ فقال: لقد طوقوني ولم يكن معي خرطوشة وقد تشتت شمل الثوار. ثم أردف وهو يزرر جلبابه: في الماضي كان يوجد رجال أما الآن. هه. أين الرجال؟ يا ابني عمري الآن ثمانون عاماً. اعطني بارودة من هذه التي تسمونها «الكلاشينوف». لا ادري ما اسمها وسوف ترى. في الـ ٣٦ حاربنا ببنادق من حرب الـ ١٤ من أصل خمس طلقات واحدة تطقّ، وبعد أن تحمى تشلح الرصاص على بعد متر.

وقلت: لكن هذا العصر لم يعد عصر البنادق. أصبحنا في عصر الصواريخ والنابالم والمخابرات.

فانتزق عاقداً غضبه: ماذا يفيد كل هذا أمام شجاعة الرجال. في كل العصور الرجال هم الأصل. صرنا في عصر الحريم يا ابني. المرأة هي التي تأمر الرجل والرجل ينفذ.

انجلت غمة ديانا فحاولت التدخل: ما دخل الحريم بفلسطين؟ انت رجل خرف لا تدري ما تقول!.

نظر نحوها ثم تحول اليّ: اسمع كيف تخاطبني. أنا كجدها وتتحدث معي هكذا. فكيف اذا ما خاطبت زوجها. أهذه زوجة؟ هذه فرعونة أجارَنا الله منها. المرأة في زماننا اذا ما تحدث الرجل تصمت. يقول لها موتي تمت. أما الآن فالعياذ بالله. اجرنا يا رب العالمين من هذا الجيل. وتمتم وهو يدرج لفافته: لا بد ان القيامة على الابواب.

كان الألم منشوراً على محياه، بينما حاولنا مشروع ابتسامة أنا وديانا على كلمة فرعونة.

[]

هو الحزن ثم اليأس، يزحمان نفسا قوية كالتيار، متوهجة كالغضب، عندما الزمن يأخذ بعقل كل الانفعالات، محوِّلاً الرجال المتأججين الى مجرد خرق مرمية في جبانة التاريخ. غير انه مكابر يحاول أن يخترق الزمن ويخطو. ومذ تشوش ذهن العربي احتمى بردود الفعل، وطعن أخيه ورمي الخسائر في ظهره، ما عاد هو في هبوب الزمن. ويقول محسوراً رافضاً: لست المنهزم. انما انتم الذين أوقفتم دائماً اطلاق النار عندما توقف العقل عن حيويته. وعندما تحولت الشجاعة الى تعويض صاخب ضد الاستعمار والاستراتيجيات والتحضير الثوري الطويل الأمد.

وهم الآن يقهرونك لأن دفة التاريخ بيدهم. وأنت ضعيف وفقير في هذا الوقت، تسكن الطوابق السفلى في حين يسكنون الطوابق العليا. يقولون للأشياء: كوني تكنْ. والذي يحصد خسران الوطن أنت، وبك أيها المخدوع الصغير تتمسح كل هزائم التاريخ، والذي قاله سامر البدوي عن روح الشعب صحيح. لكن الشعب كما قال راني غائب. وروح الشعب تسكن في الالم والتحدي. ولكن هل في تاريخ العالم ما هو أكثر ألماً وتحدياً من هذا الذي يجتاح وطن العرب في هذه الايام العصيبة؟ وحتام تنتظر هذه الروح حتى تخرج من منفاها؟ وهل ثمة لعنة مست تلك الروح فارتجت دونها الابواب حتى كادت تختنق؟.

ولأن تلك الأم كانت قاصرة وغبية كان يحتقرها. كانت حكاية النسل تعذبه. ولذا مذ بدأ يحسن المشي فصله عنها. كان يرفض أن يكون من نسلها الغبي القاصر. ولينشئه على هواه، روى له حكايات عن الصيد والقتل واختراق الوديان والليالي الثلجية. كان يصطحبه معه بعيداً عنها الى البراري والسهول، ومنذ بدأ يعرف التسديد اشترى له بندقية ودربه كيف يطلق النار على الطرائد، وكان يردد على مسامعه: النساء كالافاعي اسحق رؤوسها جيداً.

انه يتذكر الآن بوضوح كيف كان يضربها بكل قسوة ووحشية، بينما يتمزق ألماً اذ يراها مكومة تحت جسده المنحني. قبضته تنهال عليها بلا شفقة، وعيناه تبرقان لاهثاً كحيوان طعن للتو.

بجسده الصغير يحاول أن يحميها، وهو يبكي والضربات تنهال فوقها. واذ يتوقف، يسب ويبصق ثم يخرج الى أقرب خمارة لينفث ما تبقى من غضبه. في ذلك الزمن العميق المنسي، كان الصدع يبدأ تشعيراته الأولى فوق زجاج النفس، وبين الشعيرات كان الخوف والمقت، يرسمان معالم تهشيم الماضي والصلة المقطوعة بينهما.

وفي يوم قائظ طارد أفعى في حقل الذرة فقتلها قبل أن تصل وكرها. أفعى سوداء اصابها في وسطها فانشلت وراحت تتململ بوجع مادة لسانها الاحمر. بوحشية ضربها على رأسها مرة ومرة ثم تناول حجراً هرس به رأسها حتى خمدت لكن ذيلها بقي يتحرك. وتذكر كلمته بان حركة الذنب لن تتوقف حتى يطلع القمر.

بعد ذلك أمسك بذنبها وقاسها على جسمه. كانت أطول منه. سحبها الى السياج المجاور للخيمة ونشرها فوقه كقطعة حبل فبدت كأنها لم تمت. يومها وهو يعود الى ظل الخيمة شعر بخوفه وقد انكسر، وانه الآن رجل في نظر ذلك الفلاح القاسي الحكيم.

- ١٩ -

جيداً كنت أعرف تاريخها من الجميع. ويوماً ما لم أسألها عن التفاصيل. لكن أحزن الأشياء تخيّل كل واحد منهم انه ما زال يحبها في الوقت الذي يخونها مع كل مشرق ومغرب شمس.

لقد تجاوزت حزنها حتى الاهمال، وكانت تنبىء عن ذلك بقولها: الأوفياء الخونة يتحدثون عني في مجالسهم كسلعة في سوق النخاسة. يتاجرون بي ليستمروا.

وفي تلك الأيام تحدثنا بحرارة عن العلائق والزمن. وقالت بأنها كتبت قصيدة رمزية عنوانها الفصول. وقلت لها اقرئي لي شيئاً منها. وبسخرية مرة قرأت المقطع الأول:

«في الخريف تبدو الاغصان جافة،
كذلك الأرض
وفي الصيف تغور الينابيع تحت جلد الأرض
واذ يقبل الشتاء تشتعل الذكريات
وتنبثق
لكن الربيع يظل خديعة كاذبة لها روائح
سريعاً ما تتبدد».

وسألتها: هل تدركين جيداً ماذا تكتبين؟.

فردت: لست ساذجة كما تتصور. كل ما في الامر انني احاول بالشعر التعبير عن ألمي المكبوت. وقلت: بان حالة الشعر عندك فطرية لا واعية بحاجة الى شيء من الوعي. تعابيرك تتسم برومانسية ذات طابع طهري والعصر الذي نحياه عصر متأجج.

وقالت : قد أكون مثالية . لكن قل لي : ماذا يكون الانسان بعد أن يفجعه الواقع ؟.

– شيئاً آخر غير الارتداد الى النفس والدوران المركزي حول الذات .

– مغامرة أخرى ؟.

– أبعد من المغامرة .

– لكنني ابتليت بالمغامرين . هل اعدّهم لك ؟.

وقلت : لا . أعرفهم . ما قصدته حالة جديدة من الصحو والاستيقاظ أبعد من السلبية واللامبالاة وعشق الذات .

وقالت بغضب : عشقت وعشقت بما فيه الكفاية ، حتى صرت مومساً على شفاه هؤلاء الناس . في جميع الفصول خبرتهم وماذا كانت النتيجة ؟ ابنة مرمية في الجنوب وزوج قتيل ثم عشاق سكارى ونرجسيون يبحثون عن ملذاتهم ، سفلة وسفاحون غارقون حتى رؤوسهم في امتيازاتهم . وجوه متشابهة . كلمات متشابهة . ساحات حرب . زيف . كذب . ضوضاء . بيع وشراء . وبعد هذا تسألني عن الحب العفوي . الحب النابع من القلب ؟.

كالريح تعبر البحيرات ، مكونة خلال هبوبها أمواجاً . كالبط يهاجر موسمياً من مناطق الدفء نحو المناطق الباردة ، هكذا تبدو رحلة العبور فوق دمشق المسحورة : وطن منى والخيبات .

وغير الروائح ، غير الماضي المورق بالحزن ، وغير العجز ، لا يبقى خلال هذه الرحلة .

هوذا المطر . شوارع مبتلة وشجر عارٍ إلا من الأغصان الشبيهة بالأضلاع ، تشفّ تحت المطر المضاء ، وفي الذاكرة تذكرات تمضي . صور وأطياف للحظات عبرت لا تعود . حزن باتساع هذا الفضاء ولا شئ آخر . وعن الفرامل تُرفع الأرجل فتمضي سيارة وائل ، والزمن القاتل هو السيد بلا منازع .

كان مضيّنا مثيراً للشجن في تلك الليلة الممطرة . المسّاحتان تتحركان بآلية رتيبة مضجرة . مُسَهبان فوق إسفلت زلق على طرفيه أشجار . وكعادته كان موثقاً بماضيه المستلقي في قرارته . في ذهنه مليون حكاية حدثت أو هو مستعد لاختراعها ليثبت أنه شئ خاص متفرد في هذا العالم . وماكان في ذهني أي شئ إذ ذاك يستحق الاهتمام .

وخرج عن صمته . تحدث عن القذارة والخيانة والجنس كيف يسد بوابة الإبداع في الإنسان العربي ، ثم السياسة تفريغاً عن حالة الجنس المحتقنة . كانت سرعة اندفاع السيارة أو تباطؤها يتناسبان مع الحالة الشخصية . وبدا مدركاً على نحو غوغائي القصور العام للأشياء ، لكنه لم يستطع أن يوضح ذلك . تناول الحزب والدولة والإنسان وقال : لا جدوى من كل ما يحدث . يبدو أننا مخدوعون ومسوقون كسائمة في تيه ليس له تخوم .

وسألته : لكنك تستمر وأنت تدرك ذلك ؟ وإذ فجأه السؤال ابتدرني : ما العمل ؟

وحوم في الذهن السؤال : من القرية إلى دمشق ومن دمشق إلى القاهرة ، ومن حطين إلى عصر الإنقلابات الصاخبة : ما العمل ؟

كان الجواب غامضاً بقدر ما هو واضح . ممكناً بقدر ما هو مستحيل . ولوهلة بدا وكأن العرب بانتظار معجزة كتلك التي حدثت يوماً في صحرائهم في الزمن القديم ، لكنها لن تكون سماوية هذه المرة .

وسألني : جيلنا هل يستطيع ذلك ؟

– في أي جيل إذن ؟

– ربما في جيل آخر سيأتي .

ونخرت رافضاً أن أكون ضحية . وقال : نحن ناقصون .

وقلت : يمكن سد هذا النقص . لسنا أكثر نقصاً من الصينيين .

وقال : حتى يسدّ هذا النقص نكون قد مضينا .

وقلت : عندما تكون هناك ثورة تحدث المعجزة . ينكسر زمن ويبدأ زمن آخر .

تأفف : إنك تتحدث أبداً عن الثورة ، ما هذا الذي نحن فيه إذن؟
قلت ساخراً : وما قتلوه وما صلبوه لكن شُبِّه لهم ! .

[]

جدّ جدّ جدّه ، هزم الرومان والصليبيين والأتراك والطليان والانكليز والفرنسيين .
- والأميركان والصهاينة . هل يخرج لهم خالد وصلاح الدين وعمر المختار وعبد القادر

الجزائري وحسن الخراط من القبر؟

ومن محيط الوطن إلى خليجه ، كان البسطاء يدركون كيف يمكن أن يُهزم الغزاة ، لكن القليل من المتنطعين لقيادة العصر والإنسان كانوا يدركون أين يكمن سوس الإنقراض !

وهؤلاء بالذات ، كانت حبال السلطة قد أوثقتهم وحرمت عليهم تخطي الحدود بغير جوازات سفر موقعة من المؤسسات التي اخترعوها لتكون السد بين العربي ووطنه. لقد انعطبت ذاكرتهم.

منذ سبعة عشر عاماً وهو ملقى. قعيد البيت منسي. مسجى على فراش وثير، حاملاً بين ضلوعه المطعونة كل الحزن وكل القهر وكل العجز.

– وائل...

ويهرع إليه. يسأله : من معك ؟

فيجيب : صديقي شبلي.

– دعني أره.

ويطلبني.

ولأول مرة في حياتي أراه. غمرة من الرهبة والجلال والحزن العميق تنتشر في داخلي. جاهداً يحاول النهوض ليسلم فأرجوه ألا يفعل.

أحس بقبضته القوية تجمع أصابعي تكاد تحطمها فأسحبها. ويطلب إلي أن أجلس قربه.

المطر يزخ في الخارج بخفوت يثير الوجع ، والرجل الذي بدا صحيح الجسد وهو ساكن ، يبتسم ويسألني عن أحوالي وصداقتي مع وائل وأحوال الوطن. باقتضاب أجيب وأنا أتملى وجهه الخابي الوميض وعينيه الواسعتين وشاربه الكث وصدره العريض.

كان نصفه الأعلى مرفوعاً قليلاً يستند على مخدتين بينما النصف الأسفل ينساب تحت اللحاف ، ومن طرف خفي كنت ألمح ذلك النصف الميت.

من السرة حتى الرأس كان يتحرك ، ويتحدث بحيوية رجل صارع الحياة وما خاف العواقب. وقال بمرارة : لكن الإنسان يقع أخيراً كما ترى. الجسد يخون الإنسان في النهاية.

وسألني إن كنت قد خدمت في الجيش وفي أي مكان ، فقلت بأن خدمتي كانت في القطاع الشمالي من الجبهة. شعرت بنظراته تخترق جدران الغرفة ، بينما لاح في وجهه ظل من أسى قديم. وقدم وائل ومعه القهوة. وقال لوائل : دخن. دخن ، وقدم لصديقك مع القهوة. وقال وائل : لا عليك بابا.

والح عليه أن يدخن ففعل محرجاً وقدم لي ، ودهشت أنه لا يدخن في حضوره.

لم أكن أدري كيف أثيره ليحكي لنا شيئاً من ذلك الماضي الذي عاشه في معارك حية ، رغم أن وائل حدثني قليلاً عن ذلك وفي كتب التاريخ والبيانات السياسية قرأت حتى أتخمت.

وقال وائل : بابا. صديقي يعرف عنك قبل أن يراك !

وهز رأسه دهشاً : وماذا يعرف؟وقلت بسرعة : أنك أحد أبطال فلسطين.

وقال : بل قل أحد الضحايا.

وهمهمت : الضحية بطل مزدوج.

وهز رأسه : ولكن ما الفائدة !

وسألته : هل تعتقد أن فلسطين ضاعت بالخيانة أو الجبن وهل تعود؟

وببطء رفع نصف جسده. لم يكن ينظر إلينا عندما بدأ يروي عن بداية الحرب ، والتقدم المتواصل بلا مقاومة من جسر بنات يعقوب إلى كعوش ونجمة الصبح حتى صفد. حقول الألغام تفجرها أجساد الرجال. أصوات : الله أكبر يا فرسان العرب النصر لكم تقدموا فاليهود يفرون أمامكم.

كانوا يخلون القرى والزحف مستمر. كنت قائد فصيلة مشاة ، والأسلحة قليلة وكذلك الذخيرة ، لكن عزائم الرجال وإيمانهم كانت من فولاذ. بنادق من مختلف الأصناف. خناجر وبواريد صيد وفؤوس لكن كان هناك رجال بالمعنى الصحيح يأكلون الأرض ويخيفون الموت.

كان يضغط على الكلمات محركاً قبضته أحياناً وفي عينيه بريق ولدته الآن ذكرى المعارك. وروى كيف دخلت الجيوش العربية في أيار من ذلك العام الأسود.

العام الذي أصبح تاريخاً كعام سقوط القسطنطينية وبغداد، وأن دور المجاهدين أصبح ثانوياً بعد دخول الجيوش العربية.

تفاءلنا. أصبح النصر مؤكداً. أربعة جيوش بدأت زحفها من أطراف فلسطين وقائدها الأعلى الملك عبد الله وقائد العمليات كلوب باشا. وتواردت الأخبار وانتشرت بأن اللقاء سيتم في تل أبيب وانتظرنا. وكانت النتيجة ما حدث.

وبدا الآن حزيناً منهكاً. طلب لفافة فأشعل له وائل فزفر الدخان بغضب.

عندما كان يحكي لم تكن له ملامح مميزة. وجه حزين ومقهور، وبصعوبة كان يتحرك. وخلال ذلك كان وائل صامتاً كحجر يعصر يديه ببعضها البعض، زافراً تنهداته مع دخان اللفائف التي استهلكها، ومعظم الوقت مطرق نحو الأرض وسألته: لكنك لم تجبني تماماً عن سؤالي. أعني الجبن أم الخيانة؟ وقال بوثوق: كنا بحاجة إلى فصيل انتحاري عندما اصطدمنا بحقول الألغام ولم تكن لدينا كاسحات ألغام. كان لا بدّ من شقّ طريق للجيش المتقدم عبر هذه الحقول. تصور أي نوع من الرجال كان اولئك الذين تطوعوا وهم يعرفون انهم سيموتون. بالرتل على عرض متر كانوا يتقدمون. اثنان اثنان على خط متواز. وبدأت الانفجارات وشظايا القتلى تتطاير مع أصوات الله أكبر. هذا ماذا تسميه؟

— بسالة خارقة ولكن هل هي منطقية؟

وقال: معارك بيرل هاربر وانقضاض الطيارين اليابانيين على الأسطول الأمريكي في الباسفيك منطقية أم لا؟ ثم هل كان لدينا كاسحات ألغام في ذلك الوقت ونحن بأمسّ الحاجة إلى خرطوشة؟

— لكن كانت هناك فوضى لا مثيل لها. لقد خيضت تلك الحرب على غرار حروب الجاهلية القديمة. الحرب لا تكسبها الشجاعة فقط.

ورد: هذا صحيح. لم يكن هناك تنظيم. كنا نقاتل بفصائل وكتائب لا ارتباط بينها. ولكن كانت هناك الخيانة والأسلحة المتخلفة والفاسدة. كانت القيادة العليا متواطئة مع الإنكليز واليهود. فكلوب باشا سحب قوات الجيش الأردني التي كانت مرابطة في اللد والرملة بحجة الهدنة الأولى التي تمت في (١١) أيار، قبل عشرة أيام من الهدنة ليتيح لليهود فرصة التأهب لاحتلالها. لكنه أخلف

وعده عندما استؤنف القتال في (٩) تموز فسقطت اللد والرملة. وكان القصد من ذلك تنفيذ أوامر الملك عبد الله الذي أراد توسيع حدود مملكته على حساب تقسيم فلسطين مع الصهاينة، ولكي يحقق ذلك لم يسمح للجيش العراقي بالتدخل، فبقي مجمداً حتى غادر فلسطين. وتحققت هزيمة الجيش المصري بعد تسليم اللد والرملة حيث انكشفت ميمنة هذا الجيش. كما سحب عبد الله الكتيبة الأردنية التي كانت ترابط في النقب ففتح بذلك الطريق أمام الصهاينة ليحتلوا العقبة، وعلى هذا النحو عزل الجيش المصري في منطقة الخليل وقام سور من القوات الصهيونية بين مصر وما تبقى من الضفة الغربية، لقد عرف الصهاينة تطلع عبد الله لحكم المنطقة الباقية من فلسطين، وطلبوا منه المثلث مقابل اعترافهم بالوفد الأردني متكلماً باسم الجيش العراقي في مباحثات الهدنة برودس، وقد قبلت الحكومة الأردنية بذلك. وهكذا استطاع الصهاينة البقاء في القدس واحتلوا اللد والرملة وتوسعوا نحو الجنوب فاحتلوا العقبة بعد النقب. خلال أيام تمكنت الجيوش العربية من احتلال القسم الأكبر من فلسطين، لكن هدنة الخيانة أضاعت كل شيئ فيما بعد. أنتم تعرفون ما تبقى. وبقسوة سحق عقب اللفافة في المنفضة.

كيف تذكرت منى. ووالد وائل الأسدي يسرد التاريخ الأسود، لا أدري! كان المطر ما يزال يهمي، وجو الغرفة مغلف بالدخان والأسى العميق، وتنهدات وائل المقهورة تصّاعد بين حين وآخر.

عدلتُ عن سؤالي الأخير: هل تعود؟

وأنا أرى منى منفية عن دمشق، ووائل يضرب بعنف وجوه وصدور ورقاب الرجال، والنساء على السواء دون شفقة. وإذ خيم الصمت وثبت إلى مخيلتي صورته محمولاً فوق محفة نحو مركز إخلاء الجرحى، ثم حضر وائل.

لم يكن يسمع صراخهم. وجهه قان مهتاج. والوجوه والصدور والأرجل تتشنج ثم ترتعش ثم تسقط اعياء وأحياناً تودع الحركة إلى الأبد. جرحى ومشوهون وموتى، خرجوا من تلك الأقبية المظلمة. بالأكف والعصي وأشرطة الكهرباء والأسياخ المحماة، ضُربوا. وكانت أصواتهم تتخامد وتمتصها الجدران. الحجّاب بجدهم الذين أذلّهم رعب ما يحدث، سمعوا الصراخ. وكان هو هناك على كرسيه الهزّاز بين عشرات معِدات التعذيب وآلات التسجيل والهواتف والأرائك المريحة،

يدخن ويحتسي الويسكي ويسمع الموسيقى، كان هناك بوجهه القاسي المعجون بالغطرسة ومرارة الماضي. لا يعرف الابتسام أبداً.

- ٢٠ -

كان الإتجاه الآن شوارع المدينة التي لم تُرتَدْ بعد، أسفل قاسيون حيث يفترض الأمان من العيون. وما كان أحد ليصدق أن فرق عشرين عاماً بين كل منا نحن الثلاثة يعني الأمومة أو الأبوة. وعبر الشارع الخالي بدأت سمية تنط كأرنبة اجتاحها فرح آمن.

نلج شارعاً آخر خافت الضوء مسيجاً بالياسمين والخلو الإنساني. في الظلمة نحاذي عرائش الياسمين. أمسك أصابع يدها اليسرى. أضغط فتضغط ويهزني وجع جسدي، فأهفو احتضانها في هلام الظلمة مثاراً بعبق الياسمين. سمية تقبل واثبة امامنا فتنحدر ذراعي عن خصرها. تقطف زهرتين تناول أمها وتناولني. تغنج قربنا: سنسمي هذا الشارع... ماذا ماما؟

وتضحك أمينة. ترفع كتفها خبثاً: لا أدري. سمّه أنت! وتضغط أصابعي فأقول: شارع الروائح. يفتر ثغر سمية فتقول: لا. شارع العشاق. ثم تقفز مبتعدة. الشارع ذاته سرنا فيه. في هذه النقطة حاولت تقبيلها. كنت أرتعش من الخوف وضوع الياسمين وذكريات مني. أذكر أنني أوقفتها قرب هذه العريشة، ورحت أتملى وجهها الناعم العذب وشفتيها المندفعتين بتحدٍ سافر نحو الأمام. كان خداها بين راحتي كفي. وعيناي مثبتتين مباشرة في عينيها المتقدين في الظلمة، وكان نحرها يلمع تحت انعكاس الرغبة. وفي تلك اللحظة كنت أحبها، وفي تلك اللحظة لم تكن هناك خيانة. فقط كان الخوف من شيء مجهول سيسبب ألماً في المستقبل. كانت بشرتها حارة تحت أصابعي، وثدياها يرتجفان خوفاً وشهوة وتوجساً. وتمنى كل منا أن يحدث ذلك الشيء الخاطف العذب. وفي تلك اللحظة تبدت عاشقة باستسلام لا صفة له. كان كلانا يرتعش.وكان تعارفنا طفلاً لم يعرف الملامسة بعد. بدونا كأنما نولد في هذا العتم الخاص. وتمنى كل منا لو يعود سنوات إلى الوراء. يدير

عربة الزمن نحو الاتجاه الصحيح. كنا صامتين في مدار الزمن. وفجأة سرنا كما قبل الثواني التي عبر فيها هذا البرق، وبيننا مشى الحزن.

ها نحن قرب سفح قاسيون، أمام حديقة نفتش عن مكان للتسلل داخلها. أطلب من سمية أن ترصد حركة الحارس الليلي. تقول سمية لنثب فوق السياج لكن أمينة تحس بالحرج. ونتوقف.

دمشق تحت أبصارنا. مرج من الضوء الملألأ والسطوح الحجرية. أقطف زهرة أناولها أمينة. تشمها، ثم تقبلها. وبحنو عاشقة تنظر نحوي وتتأوه. أرفع بصري إلى وجهها المغضن وجسدها الصلب فينتابني حس الاثم. أحدثها عن السفر فتقول بأنها على استعداد للسفر معي الى أي مكان في الأرض. أقول بأن أمامي مستقبلاً ولن يطول غيابي. فتلتفت مذعورة: هل ضجرت مني؟

أكذب. معها كنت أكذب عدا لحظة المضاجعة. لا أستطيع أن أفهمها معنى الضجر، ولا معنى خيباتي في دمشق. ومعها اشعر بأعباء اللغة. ولو قلت لها: بأنك صدفة. مجرد اعتراض مرضي اعتراني في غياب منى. لفهمت مني بأنها شيء لا قيمة له. وكان ذلك كافياً لتحطيمها. وستقول أيضاً: هكذا الرجال إلى أن يحصلوا على المرأة عبيد وبعد ذلك يلفظونها. كلكم كلاب وسفلة.

كان صعباً حتى الاستحالة إفهامها معنى النقص الحسي والنفسي في الرجل والمرأة. وإذ غرقنا في حديث السفر والرحيل عن دمشق شكّت بأن ذلك تبطين للهرب منها. وما كان ذلك صحيحاً تماماً. فقد بدت الأيام الأخيرة مشحونة باليأس. وعادت الأفراح القديمة حول الاغتراب والإكتشافات الجديدة خارج الوطن، تدندن. كان ذلك حلماً قديماً عشته زمناً قبل أن تَفِدَ دمشق. وكانت أمك تسميه: الموّال الذي يدوم في رأسك وستغنيه يوماً.

لقد عاد الموّال القديم. أحسه الآن يزغف من جديد طالعاً من جدران الذاكرة، مدفدفاً كالموج بعد أن باشرت دمشق انسحابها وبدت الاكتشافات وآمال الذهن ومنى، مجرد أسطورة صاغها خيال طفل ريفي مهاجر، كان يبحث عبثاً عن أمان وينابيع وحب وحرية وشموس لا تغرب.

هي ذي أمينة تحفّ بي. سمية تجري فوق الرصيف. تقترب حيناً ثم تبتعد عنا. نسير بصمت. من بعيد تلوح مدن غريبة. مدن فيها ناس يحملون وجوهاً

جديدة أود أن أعرفها، لغات أتمنى لو أتعلمها. حضارات، علائق وقيم مختلفة، وكتب لم أقرأها. بعنف كنت أهفو للخروج من هذه المدينة العتيقة، لأن أجري صوب تلك المدن الغريبة.

اكتشفت سمية ثغرة في سياج الحديقة فهرولت تخبرنا. ودخلنا.

كان الناس يمرون رانين بدهشة إلى هذه الأسرة المستلقية بلا مبالاة فوق العشب.

وقالت سمية: الناس لماذا يحدقون فينا وكأننا لصوص؟

وسألتها: أنت ما رأيك؟

وأجابت مباشرة: الناس سيئون.

قلت دهشاً: سيئون! لماذا؟

– لأنهم يشكون بالاخوة.

وقلت: ولكن. هل نحن أخوة؟

قالت باستغراب: نحن أصدقاء وأهل فلماذا يأكلوننا بعيونهم؟

ضحكنا معاً: عيونهم جائعة. سامحيهم سمية!

وخرجنا.

اتجهنا نحو البيت. صوب جامع أيوب السرحان حيث يقيم طقوسه مع الخمر والزمن، منتظراً عودة المرأة التي أخلصت له كل سنوات ما قبل اليقظة.

[]

عندما احتوتنا الغرفة في تلك الليلة، كانت حيية راغبة، لكنها كانت خائفة من الشكليات، وكنت مصمماً على إيقاظها. وفي تلك الليلة حكت لي بأنها محسوبة على رجل لا هم له إلا الخمرة والدوار خارج البيت. رجل منحرف يعاشر سفلة الناس في الأماكن المشبوهة والخمارات. يبدد أمواله على ملذاته ولا يعنيه بيته. وأذكر أنني قلت لها أنت إنسانة ولك حياتك لا تبالي به. عيشي عمرك كما ينبغي لامرأة جميلة مثلك. حدث ذلك في الشتاء، والمطر يرن على النوافذ والريح تخفق بالستائر الحمر فتماوجها على نحو عذب مثير. وكانت قبالتي، وجهها متألق بفرح جديد، وجسدها مستلق داخل ثوب النوم المشجر. جسد خيل إلي بعد أن روت

حكايتها المؤسية مع زوجها، انه قد مضى عليه دهر من الاغفاء ولم يلمس. وقلت بعد أن شربت القهوة: أمينة أنت امرأة فاتنة ومظلومة. وابتسمت بخفر خافضة بصرها نحو الأرض. في الليلة ذاتها عانقتها. في البدء مانعت كأي امرأة شرقية، ثم استسلمت بكل الريح المحتبسة من قرون داخل جسدها. حدث ذلك وأنا أودعها خارجاً. ضغطت على أصابعها فضغطت هي بدورها. تراجعت عن الخروج. بهدوء سحبت كفي. وضعتها على كتفها ثم ما لبثت أن انزلقت نحو ظهرها. كنا نرتعش وقد صار جسمها الآن بين ذراعي، وكنت أحس ارتعاد جسدها الطري الأملس تحت أناملي، وإذ دخل وجهي تحت دغل شعرها المنساب، والتصق خدانا، هبت رائحتها الأمومية المهيَّجة.

على الخوان قبلتها بشغف وعذوبة، على شفتيها وعنقها وخلف أذنها. وفي تلك اللحظة بدت مسحورة، ملتهبة كحجارة الصيف. كانت تتنفس وتئن بكل جسدها الذي هُجر. وفيما بعد مَنحت كما ينبغي لامرأة عاصفة تعرف العشق لأول مرة.

[]

هكذا دمشق المدينة التي لا تنسى. المدينة التي تحن إليها بعد أن تغادرها بزمن قصير. امرأة عذبة حارة لا تعوض كما عبر سامر البدوي، كاهن الجنس: تسحبك يوماً إلى مخدعها، تعطيك ما ترغب، وفيما بعد تصبح ممسوساً. ثم لا تلبث هي أن تبدأ بالانسلال والهجر بحثاً عن فريسة جديدة فتية.

ولم يكشف أحد السر.

وقبل مملكة أيوب السرحان تقوّضت ممالك.

وقالوا أنها ملعونة أبد الدهر.

وقالوا أن دم هابيل يصرخ.

وان أرواح الأنبياء الذين هلِكوا في مغاور الجوع تهيمُ في ظلال قاسيون مطالِبَة بالثأر.

وقال ذلك الفلاح الحكيم: انهالعنة. رأيت في الحلم أصابع يدي اليمنى الخمس وقد قطعت بفأس، قطعتها يد أخي، وسألته لماذا فعلت ذلك؟ فقال تنفيذاً لوصية الجد الأكبر. قبل أن يموت لعننا وتنبأ لنا بأيام سود ستباع فيها الأراضي

ويكون اقتتال ويكون جوع وجور وقلة دين وسأموت مسموماً. أنظر إلى هذه الأراضي كلها كانت للأسرة. باعوها واشتروا بأثمانها خمراً ونساء وزندقة بعد أن هاجروا وسكنوا المدن. وفي معظم الليالي كانت روحه تحوم فوق هذه السهول. وقبل الفجر يأتيني بعمامته البيضاء ووجهه الحزين. كنت أرى السمّ واقفاً تحت جلد وجهه.

لم يكن يحدثني. كان يقف فوق رأسي كشاهدة قبر وأنا أرتجف. سمموه ليسرقوا الأرض. اكتفى بلعنهم وهو يخرج من منازلهم. في الطعام وضعوا السمّ ولما أحس بسريانه عبر دمه صاح بخادمه: هيا يا شدّود. هيا. على الرف يوجد دواء داخل زجاجة خضراء تأتي به وتعود كالبرق. ما عاد بإمكاني أن أسير. خذ الزرقا يا شدّود وسابق الريح. وقال شدّود: ما الأمر يا سيدي؟ وقال جدك لخادمه: السمّ يا شدّود. هيا. الكلاب سمموني.

وانطلق الفتى يخترق الريح. ودّ لو يطوي الأرض.

وهو يروي كان حزيناً. قال بعد صمت: مات جدك هناك بين الأعشاب. عندما عاد شدّود رآه وفي فمه حفنة عشب وتراب.

كانت له رؤى القديسين. لكنها كانت قديمة ومشوّشة. كان يتحدث وهو بين النوم واليقظة عن عوالم غريبة كأنما يخاطب أرواحاً. يحكي في صمت الليالي تحت ضوء القمر عن أزمنة غبرت. الخير والشر. الحلال والحرام. الكتب السرية ونبوءات المستقبل. كان يقول بأن قطع الأصابع الخمس تعني شيئاً آخر غير الأصابع. فالأصابع تشير إلى الوقت، وقطع الوقت يشير إلى الغياب، وأول إصبع قطعت هي رأس الحسين في كربلاء، والثانية تشير إلى الكتب التي رُميت في نهر دجلة. عندما تنمو وتكبر إقرأ أبا نواس وابن عربي وابن الفارض وابن سيرين. وسألته عن ابن سيرين فقال: عالِم جليل يفسر الأحلام بغير ما تظهر في الرؤيا.

إن ذلك ليبدو الآن مثل ضبابة. أحاول استعادته فينزلق. محض طيوف تشبه طيوراً لا تُعرف أسماؤها. كان يهجس عن رجل غريب يخرج من عين الشمس ومعه رجال قلائل. رجل لم تعرف الدنيا مثله. عندما يأتي يصيح بالقوم صيحة يسمعها أهل الأرض والسماء. يكون ختم اللعنة وسيف الله. ذلك الرجل سيعيد الحق إلى نصابه. يجمع الشتات ويكون له في الأرض دوي. يمتطي فرساً بيضاء

وعليه جبة خضراء. يعبر الصحراء شاهراً سيفه والقوم وراءه. بسيفه يقتل الأعور الدجال وفي الجبال والسهول يتشتت شمل اليهود. يختبئون وراء الصخور والأشجار فتصيح كل صخرة وكل حجر: يا عبد الله. هذا عبراني ورائي. ذلك يكون نهاية عصر التسمم وبداية عصر مضيئ فتعم المسرة والسلام أرض الأنبياء إلى الأبد.

[]

صرح السيناتورميناحيم بيغن (للنيويورك تايمز): «لم يعد هناك ما يسمى بفلسطين بعد الآن. فأرض إسرائيل التاريخية لا تتسع إلا لشعب واحد هو شعبها اليهودي، وعلى هذا الشعب أن يعيد مجده القديم بقوة جيش الدفاع الإسرائيلي وعلم النفس.

– ماذا تعني بعبارة علم النفس؟

– الفهم السيكولوجي التاريخي للعرب. أعني النشاط الفعّال لشعب حيوي خلاق مقابل الكسل والضوضاء اللامجدية لشعب مؤهل للانقراض.

– هل تعتقد أن بالإمكان إزاحة ملايين العرب من أرض جذور حضاراتهم فيهاراسخة وقديمة؟

– إنني أسألك بدوري كيف أزحتم الهنود الحمر؟».

وفي مساء ما تطور الحوار بيني وبين ديانا حتى شارف حدود البوح. وفي ذلك المساء أعلنت رفضها الحاسم لأي تماس مادي بيننا. وأحسست بأن ذلك الرفض لم يكن نابعاً من الضمير الأخلاقي المستكن في نفسها. فقد بدت الخيانة غير مجدية وهي ستؤدي إلى الكثير من الغم والتأنيب الإجتماعي. وإذ حاولت مهاجمتها بأن العلاقة الكاذبة بين اثنين تبدو أكثر خسة من الخيانة الحسية، اكتفت بالقول: مسرور إنسان طيب القلب ويقدم لي ما أريد.

ولما تحدثنا عن الحب، قالت بازدراء أنها تمقت حتى الموت تلك العملية التي وصفتها بالقذارة. ثم أضافت بأنها نوع من الافتراس الحيواني. وأوضحت لها أن في الأمر خطأ، واننا في الشرق ربما كنا نمارسها بشكل وحشي. لكنها في أساسها ليست هكذا. ونحن لما نصل بعد إلى فهم الاتصال الجسدي كطقس طبيعي يشعر

به الإنسان ويقوم به كما يقوم بالاستحمام أو الطعام أو شرب الماء بعد ظمأ، وانه يعطي إحساساً مغبطاً بالراحة والصحة.

وسألتها: أنت مثلاً امرأة كل ما فيك ينضج بالاشتهاء والعذوبة فأي ضير أن يشتهي مسرور النوم معك فتتواصلين معه بمنتهى العفوية؟

وقالت بان مسرور شديد الهياج وهو يطلب ذلك دائماً وأنا أشعر بألم حقيقي إذا عجز عن بلوغ حالته.

– لكن من الصعب على كل رجل أن يفهم حالة الفصام هذه. يريد من المرأة أن تكون امرأة بالمعنى التام للكلمة.

وصمتت. وضعت راحة كفها على خدها، وبدت في سهوم وضيق.

– هل تشعرين بمرض ما. قولي ديانا. عليك ألا تخجلي مني؟

– لن تقول له؟

– لا.

– أنا أنتشي بالمداعبة فقط. عندما يقترب ذلك الشيئ اللعين أشعر بالاختناق، أرى مسرور وقد تحول من إنسان طبيعي إلى حيوان. تنتفخ عروقه وهو يلهث. يهجم علي كأنما يريد افتراسي. في رأسي تدور الدنيا فيتجسد أمامي وحشاً بأنياب وأظافر. ويبدأ ألم لا حدود له يمزق جسدي. ذلك لا يطاق. لا يطاق!

وتتبدى في حالة غريبة مماثلة لحالة الفعل ذاتها، فأحس بأنها أفصحت أكثر فأشعل لها لفافة. ومرة أخرى يرتمي الصمت. على الجدار أرى الصليب فوق خزانة الكتب يهتز داخل غشاوة عيني، وتبدو المرأة العالية في الشفق ممددة على الصخور في حالة نزع.

أحضر كأساً من العرق أمزجه بالماء وبهدوء أحتسي. يومها كانت غارقة في الكنبة مستسلمة في ذهول خمنت أنه نوع من التأنيب. بعد لحظات تحدثنا عن الماضي والأهل الذين غادرتهم، ومدينتها والبحر. وبشغف خاص راحت تسرد ذكرياتها عن الطفولة والجيران وأبويها والغربة.

حكايا عادية تشبه شروق الشمس وغروبها. وأيام متشابهة بين بشر متشابهين.

كلمات وحركات لها بدء ولها نهاية وبين هذه الحكايا كانت تسرح. زواج. طلاق. اعتراضات طلبة مراهقين يرمون كلمات غزل. وصديقات يثرثرن عن الفساتين والأحذية ويهزأن من المراهقين. ومع الزمن يتراكم هذا النسيج كما تتراكم الطحالب فوق الصخور البحرية.

ذلك كان وجهاً آخر من عالم ديانا التي اقتلعت يوماً عن شاطئ البحر من بين أسرتها لتكون زوجة وفية لهذا الفلسطيني التائه.

[]

في جميع الأمكنة كان الشرق بشطريه الرومانسي والواقعي، شبيه سراب في صحراء شاسعة. يستغرق العمر ولا يُطال. والجيل المنبثق يحاول أن يكون، فيتجزأ في بحثه عن الأمان والسرية. عن امرأة هي الأرض حيناً وحيناً آخر المطر أو العقيدة. وإذ يتصدع يعود مقسوراً، فيمضي ما تبقى من العمر كذبة ضائعة في سفر الزمن الخادع.

– كله كذب في كذب.

وأقول لمنى: لا. منى. لا. شيْ آخر. ربما كان البحث عن الهوية المفقودة في مطاوي التاريخ.

فتقول: أبداً تكذبون. كلماتكم. سلوككم. ثيابكم. جلودكم. ماضيكم مستقبلكم. في دمائكم يجري الكذب. تأكلون الكذب وتشربون الكذب. وتنامون في مخادع كاذبة.

أتمتم: إنما نحن أطفال يا عزيزتي مُنى نبحث عن أب!

الماضي يختلط بالحاضر، كذلك الكذب بالصدق ونتوهم أننا نحيا. نجبن عن الانتحار إذ تفلت منا الحياة الحقيقية وتتبدد كرمل البحار.

ويجهد راني لأن يحيا حياة داخلية مُنارة، مطلقها بلا حدود مع ليناه في إطار خاص مرتعش بالخلق.

– الرائحة هي ما نبغيه. هناك يكمن السر الأعظم.

ثم يقول: ولكن من منا يستطيع أن يصل منطقة الروائح!.

وبعد منتصف الليل تعبق دمشق تحت المطر والسكون والخلوّ. تلمع الأشجار

كذلك الأرصفة والجدران. للصمت صوت وللتذكرات. لحفيف الثمل إيقاع من الشجو. إيقاع من الألم. دمشق.

تسمع خطو الزمن داخلك فيشف العالم. يصحو. تقول الريح: أنت كئيب. وحيد كحجر في صحراء. وفي ليل عامم يصاعد أنين امرأة. حفيف ثوب من الدمقس على سرير منفرد. ناي بعيد، بعيد، يتماوج مقبلاً من برارٍ مهجورة. أصوات حاملة كل بؤس العالم. كل قهر الزمن الطاعن بلا شفقة. صوت سامر البدوي وهو يشق اهاب الشرق علّه يكتشف الهوية التي ضاعت. صوت وائل الأسدي الموغل في مرايا الثأر عبر أجساد البشر، الذين تخلّوا عن أبيه في معارك العرب الخاسرة.

– بماذ تفكر؟

– بالجنس مدخلاً صحياً لمعظم بلاوانا.

– أليس هذا مبالغة؟ والجوع؟ والحرية؟

– ما أعنيه عن الجنس مطهر. يبدو الإنسان هنا مصاباً بأصغر ما في حياته، ليس حرّاً لأنه غير موجود أساساً.

– أتعتقد جادّاً أنني مريضة؟

– إسمعي ديانا. سأقول لك شيئاً لا أدري مدى إدراكك له. أنا أعتقد أنك مصابة بالتشتت الحسي. في جسدك مناطق منسية لم تهيَّج. مناطق هجرت عبر الزمن فعجزت عن استقطاب الأنوثة بحيث ظل المركز الرئيسي مهملاً. التثبيت حدث في المناطق الثانوية ولهذا تثارين بالمداعبة في هذه الأماكن.

في البدء دهشت. ثم افترت هازئة. سألتني: ايه. ثم ماذا أيها المحلل العظيم؟

قلت: ولهذا أنت لست سوية. أنا جاد فيما أقول.

قالت ساخرة: يبدو لي أنك أنت المصاب. أتعرف بماذا؟

– بماذا؟

– بمرض اسمه فرويد.

ابتسمت: لكن فرويد كان طبيباً.

– بل كان مهووساً وقد أورثكم هوسه المرضي.

لست أدري كيف التمع في المخيلة التاريخ الشخصي ملتحماً بالتاريخ العام.

تراءى ذلك ككهف في وادٍ عميق رائحته زنخة، مسكونة بالعظام الحيوانية والإنسانية. وسوست النفس: هل لنا شمس؟ هل لنا مشفى؟

فجأة تمزق سحر ديانا. من جسدها فاح نتن حضاري حملته الريح من مستشفى كبير يمتد من بدء الشرق حتى نهايته. بدا لي غاصاً بأناس يرتدون ثياباً صفراء يفوح منها الكلوروفورم، يتحركون بطريقة تثير الغثيان، وتثير الشفقة. وطرأ على جميع النساء تحول جديد. اكتست فيه أجسادهن شعراً كشعر الماعز والقردة، فتبدَّين بقرون كبيرة وأظافر تفوح منها رائحة حموضة، ورحن يرقصن رقصات همجية مفعمة بالتقزز والسخف، وحولهن جموع الرجال تنتحب دونما صوت مسموع.

كان قلبي منقبضاً الآن. حزيناً كما ينبغي، عاجزاً عن فعل أي شيْ حتى الحركة.

الفصل الثالث

- ١ -

مستمرة هذه الهجرة ، والحزن مستمر ، وتاريخ العرب ينجلي شيئا فشيئا عابرا عصور الانحطاط التي تجهد هي الأخرى لتستمر ، والجيل المنبثق آكلا ذاته يود أن يصرخ : لا !

في الطريق يقع . على الشعرة واصلة الماضي بالحاضر ، وهذا الوقوع ربما كان إنباء بوطن آخر . بخلاص ربما . لكن هذا المطعون يرفض أن يكون الجسر.

وتسأل : كيف يبنى وطن حقيقي اذا كانت منى مفصولة عنك؟ وتقول ديانا بلا مبالاة : مات زمن الحب . وما فائدة الاشياء كل الاشياء عندما يموت الحب أو ينحرف ، وما مسوّغ وجود الانسان؟

واذ تسألها تقول : هكذا العالم !

غير أن راني القادم من بيروت لا يعتقد ذلك . مفعم بالتوقعات العذبة والخصب المستقبلي ، يزرعه في أرض لينا العذراء . أرض الاكتشافات والذرات المستعصية على النظريات ، ومرفأ طفولته المغتصبة .

عائد ، وكله يقين من تجربته والفتوحات التي لم يصلها بشري .

بفرح يسألني عن منى وأمينة والليالي التي مضت . وعن دمشق .

فأجيب : منى سترحل ، وأمينة تحلم بالزواج مني ، وأنا تائه في الثمل اعتنق الحزن والمرارة والفوضى والبحث ، ولا نقطة . ودمشق هي دمشق . نثرثر عن بيروت ودمشق . عن الناس والاحزاب والشعراء والافلام . عن الموت والابداع والقضايا الصغيرة .

نسكر احتفاء بلقائنا الجديد ، ويبدأ الدوار داخل جسد المدينة وتشيل الحكايا المخبأة في السريرة . الحكايا التي اختزنها الغياب .

- من كل الآخرين أنت ولينا . أنا وحيد وضعيف لم أبح يوما الا لكما . آه .

عندما يخون احدنا الآخر يجب أن ينتحر. ليس سهلا موت الام. قل لي: هل تحب امك؟

– لا !

– كانت تخون؟

– **كانت غبية وحمقاء تكره أبي. كان يقول لي: من العار أن تكون أمك!**

– كان أبوك قويا وسليماً؟

وأومئ أن نعم فينهد متأسياً: اتعرف معنى الا يكون الاب سليماً؟

– .....

– أحاول أن أعوّض عنه فأشعر بالفشل. لينا تستطيع اكمال نقصي. لينا الاب والام والصديق. آه أنت لا تعرفها.

ويتابع: هذا محزن إلى أبعد حد. يا لينا الحبيبة كم أنت عظيمة وخالقة. تصور انها تعتقد أنني لا أحبها كما تحبني.

اعذرني اذ أقول لك انني أعبد التراب الذي تدوسه. أرجو ان تفهمني. ارجو ذلك بكل جوارحي.

على جذع سنسرخت تستريح جبهته، وفوق أثلامها يمرغ وجهه ويبدأ يدندن حنيناً فيروزياً، يمتد عبر الليل وجعا غيابياً للمرأة المستوطنة دمه. المرأة التي ماتت بين يديه ذات مساء بهدوء ومجانية.

دمشق الرائعة مستلقية فوقنا وتحتنا. صامتة كالحجر.

وفي الذاكرة تبرق تجربة سامر البدوي وعشقه القديم لزوجته الحزينة، وعطف ديانا على مسرور التعس، ثم ايوب ومملكته المقوّضة. فأتمنى أن احمي راني من هذا العطب الساري في النسل. اثنيه عن السفر نحو جزر السراب المسكونة بالقيظ والملل. وأستيقظ غبّ غيبوبة اخذتني بعد حوار حاد مع منى. فأتذكر بانني حدثتها عن الحرية والاختيار والعربي الجديد الذي يحرق ماضيه الآسن ويتقدم فوق ارض من رماد نحو ما يريد، نحو ما ينبغي أن يكون، وأن فقدان التواصل بيننا يأتي من طرفها هي التي لم تكسر بعد جدار ماضيها وتحرق هشيمه. وأتذكر أيضاً بأنني صارحتها بأن هذه الهوة القائمة بيننا وسّعتها حالتها المرضية التي تبدو مستعصية ومهينة، واذا ما استمرت

يجب أن نفترق، واذ حاولت أن تعيد اسطوانة الاتهام، فاجأني غضب مسدود دفعني الى تحطيم الزجاج وقذف ساعتي اليدوية فوق جدار الغرفة.

من الصالون يأتيني نشيجها. أخرج من الغرفة فأراها مستندة الى الجدار وفي يدها محفظتها. تبدو لي في حالة تعيسة مهانة، أمسح دمعاتها براحة كفي فأشعر بسخونة خدها. اسحبها الى الغرفة وبهدوء اجلسها على السرير. الشيء اللعين الذي يطعن الجلد كلما انفردت بامرأة، يموت في تلك اللحظة. تنزاح المرارة ويولد حب خاص يشبه نمو العشب تحت الثلج. حب ملون عميق ودافئ. أضمها الى صدري، ويتكئ رأسها فوق قلبي الذي يخفق، فتدهمني رغبة شق ضلعي واحتوائها.

– كنت تبكين اذن؟ سامحيني.

ورويدا يتخامد نحيبها، يبدو وجهها وشفتاها بعد البكاء قانيين. اقبلها فوق خدها فتبدأ الطمأنينة بالصعود من قاع البحيرة التي اعتكرت، وعلى وجهها الارجواني يرتسم صفاء صامت.

– نحن نحب في عالم مات الحب فيه. كفكفي هذه العبرات! ويمضي زمن قصير. لكنه مديد في بحر النفس وفي وحدتنا المفصولة عن حركة العالم. الطفلة التي اغتالها الزمن قبل أن تنمو، تجلس قربك، هادئة ومحرورة. وانت رجل نصف صادق ونصف مخادع تمثل طراز عصرك. تحاول أن تخرج عليه فتتعثر بملايين شباك العناكب وقد نُصبت على الدروب التي تخترقها. دروب مفخخة قبل سقوطك من الرحم المنجّس. وانت تريد الكفاية والصدق المطلق والحرية، واذ تفتقدها ترن الكذب النسبي فتتراجع عن الانتحار، وتبدأ تنسج حلم الغابات والبراري والعودة الى عري الاجداد القدامى.

– انما نحن سيئون بالاكراه. اغفري لي. منى. ربما مثلت دوراً لا أريده ولا أصلح له.

وتهز رأسها: ما فائدة كل هذا العذاب. نهلك أنفسنا بالالم والعالم لا يبالي. حالة حرب تفني نفسها بنفسها. وتطلب لفافة ثم تتكئ على الوسادة. تدخن وتحدق في السقف.

واسألها: هل تعتقدين أن الفطرة سيئة الى هذه الدرجة؟

تنفث الدخان ببطء: لا أدري. ما عدت أمايز الاشياء.

أحدثها عن النقاء في عالم يختنق بالتسمم، وأنني بدأت أشعر بالانهيار وعدم القدرة على المتابعة، وأن الانسحاب رغم لا جدواه يظل الحل الابغض الى النفس: قد يعطي بعض الطمأنينة والعزاء لكنه مغفرة فردية مردودها سلبي. وتنهض عز اتكاءتها. تطفئ اللفافة في المنفضة: لو قلت لك انني احبك ماذا يعني هذا؟ نحن اثنان فقط والناس هنا حيوانات بحكم الحاجة والعلائق القائمة. وانت وانا لسنا انبياء أو آلهة لنفني كل شئ ونبدأ من جديد بصنع ذرية غير ملوثة، وحكاية نوح اسطورة قديمة، ولو افترضنا انها حدثت فما الذي حدث بعد الطوفان؟ ما نفكر به لا يعدو وهم شاعر بائس. اننا محكومون داخل مصيدة قذرة وهذا التسمم يجتاح الجنس البشري منذ الخليقة.

على الارض كانت الشظايا، وخارج الغرفة في مكان ما من المدينة، كان ايوب المحطم، وكانت هناك المرأة التي دُوهِمَت ولما تبلغ سن الرشد، كانت هي الاخرى محطمة، وكانت منى صغيرة عندما تهشم رأس زوجها بسكين اخيه الجشع القاسي الراغب جسد منى العصفوري، وعلى بعد من هؤلاء يستلقي مسرور المطارد منذ عام ١٩٤٨ وقد أرسى سفينة فلسطين المهاجرة على شواطىء ديانا: الهة حبه التي صادته وهو منهك.

[]

ارغب ان تكوني لي في جميع الثواني والدقائق والساعات والايام والاشهر والسنين. لكن لحظة ملل ستمر يوما بنا واذ ذاك ما فائدة كل الحب. سأتحول الى ما صار اليه سامر البدوي سدين الخمر والنساء الاخريات والهجرات الليلية. انا انسان ملول يا عزيزتي أمينة.

وجه راني يشرق شفافا بالحب الذي لم يتحطم بعد: لينا تختلف. شئ آخر ياصديقي. في كل ثانية تتفتح عن عوالم جديدة، لينا كون خاص. أتدرك معنى أن تكون امرأة كونا؟

– لا . عزيزي راني، فهمي محدود في مثل هذه الامور. هات حدثنا عن الاكوان المؤتلقة.

– أنت مصاب لا بدّ كأبي.

– ربما. لكن انت عاشق بائس على ما يبدو. بائس من نوع عظيم.

ويترنح فوق ضفة الشارع، مأخوذا بكشوفات ليناه. وفجأة يلتفت نحوي: يشير باصبعه: أنت ماذا تعرف عن الناس المطعونين. عن الناس المهزومين في الارحام؟ لينا مجد شخصي وتاريخي بدونه أنا ذرة في هبوب الريح. سكون موتي. المرأة وطن خاص. تاريخ مفقود. سلام في أزمنة الحرب. بحر وضوء في هذا الظلام الروحي الممزق لقلب الانسان الوحيد. وبصوت يرج الشوارع والجدران والصمت يصيح: أيها المتوحدون كذئاب في الصحارى. أيها المهجورون والفاشلون. يا قوانين الزمن العلمية هأنذا أبصق في وجوهكم جميعا. أين انت يا سلام العالم الروحي. أين أنت أيتها الموسيقى. اعزفي. المجد للشعر في الارض و في الناس الكآبة والموت للعقل.

ص ت كالقبر. فراغ. ألم. وليل أصم. ثم راني الذي ركبه جنّي.

حتى النفس الانسانية في ختام هياجها تصير الى ورق ذابل. الزمن وحده سيد المخلوقات يتمرد على طبيعة الاشياء، لا يولد ولا ينمو ولا يعشق ولا يعتاد لا يمل ولا يموت.

– أنا اعرف منك بالمرأة. ويستطرد سامر ملك المدينة بلا منازع: المرأة الدمشقية صبوة مغلقة. بياض يشبه الكفن، فصوت حان خجول. سماء عذراء ترغب ان تحتويك لكنها وهي تعانقك تسأل: أين البروكار يا حبيبي؟ كل جزرك واكوانك مسكونة بالعلق والضفادع والمقايضة. انتحبْ حتى يتمزق قلبك. وحتى اذا ما ذهبتَ الى الحرب فأنت تموت كما الكلب. متى تدرك أن العالم يجري بقوانينه الضاحكة والباكية، القوانين التي تدوسك وتمضي. قوانين المادة كما يقول ماركس. قوانين السلعة. حتى القيم الروحية تخضع في مدينة دمشق لمبادلات الربح والخسارة.

وفي ذلك المساء تحدثنا عن وائل وحالته. وقال عنه بانه ليس تافهاً كما ترى. فقط هو انسان كئيب يريد ان يدفع عن نفسه هذه الكآبة التي تهرئنا. وثرثرنا عن الفصام والتعويض والطفولة المنتهكة، وقال: انت تبحث في نظرية التقويض وتريد اثباتها وهذه قضية معقدة وضد الوجود البشري أصلا. انا مع الانسان بخيره وشره. وانتبهت الى التهمة فقلت: أنا لا أبحث عن شئ. فقط ألاحظ وأضع اشارات بعد اسئلة؟

– ابداً. انت تحاكم البشر وانا لست مع الادانة. لماذا يكون الانسان مُداناً في العالم؟

– حكمك تعسّفي. الامر انني أود ان افهم الانسان بدوافعه الداخلية المستبطنة وهذا لا يعني الادانة. ما أود قوله هو: لماذا العربي ثابت في حركة التاريخ العامة؟

– ليس ساكنا تماماً إنما متباطئ. والسؤال هو: لماذا يحدو بإبلِهِ في عصور الالكترون والصواريخ والكومبيوتر؟

فوقنا كان القمر. وكانت هناك غيمات تطارده. كان الآن مُنتزِعاً من عالمه الشخصي. واذ سألت: ولكن لماذا ينشدّ نحو السماء كثيرا؟

قال: مأساة العربي انه يبحث عن الحالة التوفيقية بين الغيم والارض. واستطرد: في عصور الاجداد كان هناك اطمئنان. الله كان اماناً ومتكأً. الجيل المعاصر ممزع برصاص التاريخ وضربات التغيرات الجديدة. السؤال الاساسي هو: كيف نقيم قيماً معاصرة مطهرة من التحريمات الدينية المنقرضة مبنية على اساس دوافع الانسان الطبيعية؟

كثيرا ربما ينبغي التفكير بديانا: الهة الجنس المنحوتة من رغبات مسرور وتوقه الخائب. والقائمة في ساحته كحجر بارد. لقد قال عنها يوما: ان الذي هوى من رحم أمّها يعشقها فكيف بي أنا؟

ولكن: أين تكمن الموقظات الحسية لهذا الجسدالرخامي العظيم الميت؟

ولو سألت مسرور لأجابك: وأسفاه!

حزين كما هي حزينة فلسطين المجتاحة الآن بعد ان استوطنها الغزاة من جميع اصقاع العالم: كيف نحررها مسرور؟

– انت تعرف جغرافيتها؟

– تمزقنا بين الجغرافيا والتاريخ.

وفي الرأس تشيل الاصوات. قديمها وحديثها. الدينيون والاصلاحيون والبرجوازيون والخونة. ثم الثوريون المعاصرون. اصوات تعزف الوتر نفسه مع بعض التنويعات المثيرة. وتر شارف الامحاء والقطع من كثرة ما ضربته الأنامل.

– ما رأيك مني؟

– كذبة وجبناء. عشاق سلطة وانتهازيون.

– مسرور. ألاتستطيع ان تفعل شيئا؟

يتمدد على الاريكة ويغمض جفنيه. هكذا يبدو الجواب المجسم في لحظة الصمت.

قربي ديانا ربة الجسد المختل. ساقاها المرمريتان تتأرجحان، ووجهها اسيل، وعيناها ليل بلا اسرار. هادئة، وحيدة، مغتصبة. قليلا وبحذر يفتح جفنيه كأنما يتوجس خيانة، فيرى أرض الموت والخيانة والغزو. أرض المسيح والتي أسرى إليها محمد. المرأة التي خانت بعد ان غادرها زوجهاالشرعي تاركا جسدها للنوء والحزن.

اثرلقاءات متواترة مع مسرور اكتشفت فيه رجلا مسلما يغار من الريح اذا ما هبت على ديانا، ينازع ان يكون معاصرا كيلا يتهم بانه متعصب عتيق.

– سأذهب. بامكانك ان تبقى مع ديانا. وهو يهم بالخروج من الغرفة يلتفت: عزيزتي لن يضايقك ذهابي هاه. سأعود.

يرسل اليها قبلة في الفراغ ويمضي. في فضاء الغرفة ينسحب احتقار دفين. تبدو ديانا تمثالا من جبس ليس كئيبا ولا فرحا. وثن صامت. من قاع اللاشعور ينهض احساس غريب. توقع ينوس بين الشك والثقة. يتغلب هبوب المراودة. اختبار آخر.

أراوغ فأتظاهر بالخروج. تصر أن أبقى.

يصير المستشفى غرفة موشاة بستائر من حرير اخضر. منورة بضوء خافت ورائحة امرأة خرجت للتو من حمّام. في الزاوية سرير مغطى ببياض مغسول ومعطر. وفي الخارج مطر. الدنيا ظلال وروائح جسد يتعرى. جسدان في لحظة النداء الوحشي العذب. والجسد موجة مندفعة نحو شاطئ حار. الدنيا بحر حريري في غسق حريري. رجل وامرأة يستلقيان فوق جسد البحر. إنه العربي في المطهر والشمس على كتف المغيب. ألوان زرقاء وبنفسجية وخضراء. ألوان حمراء مغسولة بالرغبة والشوق السري القديم تنهد فوق السرير، فوق حرير البحر. والغروب قوس قزح. الالوان تمتزج بحركات تشبه سقوط ملايين الشهب داخل ليل أخضر.

الرجل يدخل كهف البحر تدخل هي فيه. جسدان من توق حريري لامع وصاف. الجسد في البحر والبحر في الجسد. يتلامسان. ينحلان. موج من ألم. موج من عذوبة. يصيران الموج. يرتفعان معه ويهبطان. يتقدمان. يتراجعان. الحرير في الحرير. الاشياء خضراء: البحر والسرير والستائر. الشمس والليل. ثم الرغبة

والمطر، كذلك البحر والجسد. الجسد والبحر. بحر ممتد أخضر لا نهائي. بحر حريري تغوصان فيه. تتلاشيان.سكينة. البحر مقبرة.

وأطلب كأسا.

تقدمه.

أحتسي بطريقة وحشية.

عن امور تافهة تثرثر.

وعن امور مباشرة أتحدث.

تنحرف نحو امور اخرى.

أدخل بوابة الثمل.

تدرك حالتي.

أقول: الخمرة هي المشفى.

قليلا تشرب.

أشرب. الشيرازي يقول: اعطني الكأس في مرآته نبصر احبابنا الغائبين.

نبتسم وهي تصب الخمرة.

أفكر بأخذها.

تتحرك في البيت.

تثيرني الخمرة فأشتهي ربلة ساقيها.

تعود.

احدق فيها.

تضع ساقا فوق أخرى.

- يا الهي أية امرأة أنت!

بغرور تبتسم.

- المرأة كهف الرجل وبحره.

تلتمع عيناها.

- هل قال لك أحد أنك امرأة كاملة؟

تغيِّر ساقيها بحركة غريزية.

اشرب.

بابتسامة شهوية ترنو إليّ.

- ومرغوبة من الرجال.

وجنتاها تتألقان.

أتذكر. آه. البحر.

قلبها يخفق رعباً من الخيانة الحسية، ويعود البحر مولداً موجات اخرى. يخبو العالم وتتضوأ غرفتها، أتصورها تتحرك وقد استيقظ سبات جسدها. وتدق في جسدينا طبول أفريقية، سريعة الايقاع، متوحشة.

- تأتي متأخراً مخموراً؟

- حبيبتي.

- لا تقبل إلا ليلاً وتريد دائماً ذلك الشيء اللعين.

- جسدك كعبتي.

- ولكنني خائفة ان يفاجئنا يوماً.

- مفاجأته خمرته.

وتتأوه تحت ضغط جسدي.

ظلام. غرفة معزولة عن البيت والطفلة ترسو في بحر أحلامها. في الظلام نلتحم.

امرأة كاملة محرومة. ورجل مخمور بلا عزاء.

بحار. بحار والدنيا غسق.

[]

كل الأوطان منهوبة. يقول راني: مرحلة تاريخية. الكل ضعفاء. ويضيف الآخر: وجبناء. امرأة بورجوازية تافهة تحضر السهرة فتنتزق: أنا أكره الفلاحين: أجلاف ووسخون!

أقول: أنت من سلالة أيوب. واضيف بعد الكأس الخامسة: لكنني أنبئك

بأنها سلالة في طور الانقراض. ما عاد لها زمن. بالمناسبة هل تعرفين السيد أيوب السرحان؟

ثور بحقد: أوه. أوه. يا للاجلاف!

أقول: قد نكون رعاة وأجلافاً لكنّا لسنا من سلالة التتار.

– لماذا قدمتم من قراكم؟

– لافتداء مدينتك المفتوحة للبيع والشراء والجواسيس.

– حرّروا فلسطين أولاً.

– ولكن من الذي قال لك أن التحرير لا يمر فيك يا عزيزتي؟

ينعقد غضب يتلوه صمت. كراهية تطوف فوق المرأة الموشكة على الاختناق.
تتحرك بدوية سامر القديمة: أنت جميلة ربما، لكن اسمحي لي أن أقول لك انك تافهة بما فيه الكفاية.

ويصمت راني. على الجدار تتصلب عيناه محدقتين الى سر الضعف البشري.
يقول أحد الحضور وهو يرفع كأسه: أيها السادة نخب النساء البرجوازيات المتدفقات في أواخر الليل.

بينما ترفع الكؤوس. تغص المرأة. تشرق دمعتها. تبدو محاصرة في حلقة جيل جديد يحتقرها ويشتهيها.

ومن غيابة الذاكرة تنبثق فلسطين كالرمح المدمّى، ثم يأتي معها العربي المشارف انقراضه، والعربي الواثق الأصيل. هنا في بيت مسرور يتوهج الصراع مكشوفاً. انهما يصطدمان على نحو فاجعي. ديانا صامتة كقبر ما عاد فيه غير العظام، وفي الداخل ثارات. قهر قديم استكنّ في النفوس يشبّ الآن.

مرة أخرى تأتيني فكرة تجتاحني كريح صرير. أود أن أهز راني: لماذا تريد أن تنجو؟ دعنا هنا نفتش عن أوراقنا التي ضاعت في شقوق الأرض. يدوي صوت مزمن لا تعرف بدايته. يشهد المرأة المخذولة وهي تنشج ماضيها المحطم. ماض خلق يقعي في بيت أيوب السرحان، بعد أن خانته زوجته واستلبه الفلاحون أرضه، فأحس بتاريخه القديم وقد تمرغ وانتهك. تتمتم المرأة المخذولة: أنا غريبة في هذا العالم!

ببؤس بورجوازي تقول ذلك، فيرد سامر البدوي: أي منا على استعداد

لايناس غربتك يا سيدتي. نحن هنا بارادة النساء المتوحدات وأحد ما لا يسعه أن يرفض لجسدك مطلباً.

باحتقار تقول: متوحش قذر.

– هذا إطراء.

– أنا أمقتك.

– وهذا تعبير معكوس عن الرغبة.

– النساء مخدوعات بك.

– أرجو أن أكون عند حسن ظن جسدك العظيم.

مسرور صامت كأبله أخذته غاشية، ومُحرج. كل شيء يتبدد. يأخذ حالة من الحلم والذكرى. تصير الأشياء غيماً أبيض. قوس قزح أو موسيقى. وما كان ليس ما يكون. مجرد حكايا عابرة في ليالي النفس، والنفس المبدعة وحدها تحتفظ بالذكرى والرائحة والموسيقى.

ذلك ما يبقى من كل التاريخ الذاتي والانساني، وما عداه قبض الريح.

وإذ تشق منى عباب البحر والريح، يقبل الفرح. تقول المسرة: هوذا الفيض الشمسي ينير عتم العصور.

– أحبك بطريقة مختلفة وأنت لا تدرين.

تبتسم تقول شيئاً عن الذين أحبوا وخانوا. وعن البذار الخصب في أراضي العقم. وتحكي لها عن الحنان، عن المرأة التي تدفئ الروح المعذبة وتغني، فتقول: هذه عصور الأحذية والموسلين يا صديقي الشاعر.

– بل أزمنة التجزئة والانقراض.

يحتدّ الدونكيشوت: العربي سيد القدر. العربي له تاريخ ومن له تاريخ لا يموت.

منى تروي حكاية دودة القز التي تغزل الحرير ثم تموت داخل الشرنقة: العربي ماذا يغزل في هذه الأيام؟

ومع راني يأخذ الجدل طابعه الدرامي: نحن الآن في عصر الضحايا الفرديين. من هذا المجموع المأخوذ باليومي والقانوني ينهض الذي يقول: لا. هذا الذي يرى نسوغ الأشياء جيداً فيصيح بالملأ المخدّر: أن هبوا. ثم يلقي بنفسه فادياً.

– طز. ما الفائدة. المجانية ليس إلا. أنا ضد هذه المجانية العبثية. التاريخ يتحرك ككل. ويتابع مهتاجاً حنقاً: المرحلة التاريخية تستهلك ذاتها. العربي يعبر التيه الرمادي. انه طائر العنقاء. لكي تعود الاشياء إلى أصلها الأولي لا بد من تفاقم الموت حتى يشعر كل ابن آدم انه هالك وان الخطر يعنيه. هذا زمن السكين واذا لم يبتلعها كل عربي ويحتسي الدم بدل الخمر فتنبّئ بالانقراض. بغير ذلك لن يخرج الطائر من رماده مرة أخرى. يصمت. يتابع خطوه على الرصيف. خطو رجل مصدع، محرور، لكنه بحزن يطل على حوافي الموت والحياة. فجأة يقف تحت شجرة: أتعلم بماذا أفكر الان؟ أحلم بالخراب. أجل الخراب. ان تضرب هذه المدينة بالقنابل فلا يبقى مأوى. ان نتحول جميعاً إلى لاجئين. تلك المرأة التي سهرت معنا ضعيفة. أكرر ذلك لكنها مطمئنة. كلنا مطمئنون. البيوت المريحة قائمة والخمر وافر والكلمات والأرصدة. الناس تبيع وتشتري. تكذب وتضحك. هؤلاء ماذا يعرفون عن أوقات النحيب والوجع. ان يكون وطن أو لا يكون.

يبدأ قمر دمشق بالشحوب. الأرصفة تلمع بالضوء والمطر. في الريح الرطبة أسير. رائحة دمشق تهب كما تهب ذكرى مفعمة بعذوبة تجتاح القلب والحنايا. دمشق متوحدة مثلي تحت صمت الزمن القاتم، وقلبي العاشق لدمشق يبحر في الروائح والهجرة الليلية.

– «لماذا تموت دمشق العذبة الحقيقية».

لكن بوادر الموت كانت تهبّ رغم ارادتي من جميع الجهات. تمنيت لو أدفعه عنها. وألاّ ترحل مني إلى ما وراء الحجارة والكذب. هي ذي تخرج من ضلعي طفلاً في لون زهر الزنبق. فوق العشب نمشي عبر السهول الخضر التي هجرتها وأنا طفل. العالم يزدهي بصفاء غير محدود. فوق العشب نجري. مشتبكة أناملي بأناملها: هذه مروج طفولتي. تغرغر ضحكة كالفجر. وفوق العشب المبتل نخبّ: هنا شممت روائح الضوء والخصب والليل. اصارحها بأنني لا أحب أمينة ولا ديانا ولا ناديا. تحت جناحي اضعها ونسافر بين ظلال العشب والصخور الندية. قرب خيمة نمرّ: هنا حكى لي كيف تقتل الأفعى ولماذا يهاجر الكروان في الأصياف المقمرة من جزره البعيدة ولماذا ينوح. تلامس أقدامنا طراوة العشب. تسأل بغربة عن هذا العالم المُضاء. أقول: هذه بلاد الفقراء المفطورين على حبّ الأرض والعمل والماء. تمتد ينابيع نحسُها تتغلغل في التراب والصخر. وحشة وصمت ومدى. هاربان من الكون الملوث: هنا تشرق الشمس من وراء الصخور. تنمو فوق العشب

ثم تنام في البحر: انظري إلى البحر الأخضر إله كوننا الذي لا يغيب.

وقلت: هيّا انشدي شعراً للأرض. وبصوت أخضر تغني. ومن أفق البحر ينبثق وجهه القاسي التعب مموّجاً بصفاء لا حدّ له يسألني: إلى أين تبحران؟

ونسير. أطوقها. أصابعي تداعب خصرها الأخضر. كالرعد يدوي صوته: انتما هالكان!

وأقول: انشدي أيضاً. تطوقني لافّة شعرها الشمسي حول وجهي. الروائح التي أحبها تهب: الأرض والطفولة ومنى. أنجلى الآن وننحل معاً في مجد الأشياء. فوق العشب نرتمي، نتمرغ برائحة هذا الاخضرار الممتد. إلي أضمها. ادخلها أيضاً فأسمع صوت الضلوع. أشعر بحرارتها فوق المروج فأقول: نحن من رحم واحد. غني أيضاً. وندخل في الموسيقى والروائح المجيدة. ها نحن نرتمي حبتين في التراب. ننبت. نخضر. ومن ثم نزهر والريح تماوجنا. يطل القمر ومنه يخرج وجه أبي وعلى ثغره أول افترارة عرفها.

[]

أي رضى تتمدد فيه الآن. هذا العالم صحي ومريح. لقد انفجر الضغط. بعد خروج القيح الجسدي يبدأ سلام العالم. تقول وهي تبتسم: أنتَ من انصار الثورة الجنسية ثم السياسية. هاه؟

تبتسم وأنت ممدد على الخوان فارِداً ذراعيك. احدهما يطوق عنقها والآخر سائب.

– حدثيني عن طفولتك.

– لماذا تهوى حكايا الطفولة؟

– حكاياها نقية لها رائحة خاصة.

تحت منابت شعرها تدب الأنامل. تنمو كقطرات بين عشب له ملمس الطيلسان. توغل هي نحو طفولتها، نحو حب قديم في حي قديم. الروائح ترتقي داخل غابة نفسها الخريفية فتكتسي زهراً ربيعياً. وجهها يتألق، ويشع صدرها العاري شقائق ونرجساً. دفء الغرفة وسلامها يمنحانها وجداً مؤتلقاً. كأنما صوتها ينوح للمرة الأولى قادماً من وطن منسي، دفاً حزيناً. غبطة بيضاء تغمرني. أتذكر الحلم الذي مضى وهي تسرد قصة حب طفولي لم يعمر أكثر من شهور. انطفأ لكنه ترك في الذاكرة جرحاً لا ينسى.

كانت الأنامل ما تزال تمارس بهدوء طقسها في كنيسة البشرة الوردية. ووجهانا يقتربان فأحس لفح الحرارة. وتسألني ان كنت أحببت في طفولتي. فأجيب بأن حب الصغار يشبه قصيدة بكراً تدندن في النفس وتخرج للمرة الأولى دونما تصحيح. بحركة غريزية ترفع حمالة قميصها الزهري مغطية بها النصف الأعلى لثدييها. فجاة أسحبها فيلتحم الوجهان آخذاً كلتا شفتيها بشفتي. على كتفي الأيسر يستلقي رأسها بينما يغيب وجهي في ذوائب شعرها.

كانت تتنفس ببطء فوق لحم كتفي. أهاجني اللفح الخارج من جسدها فضممتها أكثر: كم أنت عذبة الآن!

– اضغط أكثر. أريد أن أَلِدَ لك طفلاً.

– سيكون عظيماً وفاشلاً دون شك.

– سيحيا بلا أب.

– أنا أحبك اذن أنا موجود. أقولها مزاحاً. فوق الجلد أشعر بحرارة الدمعة. لحظة من الوجد تمر الآن. أتمنّى أن نبقى هكذا إلى آخر الدهر بارتعاش أهمس لها عن غابات قصية خضراء، عن كهوف مهجورة لم يطأها البشر، وعن بحار زرق ومروج تستحم بالشمس وتبترد بالليل، نسكنها ناسين مدن العالم الغاصّة بالكذب.

وإذ تلفحني أنفاسها المتباطئة، وبدء حركة من وجهها الذي ينسحب، أتذكر عالمها المرتعش وهربها من شيء مقيم فشلت حتى الآن في انتزاعه من نفسها.

بهدوء ترفع رأسها. كانت العبرات تنساب في محاذاة أنفها. بشفتي مسحت الدمع فأحسست بالحرارة. وبدت الآن عذراء تشبه الغابات التي أحلم بارتيادها. بين ثدييها غمرت وجهي. وبما لا يحصى في كل مكان من صدرها وعنقها ووجهها، قبّلتها. في أرجاء الغرفة حملتها. بدت خفيفة كالنسائم. غنيت لها لتفرح، ورقصت. فابتسمت وفاضت عبراتها، ثم دخلنا في الغبطة.

– ٢ –

وكان ان جاء زمان عصيب لم نحسب له حساباً فيما مضى، زمان تساوى فيه الحب والكراهية، الابداع والغباء، الانتهاز والثورة، وفي ذلك الزمان الفاجع نمَتِ الأعشاب الضارة وراحت تمتص جذور الخصب والحب.

زمان شبيه حد المدية، وملايين البشر كانوا يعبرون فوق ذلك الحد. وكان الكثيرون يخبون نحو الشمس المحرقة، بينما آخرون يغربون باتجاه اللجّ، وكانت الذاكرة وحدها المنجى من هلاك محقق. وفي أي مكان من أرض العبور لو سألت العربي: إلى أين تمضي؟ لأجابك: مع الريح!

وفي ذلك الزمن كنت أمضي نحوها. وكانت منجاتي. عنها تحدثت بحرارة واخترت باختيارها النفي والكراهية. وقال الذين في سمعهم وقر: انما أنت أحمق ومثالي. تضع رأسك تحت المقصلة مجاناً. وكنت أقول وأنا أمضي بعيداً عنهم: لشدّ ما أنت وحيد بين بشر وحيدين. ومع تراكم الأيام الحزينة، همتُ بشوارع المدينة وصمتها. أرصفتها الليلية ومطرها. تلك الأشياء كانت تبدو لي في أوقات الضيق وحدها الملاذ.

وجاهداً كان يحاول أن أكون استمراراً لافكاره، لرغبته التي هوى بها في رحم الأم.

وبنزوع تمردي شبيه بثورة البحار، كنت أحاول التنصل من ذلك الاستمرار المجاني، أن أكون أنا بعيداً عن تاريخه المفعم بالأساطير وقوى الغيب. انني أتذكر الآن حكاياه عن الأحداث المخيفة، من قتل الحسين واحتزاز رأسه بسيف الشمر، الى نفي أبي ذر الى الصحراء وأنباء أبناء سبأ وعذاب آل ياسر، واذ أحاول أن أسأله وأنا أستلقي قربه في الخيمة البحرية: هل الله انسان؟

يصرخ في وجهي بوحشية واستنكار، يستغفر ربه ويتمتم بعض الدعوات. بعدها يشرح لي أن الله كفاية كلية، قد يتجلى شيء من روحه في أنواع من البشر الخاصين المتفوقين على البشر العاديين، وهؤلاء قد يختلفون في الجسد والزمان، لكنهم روح واحدة خالصة ونقية تتميز بقدرة أعلى من قدرات الناس لكنها دون قدرة الله. واذكر انه ذكر أسماء منها: يوشع وشيت ويوسف وهابيل وسقراط وأفلاطون والمسيح.

أما الله فطلق لا يحد أجلّ من الجسد والزمان والمكان. وينبري متحدثاً عن العقاب والثواب والجنة والنار ويوم القيامة والحساب الأخير، وظهور الرجل المنتظر الذي يخرج من عين الشمس، ومعه رجاله الثلاثمئة يملأ الدنيا عدلاً وقسطاً بعد ان ملئت قبله جوراً وظلماً.

لغة غريبة كنت أسمعها منه فأرتعد من الذعر، وقبل أن أنام أسمع دعواته واستغفاره في صمت الليل ورهبة البراري على أنغام أجيج البحر الرتيب.

وفي تلك الليالي كنت أرى أحلاماً مخيفة عن رجال يسيرون فوق شعرة الجنة والجحيم، فيسقطون في مراجل مليئة باسفلت يغلي، ثم أرى نفسي في أراض مزروعة بالأفاعي، وفي حضور رجال يقتلون ويمثل بهم، يعذبون حتى الموت ويسألون أسئلة لا يجاب عليها، فتسلخ جلودهم وترمى أجسادهم إلى نار متقدة.

بعد أن شببت أدركت إلى أي حد كان ذلك الرجل التعب تعيساً ممزقاً بين الله والأرض. وإذ قررت رفضه حدست بمنى على نحو طفولي مراهق. اذ ذاك كانت الأسئلة محيرة، لكنها كانت مثيرة مشحونة بديناميكية شاب يرغب الالتصاق بالأرض. ويومها لم يكن رفض السماء شيئاً يعبر بمجانية الريح.

لكنه ذات ظهيرة مات. كان موته مؤسّياً، وأذكر انني بكيت لفقدانه بفاجعية لا حدّ لمرارتها. بدون مقدمات مات. حدس هو بذلك. وفي عالم لا يقدم تفسيراً لكل ظاهراته، نَمَوت وازدادت وحدتي. مع الآخرين ناقشت مسائل معقدة كان الموت أحد أطروحاتها غير المعقولة.

— «أنا الآخر سأموت أيضاً ولن أُسأل ان كنت أرغب في ذلك أم لا». نَمَوت أيضاً وقرأت. ناقشت وتأملت. فرحت وحزنت. انتميت ورفضت. عشت واكتشفت. وها هي دمشق أخيراً تحت شمس القرن العشرين: الاحتلال على الأبواب واللا حب. الفردية والجبن والسطوة والقمع. التجارة والكذب. الخيانة

وعلامات الانقراض. مدينة من الأشواق تبحث أجيالها عن الطمأنينة، وقليل من فيها يفكر بهوية هذا الضائع تحت شمس القرن العشرين.

— وائل ما فائدة الثارات الداخلية؟
— أبي!
— سامر لماذا تتلف عمرك بين الخمور والنساء؟
— أنا وليكن من بعدي الطوفان.
— مسرور لماذا لست في الحرب؟
— ديانا!
— أيوب لماذا زوجتك تخونك؟
— الماضي هو الخائن.
— راني أأنت جاد في البحث في ابحارك نحو النفوس التي فقدت رضاها؟
— عندما تكتشف السر النفسي تكتشف أرض العربي المهجور!
— ما رأيك في الاشتراكية؟
— اذا اكتشف قانون الحرية تكتشف نظرية الانسان الاشتراكي.
— وفلسطين؟

شريط الحزن هو في كل الأماسي. نحكي ونفرح ونغني ونسأل. نشتم ونحب. وفي أواخر المساء ينبخ الحزن في الغرف السرية. حزن مسحوب من ضلوع العجز والتسويغ. ثم نمضي في تيار الوقت كما الأوراق الساقطة في تيار النهر.

كان واضحاً انه جيل يرتعش في القطاع الأشد خطورة. القطاع الأشد كشفاً عن نفوس ورثت تاريخاً مضطرباً. تاريخاً قانونه اليومي الدين والكبت والكذب والاضطهاد.

ولما أفصحت لراني عن التمزق والمصالحة بين ما ينبغي وما هو قائم وضياع مني بينهما قال: التقيتما قبل الأوان. وأجبته: بل بعد الأوان. ثم أردفت بانها في نفسي قبل قدومي إلى دمشق. وأنت تذكر ذلك. هل نسيت؟ وأذكر جيداً كلمته: لو ولدتما قبل عشرين عاماً وتزوجتما لكان الأمر مختلفاً.

— أحاول أن أخطفها نحو الجبال الوعرة.
وينهه: أي رومانسي صغير أنت!

يومها أجبته: لو تنظر إلى نفسك كيف تتحدث أبداً بوصاية. بطريقة من يخيل إليه انه اكتشف أسرار العالم والنفس بينما البشر في نظرك ما زالوا في طور القرود؟

— أنا أحترم صفاءك في هذا العالم العكر، ومن بين جميع الذين عرفتهم كنت الجدير بصداقتي، لكن صفاءك تحول إلى مرض. هل تدري انك متصوف عصري؟

ويومها أذكر انني حاولت الدفاع. جهدت لأوضح له فكرتي عن النقاء والتزامي بمنى ضد الخدع القائمة، وان كلمة متصوف بمعناها الديني لا معنى لها، وان بعض المفاهيم والمفردات التي التصقت بالدين يمكن أن تكون ذات معنى بالمفهوم العصري، وليس الدين بمجموعه ميتافيزياء صرفة لا صلة لها بالحياة وأعماق النفس البشرية، والحكاية وما فيها هي كيف ننبثق من التاريخ بمعان جديدة غير فاقدة لأصولها. ثم تحدثت عن ردود الفعل في الثورة وتسممها بالدين الشائع والخوف، وان الماضي ينبغي أن يكون حافزاً لا مخدراً وقيلولة، وان هذا الجيل الآن يتكون بين قطبي الاهانة ورغباته الشخصية، ينسحق تحت ضربات الخيبة والتحولات المغامرة والفزع من ماضيه، وهو اذ ينصاع لعلائق الدين المرضية، يقتل الثورة معتقداً بأنه يحييها.

وقلت: حتى نتطهر فعلاً ونقيم ثورة لا بد أن يسيل الدم وتدمَّر الشرائع الاستسلامية والقوانين السائدة التي سنتها البورجوازية الدينية في هذا الوطن.

واذكر يومها انه تحدث بحرارة عن تدمير العلاقات القديمة التي سماها عوسج الأرض، وألمح إلى دور السياسي ودور الشاعر وإلى السطوح والأعماق. وقال بأن الشاعر الذي يبدو منبوذاً ولاجئاً هنا، يشكل الضمير النفسي للأمة باختياره المغامرة الخطرة في أعماق النفس الانسانية حيث الاسلاك والروائح العطنة، وكمون عصارة الأرض المحجوبة عن الشمس.

واذ ذكر عبارة عصارة الأرض، استوقفته قليلاً مبدياً ملاحظة حولها: بأن هذه العصارة غير الشمسية ربما كانت هي ما نبحث عنه وان أوراقنا ربما سقطت هناك. وتابع فكرته عن وجهي السطح والأعماق بأنهما ربما يحلان المعادلة الواحدة. لكنه استطرد سائلاً: هل يمكن للعنين أن ينجب؟ جرّب أن تقترب من تلك الأرض المحتلة: الدين. الجنس. الحرية. هل تعرف من أين سيأتيك الرصاص

والحجارة؟ كيف تطاردك الكلاب؟ وكيف سترمى هناك كحشرة دونما ضجة: لقد سفَّه أوثاننا. هيه. لكي نكون بشراً ينبغي أن يحطم كل فرد منا أوثانه الداخلية. ويقلب شفتيه ثم يبصق. بصقته تحدث صوتاً كصوت الطلقة في أعماق الليل الساكن: السياسي على ضفة والشاعر على ضفة أخرى وبينهما وادي اللغة. لغة الشاعر جارحة مسنونة تهوي عميقاً نحو العصارة، أما الآخر فلغته خادشة، أفقية متوازنة، بينها وبين العوسج حوار ودغدغة.

كان المسير قد أودى بنا إلى سفح قاسيون. من هناك كانت تبدو دمشق ملألأة راقدة تحت السفح، وكانت الخمرة قد طارت. على حافة شريط حديقة مسورة وكأ كوعيه وراح يحدق نحو دمشق.

في أية لحظة كنت أتوقع منه شيئاً آخر غير مقدمته التي بدأها، وفي أعماقي كنت أتحاشى ذلك. لقد عرفت فيما مضى مزاجه الحاد وفرديته والأذى الذي أصيب به، وبشفافية مغرقة في البعد كنت ألمس هشاشة التحامه بالمدينة. كانت توجد في ذهنه من خلال أشواق صغيرة، من خلال حنين يرفّ في ذاكرته، لكنها لا تجتاحه كسامر البدوي الذي عبر يوماً عن هذا الحنين: حنيني إليها لا يختلف عن حنيني إلى جسد امرأة.

بعد أن ملأ عينيه من جسد المدينة المزدهرة بالأضواء والصمت، وقف ثم اتجه نحوي. كان وجهه كظيماً فيه قسوة تغطّي ألماً داخلياً يجهد لإخفائه. سألني ان كنت أحب دمشق فابتسمت. وألح أن أجيب عن سؤاله، فقلت بأنني لا أكرهها ولكنني أحبُّ الريف والبراري أكثر. أنا لا أطيق هذه المدن التجارية.

انني أتذكر الآن كيف سخر من هذه الخرافات، فسمَّاها شطحات صوفية ساذجة، ووسمني بأنني ملتاث بأرواح الأجداد الذين مضوا وصاروا حكايا منسية أضيفت إلى أساطير الشرق المسكين المتعلق بأذيال المطلق في عصر النسبية وغزو الفضاء: شرقك المقدس. بمقت مرير ساخر ذكر الكلمتين الأخيرتين. وأضاف بأنه قد قرر الرحيل مرة أخرى، وان هذه المدينة كغيرها من مدن الشرق لا تقدم إلا الفشل والتبرير والروائح الكريهة والمقايضة، وانه ينبغي هدمها واعادة بنائها. وقال: عبث هنا وجود الانسان وباطل. الكل باطل باطل ولا نفع من أي عمل يعمل. نحن هنا طفيليون على مائدة التاريخ. محض أفراد منفيين في غابة تحوطنا أحراش الوراثة والبيئة والدين. وكلما حاولنا التقدم خطوة إلى الأمام نتعثر بهذه الأحراش.

إلى الجحيم كل ما هو قائم. قال ذلك بثقة داخلية مطلقة، فأحسست انني أواجهه الآن عارياً تماماً، مفصولاً تماماً.

لم أعد على مسمعه قضية عصارة الأرض التي لم تر الشمس بعد، ولا قضية الأوراق المفقودة. كنا اثنين الآن. وبيننا مسافة. انكسرنا اذن. كسراً لا جبر له. ما عاد لنا غير هذا التابوت الليلي نتحرك فيه ننثر آخر المراثي، ونرش روائح البخور. وكما قال وائل: نحن المحمولين اليوم لا الآباء. النفوس افترسها ذل وانتهاك. رجّها رجّها حتى صارت في لون الغِرين. هشيم، مساحة منه اندلعت فيها حرائق شاسعة عصية على الاطفاء. «وداعاً يا وطني» هوذا يقولها الآن. سمعها في بيروت بعد أن خرج عصر يوم محروراً مصدَّعاً من مبنى الجامعة الأميركية، ولكن هل سمع صوت مناحيم بيغن: «أنتم الاسرائيليون ينبغي ألا تأخذكم رحمة عندما تظفرون بأعدائكم. عليكم ألا ترحموا العرب حتى تدمّروا حضارتهم التي سنبني على أنقاضها حضارتنا نحن»؟

راني غضب وغريب في ليل جهم. وأنت هنا. لا راحلاً ولا مقيماً. قائم بين السيف والنطع بعد أن لمع البرق أخيراً، شاطراً قوس قزح إلى ألوانه الاساسية. تقف على مفترق الدروب الثلاثة: درب السد السائر فيه لن يرد. ودرب الحريق ودرب الغريق. وعليك أن تختار يا علاء الدين.

الفصل الرابـع

- ١ -

هي الريح ، والعربي مقذوف عبر تيارات . بعنف تدوي . رياح من بلاد قصية . والريح النفسية دائمة الهبوب مشحونة غيظاً وثأراً . عصفاً تهب من الداخل . والعربي حكاية قديمة حديثة ، ضائع هو في مجرى سردها . والريح الاعصار قادمة من بردى وميسلون وحطين والقادسية وذي قار وكعوش والطفولة . ريح مفعمة بالموت .

وفجأة تلك الشجرة . ختام المرثية ومحطة النوم . أخيراً توقظ خلايا الجسد بإيقاع الفجيعة . والذي يوقظها انبجاس الدم الحار من الرقبة والشفتين والزندين القويين . من الصدر الفتي . هو الدم وهدى محظية عربي القرن العشرين ، ساكنة هي الأخرى . على شفتيها ابتسامة جمدت في لحظة الفجاءة . كل شيء ساكن الآن . حتى الريح والزمن ، فوق الجثتين .

الذي كان جميلاً وفتياً . والذي عرف الفرح وجنون الجنس . والي أقبية دمشق المظلمة ، سقط الآن .

- هل تعتقد بأنك سفاح ؟
- أنا أعيد إصلاح الكون المختل .
- وسادي .
- حيوان متغطرس تدين البشر وأنا أمقتك .
- أحد أصدقائي كان يقول : علينا أن نرثي للضعف البشري .
- لست ضعيفاً . أقوى من كل آلهتك أنا .
- لو لاحظت يوماً أنك تكثر من استعمال كلمة « أنا » .
- أنت وتاريخك قضيب وفرج لا أكثر .

– بلى. أضف: ويسمح لهما بالولوج والخروج والاستراحة، ضابط مخابرات موكل بحراستها. يشرب ويدخن بعصبية عاقداً حاجبيه. هذا الشرس المثير للمرارة والضحك معاً، هوذا في النهاية يموت.

– أتكون فاجعة العربي أنه فقد ماضيه ومستقبله؟

– لن ينقرض العربي. فيه دم يثور في لحظة الخطر.

– ولكن هل فوران الدم يصنع التاريخ؟

في نهاية اللعبة تتفجر الأشياء. الثبات ليس قانوناً أزلياً. والذي كان، يمكن ألا يكون، والإرادة البشرية هي القانون: أنت تثأر فقط.

يقول: أنا أعيش طفولة مستلبة.

وأقول: أنت لا تفهم قوانين التاريخ.

ويلعن التاريخ ويلعنني. تجتاحني موجة مرارة فأضغط أسناني بقسوة.

وفي البيت المعزول في ضواحي دمّر تمزق لحم هدى، بعد أن مزق بكارتها. بالقبضة الوحشية والأظافر والأسنان، هشم لحمها العاري، وفوق البلاط ضوجعت وهي عارية. جرح ثديها وامتص دمه ثم حملها إلى ضفة النهر وبين الأعشاب مورست محاولة القتل والمضاجعة. وكان معه زجاجة خمر. فوق الأعشاب حاول حرقها فصرخت وتوسلت. كمّ فمها وضغط. واستُثير فضاجعها، وإذ حاولت أن تهرب أمسك بها، وحاول خنقها فصرخت بأنين إنسان يرفض أن يموت.

نَدَهَ الرجل: بعْرضِك.

وقال له: عرضك بين فخذي يا جاسوس. متآمر. خائن. إبن قحبة. عرّوه وجيئوني به. وبسوط أسود موتور يضربه على وجهه وصدره ومعدته حتى يتدمى. أنّ وتوجع فضربه أيضاً. وظل يضربه حتى انهال وتكوم رمّة فوق بلاط القبو. على رأسه ضربه فانبثق الدم، فرفع الرجل يدين منهكتين محاولاً حماية رأسه، فانهال السوط فوق اليدين المعروقتين فسقطتا. زحف. قبّل الأرض وقدميه: بعرضك أنا بريءٌ. بريءٌ. وصرخ به: اخرس. كلكم كلاب والكلب يُقتل. ضعوه على الكرسي الكهربائي.

ومن تحت جلد الأرض تصّاعد أصوات حزينة مهانة. أصوات موجعة تحملها

الريح من أقاصي أرض العرب. تصطدم بصوت مني: ألا تسمع؟ كيف يكون حبّ في هذا الجحيم القائم؟

أقول: اغفري لهم فهم لا يعقلون.

وتقول بان الزمن يمضي والعربي يحرق الزمن وهو سادر. إنه يمضغ القات والأفيون والحشيش ويشرب دم أخيه ولن يلتقي مرة أخرى بالزمن. وكانت تنسحب الآن وتمضي.

وقالت النفس: هي ريح عابرة تسفيهم في غفلة الذاكرة. وكنت أمضي.

ولم أكن أستطيع فعل شيْ من أجلهم. وكانت فلسطين تهوي تحت الاعصار، والاعصار يحمل نشيد «الهاتكفاه»:

«نعود للوطن
وطننا إسرائيل.
إنه الآن صغير
لكنه سيكبر ويتسع،
وسنبنيه بأيدينا
من النيل إلى الفرات».

ومن النيل إلى الفرات كانت الأماسي مترعة بضوضاء الكلمات:

– اشرب. نخب الثورة.

– متآمرون يريدون تدمير الحزب.

– البورجوازية الوطنية تلعب دوراً في مرحلة بناء الثورة الديمقراطية الاشتراكية.

– لكن ماركس قال بالطبقة العاملة الطبقة الثورية الوحيدة.

– وباكونين قال بالفلاحين الطبقة الأساسية.

– تروتسكي رفض الثورة في بلد واحد.

– بينما لينين قال بإمكان بناء الإشتراكية في بلد واحد ونادى بتحالف العمال والفلاحين.

– من المصيب ومن المخطئ؟

– أتعتقد بأن البروليتاريا الإسرائيلية ضد التوسع؟

– وهل في إسرائيل بروليتاريا؟

– أنا أعتقد أن النضال ضد إسرائيل لا ينفصل عن النضال ضد الأمبريالية والرجعية وبناء الإشتراكية.

– كان عبد الناصر وطنياً وإصلاحياً لكنه لم يكن كاسترو.

– والجزائر تبعد آلاف الأميال عن فلسطين.

– حسين جاسوس بريطاني.

– يا أخي الأزمة أزمة ديمقراطية.

– لا. أزمة علاقات موضوعية وتفشي الانتهازية والديماغوجية سيحرق الثورة.

– نحن مخدوعون.

– بل محاصرون.

– قل معزولون ومحكومون بالعسكريتاريا الانقلابية.

ومن بيته القائم على ضفة النهر إلى دمشق كان يسير بقوة الريح والموت. مطر ينهمر. وسيارات سريعة أضواؤها كانت تواجهه بأشعتها الحادة. ومن الداخل كانت الأحاسيس توالي انفجاراتها مضواة بأنهار من روائح الماضي مختلطة بروائح الأفيون والجلود المحروقة، والريح تحمل أمواج النور الحاد والصور القديمة. كل شئْ راح يهتز تحت العجلات وتحت القبضة التي خدر عروقها الأفيون. وقالت المرأة المذلة: حبيبي وائل انتبه. أنت تسرع.

وكان هناك منعطف لفّه بشبق. سرعته إزدادت إحتقاراً للمرأة. مالت فوق كتفه فنترها عنه. فجأةً بهره النور. مليون لون وشعاع رقص على شاشة عينيه فصار أعمى، ودونما شفقة طعنته شجرة حور، دمشقية، صلبة، باسقة.

[]

في الصباح كان قد انطفأ واسترّاح. وفي الصباح لم يلبس أحد حداداً. وكانت المدينة مستمرة. بالحادث أخبرت منى فأغمضت عينيها لمدة ثانية، قبلتني بكل لامبالاتها المعهودة، ودهمها حس الزمن فمضت.

في غرفتي بقيت وحيداً. ثملت. غرقت في بحار من صمت. حلمت بمسافات

وهجرات لا تتوقف. شتمت وصرخت وضحكت. ثم سألت الله: لماذا يولد الإنسان إذا كان سيموت؟

وكنت مُنهكاً فهويت فوق فراشي البارد.

(وجاءني صوته بعد حين. حزيناً مطعوناً مدمّى. على وجهه علامات انكسار وقال: كنت مخطئاً قل للجميع أن يغفروا لي.

وسألته أن يعود، فقال: لا أستطيع.

وسألته: هل هناك جنة ونار؟

فأجاب: بلى.

وكنت خائفاً. وكان هو ملفوفاً في كفن داخل ضباب رمادي، وبدا لي جسده شفافاً، ورأيت قلبه وفي وتينه شرخ، وكان القلب كروياً ودمه أسود، وعلى الكفن بقع زرقاء يابسة. وبدا لي يرتعش من الصقيع، بينما يداه غائرتان في بحيرات الضباب.

وسألته: اسأل لنا باريك هل ينقرض العربي من الزمن؟

(وجاءني صوته خافتاً يقول: كونوا مع أنفسكم.

وسألته عن اللعنة التي تحدث عنها الأجداد فقال: الله غاضب.

وأذكر أنه كان شبيهاً بنفسه، سوى قميصه الملوث بالدم. وقلت له: لماذا لم تمت في فلسطين؟

وكالصدى جاء صوته: لم يكن خطئي).

ذا وجه نضير كان. قوياً كهياج موج البحر. وفي جسده المتناسق لم يكن هناك خطأ ما. بثقة كان يسير يأكل ويتحدث ويحسن قيادة السيارة. يضاجع ويحلم ويبتسم. وبوداعة طفل كان ينام في أواخر الليل. كان يحيا.

في خمارة الواحة صادفت سامّر البدوي. سلمت بقليل من الاهتمام ثم خلعت معطفي: أين أنت أيها الخنزير البرّي؟ وإذ لم أجب سألني أين أمضي أيامي لت قرفاً: الوظيفة والشارع والخمارات.

وحدثني أنه لهف إلي، ولديه أشياء جديدة يريد أن يبوح بها فقلت: إنك تكذب وتبالغ وجديدك لن يكون أكثر من امرأة أو حادثة عابرة. وقدم لي كأساً، وكنت منقبضاً وفي أعماقي ميل لإهانته وشربت بنهم وقال: أنت لست على ما يرام

وقلت: أنا على ما يرام تماماً. وسألني أسئلة عادية عن منى وأمينة، ثم انتقل للحديث عن ذاته العليا وقصائده الجديدة. وإذ حشا نصف رغيف لحماً وراح ينهشه، انتبهت إلى الموسيقى.

كان قد مات إذن. وإذ بدأ يقرأ أشعاره فكرت بالموت الذي ارتسم على شاشة الذاكرة وشما لا يريد أن يغادر. سمعت بعض المقاطع من قصيدته عن الموت الفجائي والزمن الطاعن في الغفلة. وأوغل في متاه سريالي لا يدركه إلا هو. بعد أن انتهى من طقوسه الشعرية سألته إن كان قد سمع بالحادث، فتناول كأسه وغبّ برغبة رجل يخاف الموت وسحب لفافة أميركية أشعلها، ثم زفر الدخان وتأوه: أجل. مات هنا.

– ككلاب جربة سنموت جميعاً هنا.

وانتبهت إلى جملتي العقلانية فتناولت الكأس وصببته في عروقي. وسمعته يثرثر عن القصور والخلل في الجيل الناقص، المقتول وهو حي. الجيل الذي قال عنه راني: لا أرض له ولا آلهة.

وقلت بأن إرث الوحل والشمس يسري في دمانا منذ ألف وثمانمئة عام وهذا مهين. وتحدثنا عن الرجل الذي مات في ذلك المساء، حديثاً حزيناً له رائحة المراثي. وفي تلك الليلة شرب سامر حتى البكاء. وغب ذلك غادرت الواحة باتجاه حجرة أمينة.

[]

هي ذي دمشق للمرة المليون، وأنت التائه في دروبها المتشعبة. عن أي شيْ تبحث وإلى أين؟ ودمشق في الذهن، غبطة سارحة كبردى في مواسم الفيض، وفي التاريخ حجر صلب، رُسِمت عليه فاتحة يمسحها المطر في الشتاءات القاسية. ودمشق مرسى ومسرى، حكايا وحجارة، صمت وزمن يخترق العظام في أزمنة النسيان. والرجل الباحث عن بديل أبيه ذئب ضيّع قطيعه، وأضاع الدرب إلى البيت. وإذ تحاول أن تسأل في السر: ما الذي يحمله المستقبل؟ تطوقك الريح واللحظة التي تمضي.

مضيّ. مضيّ. من رصيف إلى آخر. تيه يقذفك في تيه. والذي يراك فوق الأرصفة في أواخر الليل يهزأ، وأنت تقول: الأشياء ليست هي الأشياء. ومن مكان ما يقذف أيوب السرحان كلماته كرصاص.

الحوار الذي بدأ قبل سنوات، منذ منتصف القرن العشرين، ينمو في الدم، يطلع سقوطاً وصعوداً. أحياناً تتداخل الأجيال فتصعب الرؤية وينعدم التمايز. وفي تلك اللحظات تنفى منى فتصير غريبة في بلادها.

صوت أيوب اللاشعوري يود الإفصاح: لن تكون سيد العالم وستمضي.

– لكن العالم لا يتراجع.

– العالم ينهار. والعربي يعبر زمن الموت.

– للفصام زمن ثم يأتي زمن الصحو والعالم لا يعود نحو الخلف.

– لستم أكثر من قافلة عابرة في صحراء الربع الخالي.

– أجيال قادمة تولد.

– ستسلك طريق وائل وسامر.

– لم ينكشف العالم لوائل.

– كلكم هو.

– دم الضحايا لا يُنسى.

– لكنكم سترحلون يوماً عن دمشق.

– دمشق للفقراء.

والنساء والخمَر والسيارات وكراسي السلطة والأرصدة والإرث الناقص؟ هذه فخاخكم ودمشق المقبرة.

– ثمة منى!

– منى نجم بعيد. سراب تلهثون خلفه يبتعد ليظهر من جديد.

أستنجد. تتسارع خطاي. ريح حارة تلفحني.

– «آه. أين أنتِ منى؟».

رذاذ رطب. عذب كسقسقة النمل في العروق، يشعرك بخصوصية المدينة. مدينتي الآن. تطوقني رطوبة الطفولة في الخيمة البحرية.

[]

ها هم يعبرون ضفاف السواقي. بمحارفهم ومعاولهم فوق أكتافهم. أسمع

خطواتهم وأنا مستلق في خيمة القصب. عبر سواد الليل يخبون الخطا وهم حفاة وقد شمَّروا حتى الركب. الشوك والحجارة تجرحهم. أرجل وسواعد مرشومة بالوحل. مع الماء يمضون نحو الأراضي العطشى. الأراضي التي ستعطيهم العشب والمواسم. والماء ليس ملكهم، بثمن المؤونة اشتروه من جلاديهم عندما كان الزمن كالماء سائباً مفلتاً منهم.

مع الشفق يمضون وهم يغنون، والعالم سلام وغبطة. السهول اخضرار مدّ البصر، والبحر والقمر ساكنان، والصيادون ينشدون عبر البحار الزرق، والرجل الصلب الغاضب من عصره وناس عصره، قائم هناك بين الشفق والأرض، يضرب الأرض ويغني ويصلي، من الخيمة أسري صوبه فيسألني لماذا أتيت فأقول: لأساعدك. فيقول: إذهب ونم. أنت ما زلت صغيراً يا حبيبي.

– ولكنك وحدك وتتعب.

– عندما تنمو وتشبّ تقدم نفعاً.

– أستطيع أن أراقب لك المياه في المسكبة. بعنف وصلابة يجرف بمعوله الأرض. في عروقي يرن صوت الضربات وجرف الحصى. صوت الوحل وصوت الرجل وهو يغني زمانه الخائن. ومن الفضاء الرحب المزروع بالنجوم يأتي صوت طائر الهجرات. نحو السماء أرنو بحثاً عنه فلا أراه. السهول الملونة تمتد موصولة بالبحر الأخضر. أشباح الفلاحين تعبر ماضية في الغلس. تحمل الريح رائحة عرقهم منحلة برائحة الخضرة والبراري ونشيش المياه في عروق الأرض. يختلط هذا الجمال القاسي برائحة الفضاء والسكون والعذاب البشري ورائحة أبي الذي يستلقي مع الفجر قربي، بارداً، منهكاً، مستسلماً للسكينة الهابطة عليه في أواخر الليل.

– أنت يا أيوب حكاية قديمة ولدت في أحضان المسرة والربح والغزاة.

– وأنت يا بني عاشق ملهوف لزوجتي وعلى حوافي جسدها تنطفئ رائحة أحلامك الكبيرة.

[]

بيني وبين نفسي بحت أخيراً بحبي لديانا. حدث ذلك قبل اكتشاف الخلل. وإذ تذكرت عجزها عن العطاء غضبت من نفسي ومن مسرور وغفرت لها.

لأول مرة وأنا أستحضر معرفتي بها أتذكر كلمة راني عن الضعف البشري.

ديانا مجد جسدي يرغبه مسرور وأنا. وديانا غائبة عن جسدها منحلة في الثياب والثرثرة وتأثيث بيتها، تود أن تفاخر به أعرق العائلات الدمشقية الغارقة بين الموسلين والبروكار والكريستال.

وإذ أدرك أن كل قوى العالم قاصرة عن تحريك سكونية مسرور واعتناقه جسد زوجته، أشعر بشفقة. لست أدري كيف تصورت أن ذلك الجسد لو واكبه وسار به نحو ربي فلسطين أتراه يتأخر لحظة عن المضي إلى (عين الغزال) التي تهوّدت الآن؟

وهي تريني آخر أثاث جاءت به، سألتها: هل تعتقدين أنكما مستقران؟

وبابتسامة نصف بلهاء زورتني، وسألتني بماذا أفكر فقلت بالاستقرار فعلاً ثم استطردت: هلا تذكرت يوماً أنك زوجة لاجئ؟

وباستغراب هازئ وسمتني بأنني مصاب بلوثة السياسة مرض المثقفين العصري، ولما ألقت عظتها: عليك أن تفكر بأمور أكثر جدوى. سألتها عن الجدوى في حياة الناس الذين لا وطن لهم وعن التفكير المرضي بالوطن.

وقالت: لم أعن الوطن. إنما هذه الحمى التي تنتابكم جميعاً.

وقلت: الحمى تسمينها إذن؟

وسألت: ماذا أسميها؟ أنتم مهووسون بحالة تنغّص الطعام والشراب والملبس على الإنسان. أما عاد في العالم شيء آخر غير فلسطين والثورة؟ وسألتها إن كانت تعرف بماذا تفكر الإسرائيلية. فقالت بأن لها مباهجها التي لا تقبل التنازل عنها: بيت وسيارة وخزانة ثياب وأحذية وعطور وسهرات وبسمات.

بحنق: لكنها تحمل السلاح أيضاً!

وقالت: في الساعات الحاسمة لن نتأخر عن حمل... واعترضت متمماً الجملة: الحقائب. وابتسمت بأسى. في الخارج تعول الريح. أنين الريح موثق. يندفع الغثيان نحو الحلق. صوت الريح عزيف جنائزي في ليل فجره لن يطلع قريباً. وهذا الفجر نقاوته مضمخة بدماء رجال لما يتقدموا بعد.

ديانا تسأل: لماذا يموت الإنسان مجاناً بينما يمرح الآخرون؟

أقول: تريدين مسروراً لك؟ تؤكد ذلك. أسألها: لماذا قاتل أبوه في الماضي؟

تقول: كانت مرحلة مختلفة.

وإذ أقرر أننا تحت الاحتلال وإننا مهددون بالإبادة وأن لا نكون. تسأل: لماذا لا يقاتل جميع الناس؟

- لمسرور بيت وأرض اغتُصبت!

تصفعني: فلسطين الآن ودمشق غداً!

بلا كلمة أهرب. أمتطي الشوارع. الريح مرة أخرى. ريح مسمومة. الاختناق فوق أرصفة المدينة. المدينة ضيقة والوطن ضيق. العالم ضيق وأنا محاصر، معتقل داخل نفسي. أمضي في الشوارع الضيقة فيطلع وائل من جدران المدينة جريحاً فوق شاشة المضي. ويدق صوت راني: دعنا نخرج من أزمنة الانحطاط.

- محال. محال. كالجرذان سنموت في المصيدة. يقول سامر. وأحس قلبي يخفق بشدة. وأسمع موسيقى التابو والرقص الشهوي للأجساد النازعة إلى المضاجعة بحرارة من يرفض الموت.

أصوات. أصوات عن التحرير. أصوات عن الماضي. صوت خبب فرس موسى بن نصير وهي تشق عباب البحر. أصوات الفلاحين في الليالي الغلسة. أصوات ملايين اللاجئين المذعورين يديرون ظهورهم لمواطنهم باتجاه بلاد الأمان والرصاص، وصوت مناحيم بيغن يطاردهم. ثم صوت منى الذي لا صدى له.

- ٢ -

العالم الذي تصورته كاملاً منسجماً، شارفت فوضاه على الاكتمال. لقد بدأ أولى انهياراته. كل ما حِيك خلال العمر من نسيج العنكبوت في سقف المغارة، ينقطع الآن تحت أشعة الشمس المتسللة من الفجوات: باطل. باطل الله والإنسان وكل ما على أديم هذه الأرض من أباطيل.

- عصور الضوء راني متى تقبل؟

- عندما ينبثق الدم أكثر.

- أما كفانا ما أهرق العربي من دماء؟

- الدم الآن مستقبل العربي.

(درب طويل وعر. العالم ظلام. صمت الظلام يمزقه أنين مجموعات تتناكب. الطريق بلا نهاية ينحدر كأنه شق عميق يخترق الأرض من القطب إلى القطب. جموع مهدودة بالظمأ والتعب. فوق الراحات توابيت قتلى عارية من أكفانها. لا أحد يعرف إلى أين تمضي والذين يعبرون الوعر لا يعرف أحدهم الآخر. لا يسمع أحدهم الآخر، ضمهم المنحدر وهذا الليل لكأنهم آثمون مأخوذون بذنوب لا يذكرونها. الأحياء والأموات معاً في ليل عابق بالأنين ورائحة البخور. أحد ما لا يسأل الآخر إلى أين يمضي. لا علامات لهم. مجرد اشباح متحركة تهوي. الأموات فوق الأحياء. لا أحد يتقدم ليعين الآخر. المكان موحش. لا خضرة. لا ماء. لا امان. ممر خانق يزدحم بالأنفاس والأجساد الدبقة. فجأة تسمع فرقعة سوط. الذي هوى تدوسه الأقدام العمياء. طلقات. الذي ينزف يئن. يطلب ماء فلا يلقى. ينكفئ سافاً تراب الوعر. القافلة بطيئة. يزداد انحدار الأرض والهوي متلاحق. تختلط ضربات السوط بدوي الطلقات. كثيرون يهوون وكثيرون

يداسون وكثيرون يلعقون دماهم الممزوجة بتراب الوعر ووحده الأنين يحدوهم. انفجار يهز ضمير الأرض ثم لا شيء).

في ذلك اليوم هتفت مني. كنت منقبضاً يومها من أثر الكابوس. قالت: أنا حزينة وكسيفة. هل ما تزال غضباً مني؟

وقلت: أبداً.

وذكرتني بحادثة الأمس، حيث وسمتني بأنني تافه في حالة نزق. وقالت بأن الكلمة سقطت سهواً منها، وكانت تود استعمال كلمة أخرى لم تواتها في تلك اللحظة، وسألتني عن شعوري بعد مغادرتها فقلت: الأسف. وأصرت أن تعرف لماذا فقلت: لأنك تحشرين جميع الناس داخل زجاجة مغلقة وتقذفين بها إلى البحر. وسمعت ضحكتها على الهاتف. واستعادت الحديث بمواساة: ولكنك تعرف قيمتك الحقيقية في نفسي!

– يوماً ما لم أشعر بهذه القيمة كما ينبغي.

وبرضى أكدت: حتى لا تصاب بمثل ما أصيبوا به من غرور ونسيان. ينبغي أن تظل في أقصى حالات اليقظة. وبحت لها بأنني عرجت أمس على بيت أمينة وإذ رأتني كئيباً خففت عني وألحت أن أنام معها حتى الفجر، ولكنني غادرت بعد ساعة تقريباً، وأنني حلمت تلك الليلة حلماً مزعجاً سأرويه عندما نلتقي.

واتفقنا أن نلتقي ظهر اليوم التالي في غرفتي قبل أن تسافر من دمشق.

□

هذه المنى. النسغ الصاعد عبر الجذور. الاخضرار ورائحة التراب والتعب الجاثم في عروق الفلاحين، طائر الهجرات الذي أسمع صوته ولا أراه. أقول ذلك لنفسي كل يوم في أماسي المتوحدة، فيعطيني هذا المخدر بعض القدرة على الاستمرار، ويمنحني ذكر اسمها أماناً صغيراً يبعد عني شبح فكرة الانتحار. وتقول النفس: لا بد من زوال هذا الكابوس والخروج من هذه المتاهة يوماً.

فوجئت بأيوب السرحان مقرفصاً في غرفة أمينة يثمل. لم يسألني كيف فتحت الباب. كان يدرك بالحدس أن مفتاح الغرفة معي مذ قررت أمينة هجرانه وعزله في الغرفة الأخرى. ابتسم من أعماق كئيبة وحاول أن ينهض: مساء الخير. أهلاً. أهلاً بالمهاجر.

وقلت: لن تنهض. تقدمت وضغطت كتفه. وسألني: لماذا هجرتنا هل أسأنا لك؟ فقلت: أستغفر الله. أبداً. إنما ضغط العمل في هذه الأيام.

وقال: العمل أحق. الله يعطيكم العافية. الوطن بحاجة لهمتكم. كيف الأحوال؟

– لا بأس. الحال ماشي.

جلست قربه. ومعه احتسيت كأساً. كان في حالة غريبة. حالة شبه موتية. حمرار وجهه ممزوج باصفرار رمادي. ويداه ترتعشان على نحو متواصل، كأنما دهر من الحزن جثا فوقه وراح يغور فيه. وكعادته ثرثر عن تاريخه منذ الأتراك حتى الفرنسيين وبداية الاستقلال الوطني، وإذ وصل إلى العصر الحاضر راح يداهن ويخاتل. وسألني إن كنت أستطيع مساعدته لاستعادة بعض أراضيه التي انتزعها الفلاحون منه. وحاولت إفهامه بأن الموضوع شائك، وخارج عن نطاق إرادتي وأنه تابع لمحاكم الدولة، وإن كان مظلوماً عليه أن يرفع ظلامته إلى هذه المحاكم. كنت أدرك جيداً هذه المقايضة التي تأخر الإعلان عنها، وحدثني عن الزعماء الذين كانوا يحلّون الأمور بهاتف أو ورقة صغيرة بعيداً عن تعقيدات المحاكم الروتينية، وقلت بأن الأمر مختلف الآن، وتشعّب الحديث نحو حياته التعيسة التي أعاد موسيقاها على مسمعي مئات المرات.

وإذ لم يدخل علينا أحد ولم أسمع حركة في البيت سألته: متى نام أهل البيت؟

تأوّه بانكسار: ما عاد في البيت أهل.

استفهمت فأفادني بأنهم غادروا منذ أسبوعين أثر شجار حاد كادت الجريمة تتوّجه. وبدا يريد كتمان السبب في البدء. لكنه أفصح بعد فترة صمت قصيرة بأنه رأى المستأجر الذي يسكن في البيت يتسلل من غرفتها في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل.

كان الدمع محتبساً في عينيه، ذل معاند لاح في احمرار المقلتين. وراح يعيد أسطوانة كراهيتها له بعد أن جرد من ملكيته. حكى عن طفولته وتضحياته في سبيلها. وكيف عبدها لكنها كانت عاقّة وعينها للخارج، وكيف غطى عينيه عن الناس الذين كانوا يدخلون البيت لأنه أحبها أكثر من أي شيء آخر، ولم يكن يصدق أنها تخونه: أمينة امرأة جميلة لكنها شريرة. لعن الله النساء. جلد ناعم

كجلد الأفعى لكن الناب مسموم. كان واضحاً الآن في وجهه المحروث بالزمن والعار وعينيه الموشكتين على الانطفاء وارتعاش يديه، انه على الحافة وأول هبة ريح ستهوي به إلى القاع.

ولأول مرة ربما، يثير أيوب السرحان حزني وشفقتي وهو يروي رحيل أمينة بعد أن كنست أثاث البيت وتركت له بساطاً مهلهلاً وسريراً عتيقاً، حتى أدوات المطبخ أخذتها، وهو الآن وحيد.

وأنا مبتل بالكآبة سألته عن سمية. فأجاب: أخذتها معها. البنت رضعت حليب كراهيتي من النجسة أمها. في الأيام الأخيرة كانت ترمقني بنظرات مليئة بالاشمئزاز والاحتقار. وتنهد بقهر: يا إلهي كيف ستعيش تلك الطفلة بدون أب! نصف ما في كأسه جرعه مرة واحدة، فكادت الكأس تسقط من يده. حاول أن يصب لي كأساً ثالثة فاعتذرت وألح فرفضت. ومن لفافته أشعل أخرى وزفر الدخان.

بعد لحظة صمت عاوده الأنين: كما ترى الآن.. وأمام عينيه راح يفتل اللفافة وبسخرية قال: إيه يا للدنيا كيف تتبدل من «اللوكي سترايك» إلى دخان «الناعورة» ومن الجوني ووكر إلى عرق الكبريتة.

واستمر يهز رأسه بحسرة.

وقلت في سري: وقبل أن أرى. من الست زينب إلى المزرعة، ومن المزرعة إلى باريس ولندن، ومن باريس ولندن إلى البرلمان، ومن هناك تمت مقايضة فلسطين واللواء، بالويسكي والنساء واللوكى.

وتابع أيوب: الزمن خائن. يوم معك ويومان عليك، وأمينة كانت مع الزمن علي.

كان الجو ثقيلاً ككتل من رصاص، وأيوب بدأ يدخل بوابة هذيانه، وخيل إلي وأنا أشهد اهتزازه العضوي، أن مراكزه العقلية تهتز هي الأخرى فاقدة أية قدرة على التركيز والمحاكمة وضبط الأشياء.

في ساعة متأخرة بعد أن أوشك الضجر والقرف على الانفجار في عروقي، غادرته وأنا ممزع النفس بينه وبين فقداني لأمينة.

المدينة هادئة، شجرها ساكن. أحس الصمت يتغلغل في روحي. إيقاع الخطوات متعب والصدر ضيق. هي الأخرى رحلت أخيراً ولم تترك كلمة. ربما بلا ندم. لعلها اكتشفت في النهاية سر اللعبة بيننا، انعطفت في طريق جديدة لا تعرف إلى أين تقودها. الآن أتذكر جيداً أحلامها القديمة عن السفر والبيوت الجميلة المؤثثة والسيارات ورؤية العالم الشاسع المسكون بالفرح والحرية.

كان ذلك في ليلة تخاصمنا فيها. لامتني لأنني أعتبرها ضجيعة في الليالي فقط، وأذكر أنها طلبت مني أن نذهب معاً إلى البحر ونمضي أيامنا هناك بين الشاطئ والريف، وأنها منذ زمن طويل تحلم برحلة كهذه معي، وفي تلك الليلة اعتذرت ووعدتها أن يتم ذلك في مستقبل قريب، وفي تلك الأيام كنت أعاني حزناً داخلياً سببه حالتي المرضية مع منى، وجبهتني بأن رفضي يعود إلى خجلي من الظهور معها أمام الناس باعتباري فتياً وهي في سن أمي. وزادت قائلة: إنك تكنّ لي احتقاراً دفيناً لأنني أخون زوجي. وجاهداً حاولت إقناعها بأنها تتوهم أموراً غير موجودة، وأن الموضوع لا صلة له بالاحتقار، وحاولت بتبسيط ممكن، إفهامها عجزي عن ابتناء صلة دائمة، وأن حياتي سلسلة من الفوضى وعدم التركيز، وكنت ألمح بذلك إلى استحالة الزواج منها أو من أية امرأة في العالم لأنني لست سوياً كما يعتقد الأطباء والناس. واثر ذلك حدثتني عن شاب ثري يهيم بها منذ زمن، وانها تصده وقد عرض عليها مالاً وسيارة، وهو على استعداد لاصطحابها معه إلى نيويورك حيث سيتم هناك دراسته الجامعية، وقد رأت أن تعرض الأمر علي لأفهم بأنها تضحي من أجلي بأحلام لا ترفضها امرأة في عالمنا.

وفيما بعد بمسرحية مضحكة، حاول الشاب الانتحار ليثبت صدق حبه لها. لقد جرح إصبعه بطلقة مسدس صغير. وإذ قالت بأن أيوب هرع إليه وضمد جراحه، أدركت أنه الطالب الذي جاء به أيوب وأجّره الغرفة المجاورة لغرفتها. وفي تلك الليلة اكتفينا بقبلات ميتة ومداعبات باردة وكنا كئيبين، ويومها على غير العادة خرجت من غرفتها باكراً.

هي ذي الشوارع تمتد. خارجة من شبكية الذاكرة إلى شبكية العين. تثير المرارة وحسّر الفقدان. فوق هذه الأرصفة قدتها. تبعتك كما يتبع عبد سيده. خلفك صعدت سلالم مجهولة والخوف منبث في خطواتها، وإذ كانت الأبواب تُرتج تلتفت. خائفة داخل الغرف الغريبة. تسأل: أمتأكد أن البيت خال؟ وإذ تجيبها: اطمئني. تتنفس روحها المرصودة بالخوف. تتقدم نحوك مادة ذراعين ناعمين

لها ملمس حرير فخم. بكل جسدك تحتويها وتضغط فتحس بأن أفراح العالم تطوقك الآن.

في آخر لقاء كان سلوكها غريباً، فلأول مرة شربت خمراً حتى ثملت ومن عينيها شع فرح لا مثيل له، وعبر ثرثرتها قالت بأنها ستقدم لي هدية جديدة من النوع الذي لا ينسى. كحلم تأتي الحادثة. حلم لا يصدق يخرج الآن كجرح على شاشة الذاكرة. لقد بدأت التعري كما لم يحدث في تاريخ علاقاتنا، وبعد أن انتهت تقدمت نحوي وهي تبتسم، وراحت تفك أزراري حتى عرّتني. وجهاً لوجه عاريين. تناولت كأسها وناولتني كأسي، جسدي يوازي جسدها ويلامسه. رفعت كأسها عالياً وقالت وهي تضحك ضحكة غريبة: نخب العري، وشربت وأنا مأخوذ بحالتها. وإذ أخذت ترقص ممسكة بيدي ملتحمة بي مبتعدة، بدت كأنما أصابها مسّ.

بعد أن أنهكت بالرقص والدوار في مساحة الغرفة الضيقة، استلقت أرضاً وكانت تلهث وجسدها يختلج وثدياها يخفقان في مهب ريح الجنس، وإذ تباطأت في الإقبال عليها، انقلبت على بطنها وراحت تصدر أصواتاً شهوية موجعة، وكنت مشدوهاً وهي تتحرك أمامي. تجثو على ركبتيها وهي ترتعش كمن يحتضر، وأسمعها تتمتم: أعرف أنني لا أستحق. أجل أنا تافهة ومنحطة.

وأقول: أنت مخطئة. أنا أرى فيك ملكة من نوع خاص. وصرخت: لا. لا. بل أنا أحقر من ذبابة. وبدأت تنشج بشكل مثير. وتقدمت منها ومسحت دمعها. مشت أناملي فوق ظهرها الياقوتي، وبحنو ضممتها وكنّا نجثو على البلاط البارد، واستلقينا. ولما تجاسدنا انبثقت منا رماح من نار، وفي ذلك النهار تعرفت فيها على معنى الحياة والموت وكأنما لأول مرة يولدان من جسدينا، ويومها كانت فرحة حتى الأقصى، ولم أكن أدري أن تلك اللحظة المباغتة ستكون الأخيرة. ونحن مولجان أخبرتني أن كل ذرة في جسدها ستظل تذكرني وقالت ستنساني يوماً لكني لن أستطيع أن أنساك.

وفي حالة بدء الصحو، تحدثت بأنها لم تكن تتصور أن الخمرة تثير إلى هذه الدرجة وقلت: ليست الخمرة فقط. وأشرعنا ضحكتين، ولم تكن ضحكتها كاملة، وعقبت: الآن تفهمين لماذا كنت آتيك مخموراً في الليالي الماضية.

وفي ذلك اليوم بقينا معاً من الظهيرة حتى المساء في بيت أحد الأصدقاء، وفيما بعد أدركت أن غياب ذكر أيوب والزواج، كانا من أسباب الفرح في نصف النهار ذاك.

ها هي الآن في هذه اللحظة مجرد ذكرى مضت، بعد أن داومت عليها كما يداوم رضيع على ثدي أمه. والآن أنت في فراغ دمشق تطوقك التعاسة التي تتقدم غب كل الأفراح. تعبر الشوارع القديمة التي عبرتها مئات المرات وذهنك عابق بحكايا مضت تمتزج مع هبوب ريح الياسمين. تدور. تدور. لافّاً منعطفات لا نهاية لها. وتحت الشبابيك التي عرفتك تمرّ ولا أحد يعرفك أو يشعر بوجودك. غريب. غريب وروائح الياسمين تحملها ريح رخاء. والروائح تذكر بما مضى فيأتلق الحنين إلى الجسد الدمشقي الذي غاب الآن، وفي ليالي الشتاء والأصياف الرطبة كانت الموئل والحضن الأمومي بعد أن اجتث الزمن وطن الطفولة.

غريب وحزين، كما ينبغي للغرباء والحزانى أن يكونوا في مثل ليلتك هذه.

- ٣ -

الهوس والكابوس ولوثة الحس. مبرر البقاء ونقيض الموت. كل هذه المسميات تختزل في إسم واحد: منى. معنى جميع الأشياء. كما يستوطن السرطان جسداً ثم يتلفه بعد وقت، هكذا كانت هذه المرأة التي حلمت بها مذ غادرت وطن الطفولة ويمّمت شطر دمشق. مرة واحدة رآها راني فأُخذ بها. قال عنها فيما بعد: هذه نقيض جميع العصور المنحطة التي نعيشها. ولأنهم مشهورون عرفتهم جميعاً: شعراء وضباطاً ومديرين ولاجئين وفلاحين. باسمها تحدثوا في مجالسهم وباسمها عُرفوا. وأذكر يوماً أنها صرحت لي: أنا متهمة بعلاقات مشبوهة مع الآخرين لكني أؤكد لك أنني بريئة من كل ذلك.

وتحدثنا عن راني بعد أن صارحتها برأيه فيها، فابتسمت ووصفته بأنه إنسان طيب وضعيف، يعيش قيماً تجريدية معرضة للاهتزاز والتناقض لكنه ككل المثقفين، دعيّ وجبان. وحاولت الدفاع عنه: راني جاع في طفولته وحرم من الحنان. فقالت بمجانية لا متناهية: عندما يشبع ويعانق لبناه من يضمن أنه لن يكذب ويخون؟

في ذلك الغروب كنا معاً في مقهى الشموع، كانت الأضواء خافتة، وقربنا كان عشاق مراهقون، وجوههم متحاذية تهمس كلمات مبهمة عن الحب. وسألتها عن رأيها بشخصي فقالت بأنني حالة مرضية خاصة: مزيج من الفوضى والحرية وردود الفعل والغضب. وابتسمت وهي تلخص: الحق أقول لك أنني لا أفهمك. إنني أتساءل أحياناً ما هو الوضع الجديد بين المتمرد والثوري؟ وأذكر أنها عانقتني وقالت: قبلني على خدي. وإذ سألت لماذا الخد. قالت: آدم يقبل ميسالينا على شفتيها.

محزنة حالة هذا المفقود. العربي المهجور وقد ضيع قومه وضيعوه. ومحزن أكثر ذلك الرجل الذي قتلته الشمس والتعب، وعاشر صمت الليالي وقرأ ابن الفارض

والمكزون وأبا نواس والشيرازي، معتقداً أنه نبي بين أنـاس يرجمون من ليس على شاكلتهم.

ومن الوظيفة إلى البيت، ومن البيت إلى الخمارة والشوارع. وزمن العربي ليس ملكه. ملك الريح. ومعه سهم ورمح، والحرب ساحتها النفوس التي سمعت صوت مناحيم بيغن: «سوف تعود أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل بتمامها إلى الأبد وسوف يبنى الهيكل وتشرق الشمس ثانية على بني إسرائيل» ثم ما لبثت أن نسيت. وفي الشوارع والخمارات والبنوك والضوضاء وأحضان النساء، راحت تغرز رماحها.

وتسألني منى ما الذي تفعله في أزمنة المحن؟ فأقول: أثمل وأغني. أشاهد وأناقش وأنوح.

تقول هازئة: عربي مثالي.

ولما حاولت الدفاع عن نفسي بأنني أعزل وحيد، خسرت وطني في معركة لم أخضها، وان حركة التاريخ تدار من القمة وأنا لست أكثر من حجر شطرنج، سألتني: لماذا لا تعود من حيث أتيت أو تنتحر؟

وقلت: لكن الانحراف يحدث باسمك.

واعترضت: أنا خارج الأشياء مثلك.

وقلت: دعينا إذن نهرب إلى الجبال لنعيد صنع العالم بطريقة جديدة؟

هزئت: يا غلام، الشعراء لا يصنعون العالم.

وإذ سألتها: من يصنعه إذن؟

ابتسمت. ضغطت أسنانها ثم مضت.

وأنا مستلق على السرير، هوم على شاشة الذاكرة حلم الرجل الذي قطع أصابعه الخمس، مخاطباً أبي: ملعونون. ملعونون أنتم. ملعونون حتى قيام الساعة.

فيما بعد مات بالسم وكان عرّاف نفسه، والذين سمّموه كانوا من سلالة أيوب.

وأيوب السرحان يسألك أن تعمل له شيئاً لتعود له أراضيه. ها. ها. والرصاص لماذا يطلق بغزارة إذن؟ والدم لماذا ينبغي أن ينبثق؟ وهذا القتل اليومي لماذا تُشرع راياته بين عبس وذبيان؟

منى اكتشفت أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى الهرب أو الانتحار. وعلى نحو مختلف كان هذا يعني الخيانة وأنك لست جديراً بها. والجبان يخاتل أحياناً بالتحليل والسفسطة، يحارب بالكلمات في أزمنة الرصاص: دونكيشوت معاصر.

لا بد أن زمناً غريباً، زمناً مفاجئاً عديم اللون يتقدم. سامر البدوي سماه: عصر الكلاب والسفلة. وراني قال عنه: أنه زمن المقصلة. أعني الزمن الأعمى. إنه يسقط فجأةً على ضحاياه دونما ذنب. ولم يسمِّه أحد عصر الشهداء. والد مسرور كان يحسه كدوي بحر خفي منبئ بالهياج، وكانت معادلة ربط الماضي بالحاضر، غير متسقة تماماً في رأسه. غير أنه كان يقول: في الماضي كنا أكثر شجاعة منكم. فالذين تطوعوا في جيش الإنقاذ ودخلوا فلسطين كانوا فدائيين تركوا بيوتهم وأطفالهم وأرزاقهم واندفعوا نحو الاستشهاد لا يلوون على شيء. كان مفهوم الوطن واضحاً وبسيطاً لا يحتاج إلى مماحكات ومؤتمرات وكلام فارغ. أن يذهب الإنسان إلى معركة ويموت بشرف، بذلك كان يتطهر وينقذ نفسه وينقذ الوطن. أنتم ماذا تفعلون في هذه الأيام السود؟

غير ان ما هو واضح في ذهنه، كان الصدع القائم بين الشجاعة بمفهومها البدائي، وبين تكوّن الإنسان الجديد الذي ما عاد شجاعاً. كان الصدع في الزمن النفسي لا في الزمن العضوي، وكان من السهل الحديث عن الموت المجاني بتلك التلقائية الشعرية والملحمية التي حدثت في فلسطين وفي تواريخ الأمم. لكن الذي كان صعباً هو كيف نرد بشكل علمي وحضاري على تصريح زعيم حزب حيروت الذي قال أيضاً: «لن يكون هناك سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل ولا حتى للعرب ما دمنا لم نستعد وطننا بأجمعه حتى ولو وقعنا معاهدة الصلح».

[]

أنهض نشيطاً. جو الغرفة حامضي وكئيب. أفتح النافذة فأفاجأ بجارتي لأول مرة على الشرفة بثوب النوم، تستحم في شمس دمشق الدافئة. شعرها مضطرب لكن النصف العلوي لثدييها بارز فوق حافة الشرفة. وددت لو أرتقي إليها، أعرفها بنفسي: أنا جار تعيس هجرته عشيقته والآن وحيد فهل يمكنك إيناسي؟ سحجت أسناني قرفاً وجارتي تنسحب مرتجة الباب بعنف إذ رأتني أرنو إليها. شعور بالقيء فاجأني وأنا أعبر الصالون. اتجهت نحو المطبخ ورشقت وجهي بالماء فازداد حس الغثيان. في المرحاض تقيأت. كان ذهني مشوشاً، وشعرت بأن لا شيء يعمل

فانبطحت على السرير. فكرت بمنى وأمينة وسامر، بدمشق والعالم، بحياتي المؤرجحة بين الممكن والمستحيل. وفي سمعي ضج صوت السيناتور مناحيم بيغن مرة أخرى.

كانت دمشق خارجاً. تسير بمشيئة أخرى، ولم يكن بيتي في دمشق ولا هناك، وغمرني حس الغربة صلباً قاطعاً كشفرة موسى، وقال الذي ليس أنا: لم يكتمل الوقت والجسد بعد. ورن جرس الباب. فاجأني وجه سامر البدوي. سلّم بشتيمة وهو يتقدم عابراً الصالون نحو الحجرة. دارت عيناه في الغرفة: أهذه غرفتك؟ وعلى وجهه ارتسم اشمئزاز.

قلت: وماذا فيها؟

– تشبه السجن.

– أنا أتعس من سجين.

وسأل إن كنت وحدي وتناول لفافة وطلب قهوة وكان منشرحاً. وسألته لماذا أتى في هذه الساعة فضحك: لدي أخبار سارة. وسألني رأيي في قصيدته الأخيرة التي قرأها في الواحة فقلت: كانت سامرية كالمعتاد.

– ماذا تعني بسامرية؟

– ابحار داخلي في متاهاتك الشخصية.

– إطراء أم تهمة؟

– كلاهما معاً.

وقال: يا أخي أنت مثقف وتدرك جيداً حالة الحلول بين الذاتي والموضوعي بالنسبة للأديب. الشاعر الحقيقي ذلك الذي يرصد العالم من خلال تجربته الذاتية.

وقلت: أولاً أرجو أن تنفي عني هذه التهمة المنحطة تهمة المثقف. أنا إنسان عادي يحاول أن يفهم فقط. وثانياً أنا أرفض المركزية الذاتية العاجزة عن الخروج إلى الآخر بإشارات خاصة. أعرف جيداً ماذا تود أن تقول غير أن ما أريد قوله: ان سقوطاً آخر، شيئاً آخر سمه ما تشاء يحدث في العالم خارج ذاتك الكريمة. صرخ غضباً: سقوطي رمز سقوط العالم.

وقلت متحدياً: لست العالم على ما أعتقد. دودة القز تموت داخل شرنقتها وهي تصنع الحرير.

وبدا محاصراً فقال: ينبغي أن أرحل. أنت لا تطاق. وقذف أمي بشتيمة قذرة.

وقلت: ترحل أو لا ترحل هذا لا يهم. ما يهم أن عليك أن تتعلم الاستماع إلى غير الإطراء الذي يقدمه الكذبة والفريسيون. أنت شاعر بالإحساس لكن جيوبك مليئة بالمرايا. تركته مغتماً ونهضت أعد له القهوة وإذ عدت كان يتصفح أوراقي. ابتسمت هازئاً وأنا أقدم له القهوة فرنا نحوي مستفهماً فقلت: غريب! منذ متى تقرأ دفاتر الآخرين؟ شتم. دخن بعصبية. احتسى قهوته. وأطلق خبره السار: طلّقت اليوم. وتحدث عن فرحه بالخلاص من خيوط العنكبوت، وانه يشعر الآن وكأنه خارج من مشفى، وأخبرني بأن تلك المخلوقة التعيسة كانت على حافة الجنون، وقال: بأن الحب حالة مرضية عابرة ابتلينا بها سوية في صباح ما في الجامعة. لا تستطيع أن تتصور ذلك الحب الذي كان. الجامعة تحدثت عنه لسنوات.

وصمت. كنت أتملاه. في عينيه حزن وتعب وفي وجهه صحة. وهو ينهض عن كرسيه كان يضع يده على قلبه: كيف حدث تبدل من أقصى الحب إلى أقصى الشفقة والازدراء مع المرأة نفسها؟ أي تمزيق يفعله الزمن في النفس؟ وتحدث عن ولادته الجديدة في هذه السن المتأخرة، وتساءل إن كان قد بقي له زمن بعد هذه الرحلة الشاقة، ثم تحدث عن الإنسان الذي يشبه الشجرة: أنا الآن أشبه السنديانة الهرمة. يوماً اثر يوم أحس بجذوري تتقطع. وانعطف أكثر نحو الوحش الذي يراه في الحلم واليقظة والذي يسري في دمه، وعلى قلبه ضغط أيضاً: في الختام تطفأ جميع الأضواء. أية مسرحية مفجعة ومضحكة! وما كان متوجاً بالكآبة كما هو الآن، وبعين أخرى لمحت وحش الموت يستل الرغبة من بدنه، ولم ينتبه لرعشة أصابعه وهو يتناول القهوة، وكنت متأكداً بأنه لو لمح ذلك لتناول فأساً وقطعها ورماها إلى كلاب الشوارع.

لست ذاكراً لماذا كان لقاؤنا جافاً في ذلك الضحى. إنني أذكر جيداً حديثي الآخر معه حول ما سميته التوازن الخاطئ للتلاؤم مع العالم، وان هذا التوازن لا يحس إلا بعد فوات الوقت، وأذكر بأنه قال: حتى أنت تتهم؟ وقلت ما معناه بأن الحياة في أصلها ربما كانت خطأ، ونحن واقعون في بئر هذا الخطأ من الأساس، وأنت عندما حاولت الاحتجاج على هذا الخطأ وقعت في خطأ آخر، وكثيرون لم يفهموا لماذا طعنت بقسوة رحم العالم المقدس وجعلت من حياتك جحيماً ومطهراً داخل جسد واحد. وإذ تحدثنا عن أمور كبيرة لها صلة بالتاريخ احتج على فكرة:

بأنه ليس أهلاً في هذا الزمن لأن يسهم في خلق التاريخ. ثم أضفت. أعني ربما كنت سابقاً في الوقت. وربما تصلح لزمن آخر غير هذا الزمن. وقال: أنت تدينني إذن! فقلت: أنا أحاول فهمك فقط، وإذ حاول أن يعيد أسطوانة الرغبات التي تتفجر في الداخل والتي تبحث عن مخرج في عالم مسدود، وإن الإنسان إما أن يعيش كما ينبغي أو ينتحر، قلت: كلنا مخطئون على ما يبدو في هذا العصر.

وبشدة رفض ذلك، وتحدث عن الثورة ضد القيم الكاذبة والناغلة في دمائنا: الصدق مع الذات هو الثورة، لكن الغباء السياسي قاصر عن فهم مثل هذه الحالة النفسية. يريدون أن يجعلوا منا ثوريين بمضمون كهنوتي وهذا ليس مناقضاً للحقيقة الثورية فقط، إنما معادٍ للوجود الإنساني في العالم. لكي أكون ثورياً ينبغي أن أكون أنا بكل العري المطلق من الداخل والخارج. وبألم حكى عن شعوره بالنبي، وانهم هددوه بالفصل من الحزب إذا لم يغير حياته الفوضوية، وقال: الحزب في دمي ماذا يبقى لنا بدونه؟ الحزب أبي وأمي وزوجتي التي أشتهي الزواج منها يوماً بعد أن طلقت. واذكر بأنني جابهته بأنه ليس جديراً بالحزب فامتعض. شتمني واتهمني. وإذ حاولت توضيح فكرتي عن الطبيعة المناقضة لتكوينه النفسي مع طبيعة الحزب، وان ثمة فرقاً شاسعاً بين المناضل السياسي الذي يتجاوز رغباته الذاتية وبين الشاعر، هزئ من فكرتي، كما أذكر أن أصواتنا ارتفعت أكثر مما ينبغي حتى أن جارتي خرجت مرة أخرى إلى الشرفة تستطلع الشجار. كان غضبه قد وصل إلى أقصاه، وبدا وجهه في لون النار والرماد عندما بدأ يصرخ كحيوان مطعون ويضرب الطاولة بقبضته المتوحشة. اثر هياجه صمتّ. لم أنبس حرفاً. فقط استلقيت على السرير أحدق في السقف. وإذ صفق الباب بعنف سمعت مقطعاً من جملته الأخيرة: كلاب. أوباش. كلكم هكذا!

- ٤ -

ذلك اليوم لاينسى: أتصوره الآن في تلك البقاع الشديدة الحساسية من ذاكرتي، ملوناً، عاصفاً، مخضوباً بالدمع والشهوة. كنا نسير في الضحى تحت شمس دمشق، وخريف المدينة بذلك الهبوب الحزين لنسائمه يمسح وجهينا، وثمة حبات من العرق راحت تولد تحت الجلد الذي أتعبه المسير.

في البدء كنا نتوجه نحو بيتنا القديم، وهناك في ذلك المكان المهجور، كان علينا أن نقيم الطقوس الأخيرة لحكاياتنا التي ولدت وماتت، ثم سجلت في أرشيف الضمير الزمني للمدينة التي لا تنسى. برغبة لا شعورية صدرت الأوامر لخطواتنا كي تغير الاتجاه فانعطفنا نحو الدروب القديمة. يدا بيد تارة ومطوقين أخرى، وفي الأعماق نشيد من الفرح الجنائزي يحبو فوق تلال نفسينا الكسيرتين.

ونحن نطوف داخل كعبة الذكريات، كان الصمت يرتل النشيد، تخرقه بين حين وآخر إيقاع خطواتنا الوئيدة الهاجسة بالوداع، والحركات الموجعة للأصابع وهي تسري مع الأصابع، ولراحتي اليدين الملتحمتين المستريحتين، والمدلاتين كبقايا أوراق شجرة داهمها شتاء عاصف.

بوعي وغير وعي عبرنا فوق جميع الأرصفة. مست أطراف شعرنا الذؤابات المتدلية لصفصاف بردى، قطفنا زهرات ياسمين كانت روائحها قد امتصتها أشعة الشمس. تعرقت داخل كفينا ثم ما لبثت أن ذبلت كريش نورس طعن للتو فهوت فوق الاسفلت. ذاكر الآن كيف كانت تلك الجنازة تتجه نحو المقبرة وليس خلفها إلا بعض الفقراء من الذين أحبوه، رغم أعاصير غضبه التي كانت تجتاح كل شئ عندما تهب. لقد مددوه بعد الغسل في تابوت خشبي عتيق وكفنوه، ثم تهدجت أصواتهم متغلغلة عبر البيت المترب المدعم بالحطب: وعَنَت الوجوه للحيّ القيّوم وقد خاب من حمل ظلماً. الله حي. الله الباقي. آجروا يا أخوان. آجروا. وفوق الراحات حملوه. من كل تاريخ ذلك الرجل لم يبق الآن غير تلك الحفرة المردومة

فوق عظام تآخت الآن مع التراب وانحلت فيه، وغير باقة من ريحان توضع فجراً فوق حجارة القبر في مواسم الأعياد وفي المساء تذبل وتموت.

ونسير، كأن حلماً يلفنا، مأخوذين بهذا العبور الزمني الأخير، تأسرنا معاً تلك اللحظة الغفل التي ظلت مفلتة منا فلم نمسك بها يوماً، والتي كان يمكن أن تكون برق تواصلنا المركزي الذي انفجر الآن.

هل قلت أن أصابعنا كانت مشتبكة في عتاب سري، وان زندي طوق خصرها النحيل على الأرصفة، تحت بريق الضحى، والناس يمرون بنا ونحن لا نرى غير حلمنا الوداعي الأخير؟ كل هذا يضاف إليه عناقنا وقبلاتنا الشمسية لا تحدياً ولا ثأراً، إنما شعور عفوي صدر منا بغتة في تلك اللحظة الخاطفة. آه كم تمنيناها أن تطول، وتطول، لتدحر كل الحزن وكل الفصام اللذين قطعا نفسينا بسكين أحدّ من الموت.

كم طالت المسيرة؟ كم كلمة ألقينا؟ متحاشين الحوارات العقيمة الماضية. كيف اخترقنا جدار الزمن الذي كسرنا في ختام اللعبة؟ كل ما أذكره بعد ذلك أننا أتممنا مراسيم الحلم في غرفة مضيئة فيها سرير أبيض موشاة بستائر برتقالية، فتحنا نوافذها واستلقينا على السرير عاريين ثم انغمرنا في نشيج حارّ وطويل.

(شاطئ مرمل ومعشب. البحر هادئ يسبح فيه أناس لا أعرفهم. بناء شاهق قرب البحر يشبه القلاع القديمة. داخل البناء مظلم ورطب تذكر هندسته الداخلية ودهاليزه بسجون القرون الوسطى. البناء من الداخل ضيق ذو طابقين وأنا في الطابق الأعلى. ثمة سلّمان متقابلان. يوديان إلى أسفل حيث يقوم بئر عميق مظلم وأنا محاصر داخل مساحة بحجم السجن وخائف. امرأة تقف على سلم خشبي. أراها تضغط شيئاً ما فيساعدها السلم على النزول إلى أسفل. أضرع للمرأة النازلة أن تساعدني في الهبوط. تنظر نحوي بلا مبالاة وصمت وتختفي. بعد حين تصعد من السلم الآخر امرأة أخرى «النساء يبدون كممرضات في مستشفى».

المرأة الصاعدة ترتقي بيسر السلم البئري «أحس داخلياً أنني عاجز عن هذا الارتقاء السهل» بعد أن تخرج من فوهة البئر ترتقي درجاً لسلم خشبي أنا أقف في أعلاه، خائف من السقوط فأميل إلى الجانب الأيسر بحيث لو سقطت فعلى السطح الداخلي للقلعة. بعيداً عن فوهتي البئرين تظهر المرأة الأخرى ترتدي رداء أبيض. أناوب النظر بين المرأتين فيزداد دعري «أحس كأن شيئاً مبيتاً ضدي سينفذ بعد حين» نتبادل النظر ثلاثتنا. تسحبني قوة خفية وأغيب في ظلام مسدود.

في الحلم نفسه أرى البحر مرة أخرى. القلعة اختفت. في البحر سفن عربية. لقد تحول البحر من سكونه إلى وضع مضطرب هائج والسفن تشقه. أهجس بأن إسرائيل ستغير بطائراتها على السفن العربية لتحطمها في موانئها وبذلك تشل عمل الأسطول البحري. أسمع دوي طائرات مغيرة. أرى السفن تغرق وتغوص إلى الأعماق. الطائرات العربية تشتبك مع طيران إسرائيل. جنود عرب على شاطئ البحر. بنادقهم مسدّدة وهم لا يعرفون بعضهم بعضاً. أعرف بعض الجنود. أصيح بهم ألا يطلقوا النار علي. نتعارف ونسير باتجاه البحر.

أعود إلى وضعي في القلعة ومعي حطام بعض الطائرات داخل سطل كبير. أعتقد أنها حطام طائرات إسرائيلية (لا أتذكر تماماً). أقف في نافذة القلعة. على الأرض أرى ممرضة كأنها قادمة لتناول السطل. أقذف به نحوها فيرتطم بالأرض محدثاً ضجة. يتناثر الحطام فإذا هو جثة داخل كفن أبيض. أراني قرب الجثة والممرضة تتوزع النظر بيني وبين الجثة. فجأةً اسمع رعداً سماوياً تهتز القلعة منه. تميل ولكنها لا تسقط. أحاول أن أجري فلا أستطيع. الرعد يزداد وأنا في مواجهة البحر. موج البحر كالجبال. الأفق الأسود. الموج يسد المدى. يقذفني موج البحر الغاضب فأغيب في اللج. ثم لا شيئ).

عندما استيقظت، كنت وحيداً، مغطى حتى نصفي. الغرفة مغلقة والستائر مسدلة، وفي فراغ الغرفة يسبح صمت جنائزي يشي بأصداء امرأة عبرت هذا الفراغ ثم مضت، مخلفة رائحتها ودمعها في ذرات جميع الأشياء القائمة هنا. ومع أنني كنت مُنهكاً مشوشاً بالكابوس، والنفس قد ران عليها غبش من مرارة الفقد، غير أنني كنت في تلك اللحظة في أكثر الحالات تركيزاً وهدوءاً. كنت قد خرجت الآن من المعركة كجثة الكابوس وكانت غبطة غريبة تهزني. غبطة المأساة المتخفية وراء جميع الفواجع، والتي تفاجئ بنوع من سلام هادئ لا لون له ولا طعم ولا رائحة، سلام ساكن يقول جملة مبهمة: وأخيراً انتهى شيئ ما.

على مهل نهضت. ارتديت ثيابي. على الطاولة لمحت دفترها. تناولته. ومن جديد استقبلت نهار دمشق الكابي.

الفصل الخامس

- ١ -

فوق المشرحة ممدد. نصفه الأعلى عار. مجلل هو بملك الموت وقلبه ساكن كحجر في قاع بحر. وحده يموت ودمشق لا تلبس حدادا، لكن عينيه الهادئتين وسكينة وجهه ترسمان اشارة الاستفهام الأبدية: لماذا يموت الانسان؟

وفي عصره كان اميرا. من سلالة اعترضت الحياة جاء. ابتغت ان تقول شيئا خاصا لكن الزمن حكم عليها بالسقوط، اخترقها كالرمح من الخاصرة الى الخاصرة اذ تصدت لقانون الزمن. هوذا راقد شاعر الوقت الملعون. شاعر الجسد والأزمنة الراحلة. فوق البلاط البارد مسجى وفي الجانب الأيسر من صدره علامة طلقة مرت عبر الأذنين، مزقته ومضت، لكن الجسد ما زال حاراً تحت اصابعي.

فوق الجسد الذي تألق في ليالي دمشق زمناً، تقف الزوجة التي كانت وحدها تنتحب من بين كل النساء الدمشقيات، ووحدها المرتدية سواداً يحاكي سواد العصر العربي. وحول الجسد ايضا رجال غرباء صامتون، وممرضات مُجلّلات بالصمت والحزن. وفي الطرف الآخر من المدينة تقيم منى، تعرف من المسجى لكنها لا تقترب. تعرف القتيل والقاتل وتتدثر بالصمت والخذلان.

عن شجاري الماضي اعتذر واصابعي الخمس تلامس وجهه، وتمسح صدره العاري العريض المكتنز: هو هنا الآن اذن! شيء آخر مختلف تماما. بل هو نفسه. بهيئته وأبهة جسده الذي مال أخيرا وهوى، وغير الحركة لا ينقصه. لماذا هو هكذا غير ما كان؟ أي خطأ يكمن فيه؟ لماذا لا يقوم؟ لماذا لا يكون اليعازر؟

- باسم الآب والابن والروح القدس أدعوك ان تقوم. باسم الحزن ودمشق أدعوك.

يزداد شهيق المرأة. يرتفع غفرانها فيرميها فوق الجسد الأبيض. يتغطى الجسد بكآبة المرأة وتروح شفتاها تلثمان الصدغ والوجنتين والشفتين والعنق، ثم تجمدان فوق بوابة الطلقة.

في الخارج طلقات. دمشق مجلّلة، تزغرد محتفلة بأعراسها الموسمية. للتاريخ تقدم ابناءها وامرؤ القيس مقتول. والثأر يلد ثأرا حتى في القرن العشرين، ومناحيم بيغن ينادي: «هذا زمن سقوط العرب وانحطاطهم». والذي اصاب سمعه الوقر يحتفل في بيته، يحضر رغبته ليطلقها عبر جسد ديانا المولع بالبروكار.

– اسبوا نساء دمشق ردّاً على سبايا بابل. يهجس جيل السيناتور مناحيم.

وسامر البدوي ارتاح، كما ارتاح وائل، لكن المدينة المتعبة ما زال يسكنها الرصاص والثأر: هل ترتاح دمشق يوما؟

– «هذا عصر الجنود لا عصر الشعراء. نَمْ يا اليعازر نَمْ. فلسطين لا تريد مسيحاً في هذا العصر الدامي». وأغادره شارقاً دمعة تود ان تغفر، فتتلقاني الريح.

وحيد. دمشق انوارها مطفأة. صمت الليل يسري في شرايينه الفزع والتوجس. وبين لحظة واخرى تمزق وتين الليل والصمت طلقة. انفجرت دمشق أخيراً. فزعاً اجتاز بوابة الليل. ولا أمان. بنادق سريعة الطلقات يتأبطها الجنود. والأحذية الثقيلة تقرع الاسفلت بثقتها العمياء بعد أن تلقّت الأوامر باحتلال المدينة الآمنة.

بيت مسرور كهف امان. انسرب وخوفي فوق الدرج وسريعين نضغط الجرس بتواصل. تسحب سقاطة الباب. وجه ديانا يطل كمنارة لسفينة تائهة، ومن الداخل يأتي صخب وموسيقى.

مليّاً والبصر في البصر. وجه مشتعل مقابل وجه تابوتي، وبينهما رغبة قديمة مكبوتة: أهذا أنت!؟

تترنح على العتبة. نتسمر لحظة: انت ثملة؟ ورويداً تغلق الباب. لاشعورها سيد حركاتها. طاغيا طغا الآن، وكلانا في الخارج، تحت الدرج، في العتم. كيف مزقنا ستارة الخوف التي ارتفعت كل تلك الشهور فأخفت وجدنا الذي اشتعل الآن ثم اتحد؟ وقالت بانها جاهدت كثيراً لئلا يحدث هذا الشيء، وشعرت بدمعها الحار ينسكب فوق صدري، وفي الظلام سمعت صوت انتحابها واذ قلت لها: هذا لم يعد ينفع. قالت: لكن هذا مؤلم لمسرور. مؤلم!

وانا أزيح صورة سامر، وما يحدث عبر شوارع المدينة المتوّجة بالرصاص، حاولتَ تهدئتها بان ما حدث لم يكن أكثر من تجسيد لما في الذهن، وان ما يفزعك في الأمر قد تم منذ زمن طويل عبر الأحلام. الى صدري ضممتها فعادت رائحتها الأولى تنتشر في جسدي. وطويلاً قبلتها قبل ان ندخل.

ناس وضجيج. رقص عشوائي. وموسيقى. يزعق مسرور وراني بشتيمة ويطوقان عنقي. ارسم ابتسامة ميتة، واطوقها ثم تسقط الأذرع منسحبة على سجيتها بعد احتفال الكذب المفاجىء.

الرجال والنساء يرنون نحو الغريب الذي ولج فرحهم فجأة. للحظة ويعود النسيان واللامبالاة. ويستمر كما كان. ثمل مسرور حتى العمى، ينتقل من امرأة الى اخرى مستعرضاً فشله العضوي في اتقان الرقص، وهو يصيح ويعلو ويهبط، ثم يدور لكنه لا يقترب من ديانا.

يتقدم راني نحوي. يجاهد ان يكون مستيقظا، ويوشوشني: لحم. لحم. قُمْ واغرفْ. العالم مُباح. لم يبقَ الا اللحم.. ابتسم لكلمته. واشرب نخبه ونخب اللحم: استمرْ في فرحك ودعكَ مني.

وينفتل فارشاً ذراعيه ويبدأ رقصة مشوهة عن «الفلامنكو» الاسبانية. يحاذي امرأة فيطعن مؤخرتها، يتخطاها آخذاً بكلتا ذراعيه ظهر أخرى، وفجأة يقف أمام ديانا. بكآبة ترفع رأسها رفضاً. في وجهها أرى الذل والحزن. تنسكب العيون في العيون عبر الصخب والذل، فيأخذني تيار راعد بأننا خنّا مسروراً في النهاية. يهتز سؤال: لماذا حدث ما حدث؟ ويقترب مسرور مني. يناولني كأسه: اشرب يا ملعون اشرب. الخمر هي الله.

اشرب. وهو واقف فوقي كشجرة عملاقة، وانا مكوّم في الكنبة اشعر به كالضمير. أسأله: هل شربت ديانا كثيراً اليوم؟ يهتز وهو يضرب ساقيه بالأرض: شربت حتى صارت تهذي. واستطرد: ذكرتك آلاف المرات. على ابائك اللعنة وعليها. وأترع كأسه حتى القطرات. قال وهو ينحني فوقي: اسمع جيدا لكن لا تقل لها. ديانا لا تحبني هل تفهم؟ انها عاشقة وتخاف ان اقتلها. هذه حقيقة انت لا تعرفها. هُسْ.

على فمي وضع كفا واصبعا على فمه: انها تثق بك ولكن اياك!

وانفتل يغني: والرمل مايبعجن/والشوك ماينداس/والسر ما ينعطي الا لناس وناس.

لحت المسيح المصلوب على جدار القبو، وقربه المرأة البرونزية العامرة بالشهوة مستلقية على بطنها بثياب البحر، فتذكرت امينة في آخر لقاء.

كان الضوء خافتا في تلك الليلة العجيبة، ومسرور فرح وحزين يرقص مع جميع النساء الحاضرات. يضاجعهن بخياله منتقلا من ديانا ومن الماضي المهين. يرقص بطريقة عرجاء تدعو للشفقة، واذ يبلغ التعب أوجه براني، يتناول نايه عن المكتبة، يشبب موّالا لأحزانه الداخلية.

يتقدم مسرور صوب امرأة شقراء فاتنة فيطلب مراقصتها. واذ تذعن له بابتسامتها الغبية، يطوقها، ويستمر راني موقعا الأسى في فضاء مسجون.

— «كنا نتقدم نحو حيفا كما تتقدم السكين في قرص من الزبدة».

تتنهد ديانا وهي تدخن. وحيدة مرمية في فراغ الأريكة وفخذاها يلمعان تحت الضوء الأحمر، وجلبة الحضور تحجبها. تسألني عيناها: هل كنا آثمين؟ أشيح ببصري نحو مسرور المبتل بنشوة الرقص والنسيان، وبراحة كفي أحاول مسح الضيق عن صدغي.

مسيرة الشوارع عبر الليل الرطب، ورائحة الياسمين تدخل مسام القلب فتندغم برائحة ديانا. توقّع. والمرأة التي سارت عبر دروب دمشق الليلية، صارت هاجسا ينغص النوم والحركة. دخلتْ بحكم قوانين السير والروائح، شبكية الرغبة، والرغبة قاسية، ملحة، تشبه حالة بدوي قتل أخوه والقاتل حي. في ليلة شفافة قرأت ديانا مذكرات مسرور الخاصة جداً والتي تتحدث عن خليلاته السريات وآلام الهجرة، وعن طفولتها تحدثت بشفافية لا عهد لك بها، وكانت ترتدي ثوب نومها الشفاف المحسور، وفخذاها المسبوكان بمجد تكوينهما الخاص، يبرقان فوق الشبكية. حتى ساعة متأخرة سهرت معك. كنتما متحاذيين على الديوان، وحركات جسدها تثير الوجع. سكبت لك خمرا وباحت باسرارها الملفعة تحت ثلج الزمن.

في المكان نفسه حيث انفجر غضب البدوي واستراح الثأر، وانتما عائدان من المسيرة، قبلتها في العتم وداعبت الزند الأملس، والوجه المحتقن بالعذاب والشهوة. وليلتها ارتعشت كغصن في مهب إعصار. جرت على الدرج فتحت الباب وانارت الممر وجميع الغرف، واذ حاولت ان تطفىء الأنوار صرخت: لا. لا. ارجوك دع النور مشتعلاً في كل البيت. سيأتي مسرورو قريباً. وفي غرفة النوم وأنت تدير قرص الهاتف اقتربت: يطلبون من مسرور ان يغادر. كانتْ تطل عليك وانت على حافة السرير، شبيهة بفينوس. يداها مسبلتان ولكن نفسها مبتورة، وفي وجهها ضراعة وخذلان.

وسألتها: متى طلبوا منه ذلك؟

فقالت: الليلة.

يخرق ناي راني الجدران. ناي فراقي وحيد. يغني للينا ولعصور المستقبل، ناسيا الفشل العظيم القادم.

وأسأل ديانا: لماذا عليه ان يغادر دمشق؟ فتقول بسخرية: ليشترك في الذي يسمونه النضال السري والعمل الفدائي.

على وجهها يرتسم اشمئزاز، واغبرار جاف.

وانا اعيد ادارة القرص اقول لها: عليك ان تتحملي. رفاقه سبقوه.

— أتحمل ماذا؟

— حياة هذا الرجل الذي لا وطن له.

وكمن يشعر بأن شيئاً ما يُغتصب منه ترفض: لكن دمشق صارت وطناً!

وأرنو اليها ضاغطاً سماعة الهاتف: وفلسطين؟

— لم تعدْ تعني مسروراً وحده.

— لكنك ترفضين ان يفعل شيئا من اجلها!

— اما آن له ان يستقر. الى متى يظل يهاجر؟ تزوجته بعد ان خرجت من ديني اليه كي نحيا بأمان ويكون لنا بيت واطفال ومستقبل.

— مسرور ملتزم بالحزب. اعطاه نفسه وهو الآن يدعوه للعمل.

— هناك عمل وهنا عمل. لماذا يذهب ويبقى غيره؟ لن نتزحزح من دمشق.

انتهي من المخابرة وانا اضغط احتقاري. اهز رأسي بأسف. انهض ماراً قربها. تلفحني رائحتها. رائحة خانقة. وامضي. في الممر يتلقاني مسرور: أيها الاباحي كنت تغازل ديانا.

— مسرور هل انت مخمور كثيراً؟

يرفع حاجبيه استنكاراً. يفتل نصف دائرة، فيعود الى مواجهتي: صدقني انني أحبك. دعنا نرقص سوية تعبيرا عن الحب الصامت بيننا.

— لماذا لا تراقص ديانا؟

ولا يجيب. معا نرقص بين جدارين ضيقين. في حميا الرقص اسأله : هل سترحل ؟

– الى أين ؟

– ديانا أخبرتني.

– الكلبة.

– لكن ديانا ضعيفة. حاول ان تفهمها.

– افهمها ! ثلاث سنوات وانا انام مع جدار. ديانا خائنة. خائنة هل تفهم ذلك ؟

– تتهمها زوراً. اعتقد انها تحبك.

ويضحك على نحو غريب. فيبدو وجهه ممتقعاً. يتحول رقصه حركات تشنجية. رقص اشبه بالموت.

– هل ستنفِّذ ؟

تبدأ رقصته بالتخامد. يتمتم : لا أدري. لا أدري !

على مقربة منا تقف ديانا. وعلة مقهورة تتفجر صبا وعافية، عيناها تتوسان علينا، بينما يلوح مسرور منهكاً كأنما أخرج لتوه من تابوت.

اخطو باتجاه الباب فيقف مسرور. يمسكني بزندي : ما الذي حدث ؟

– شيء تافه.

– انت تغادرنا ؟

– أحس صداعاً.

– أأنت مؤذى منا ؟

– ابدا. كل ما في الأمر انني اشعر بالاختناق ولا بد من الريح.

– هل أساءت ديانا اليك ؟

– لا. الانسان يسيء الى نفسه.

كان يرتعد وفي عينيه المنهمكتين ذعر، وهو يرى ديانا ملتصقة بالجدار كمسيح مصلوب يجللهاحزن واحتقار.

– انتظر !

وبحيوية غريبة وُلدتْ بغتة وثب مسرور الى المطبخ. ورفعت ديانا عينين ذابلتين وارتفع صوت الناي جريحاً كريح في غابة من القصب.

– مسرور...

مع الصرخة انهمر النصل في عنق ديانا. ضارعة صرخت ثم هوت فهوى فوقها وراح يطعن النحر والثديين والقلب والوجه، وكاللمع راحت المدية ترتفع وتسقط والضحية تتململ وترتعش وتتغرغر. كبرق خاطف حدث ذلك واذ حاولت ان اسحبه وانا اصرخ : مجنون. مجنون. مسرور. لا. لا. طعنني بحركة خلفية خاطفة دون ان ينظر نحوي فأصابني في ذراعي، وتابع طقوس القتل واصابني رشاش من دم ديانا واضطرب العالم عبر بصري، ونز جرحي أكثر، وداهمني دوار واندفعت الى الداخل ممسكاً الجرح وصحت : مسرور ذبح ديانا...

عندما خرجوا، وصاحوا، وانبهتوا، كانت طقوس مسرور الشجاع قد انتهت. في حين كانت ديانا أخرى تختلج فوق بلاط الممر وسواقي الدم تنحدر بطيئة نحو المطبخ والغرف، والجدار زركشه الدم، بينما الفارس يتكيء على الجدار وبين اصابعه المدلاة سكين دمها غضّ، وفي عينيه انبهار.

- ٢ -

هأنذا في ريح المدينة. محمول فوق زمان عصي على الفهم. في فمي المرارة والدم، وجرحي ينزّ ألماً، ومشهد المقتولين في ليلة واحدة يكاد يخرج من الريح والشجر، من الأشياء وتنفسي.

مضوا. والذي ظل، المدينة والزمن.

آه. يالدمشق العريقة بمراسيم الدفن !

واحداً تلو الآخر مضوا. كما تمضي الريح، كما يمضي غيم الصيف بمشيئة الريح.

«نحن الاسرائيليين محكومون بالنصر والعرب محكومون بالهزيمة». أيمر تاريخ العربي بدور الانحدار حقاً ؟ لكن السوس أين يكمن ؟

وانت يا فشل العصور ما الذي تستطيعه لا يقاظ العربي الغائب ؟

ومن قلب الريح ورائحة الدم تنبثق منى.

امسك بها : خطاة نحن فاغفري لنا. عودي. ما زال في الدم حنين اليك.

أهم ان أروي لها ما حدث. تسرده لي وتقول : ما الفائدة. الا تسمع طقوس الموت ؟

السناتور مناحيم قال : «كنا نتقدم في حيفا كسكين في قرص من الزبدة».

تبتسم : وسكين مسرور كيف تقدمت في عنق ديانا ؟ شجرة الحور وطلقة سامر كيف اخترقتا الخاصرة ؟

- سنبدأ من جديد وبطريقة مختلفة مُنى !

- هشَّمني العشاق الكذبة. الى الجحيم هذه السلالة.

بعنف رجل يرفض الاستسلام اهزها : مرة اخرى اخرجي من غرفة

التعذيب. مات من مات، وقُتل من قُتل كان لا بد من ذلك، لكن هذه الأرض خصبة لا تموت. دعينا ننجُ بعيداً عن دمشق !

- كيف أثق بك ؟

- هذا دمي !

ولم تثق بي. ومضت.

رطوبة المدينة احسها فوق بقايا الدمع وفوق شجر السبكي. اصوات وطلقات تدوي قادمة من كل اطراف المدينة. وحدي في هذا الظلام الصلب، والطلقات تئز متقطعة ومتواصلة بين حين وآخر. سيارات مطلية بالوحل والغبار والدم، تمزق صدر الاسفلت والصمت.

- دمشق تُزفّ.

(صحراء لا يحدها البصر، تلوح على شاشة الذاكرة. ظلال قديمة من أزمنة غبرت. تأتي حادة في صورها التي ترتسم، ومتوحشة. لم تكن هكذا في الكتب. كحكايات خرافية فيما مضى كنت تتذكرها. لماذا تعود الآن بهذا النبض المتوحش. كالومض تمر عبر عجاج رمادي داخله فرسان يمتطون صهوات خيول رمادية وقرمزية وصهب. الآن تندمج الطلقات بصوت الصهيل، وحركة السيارات الجامحة فوق الأرصفة تشبه وثوب الخيل وانغراس حوافرها في الصدور التي تتقصف، فتموت صرختها مع الدم المعجون بالغبار. الريح القاسية نفسها تسقط رايات وترفع أخرى، والرمل الأعمى يدرج بين براثنه التاريخ والقتلى الذين بدوا مصلوبين على أرض الصحراء، وغير مميزين تماماً. لكنك تعرفهم جيدا حتى المجهولين الذين نسيت الكتب اسماءهم. رأس الحسين المفصول الممرغ، يبدو جمجمة يحملها سامر البدوي في يده فتتحول دورقاً للخمر. الآن سقط جسده بعد ان تسمم بالخمر والنساء وأفعى الزمن. صار حجراً تقاذفه السنابك، ثم ذرة تضاف الى ركام الرمل المتعرج هناك عند أفق الصحراء. وحيدا يترنح مسرور، تائها في شعاب الصحراء. ينوح كوحشي الذي قتل حمزة ضارباً صدره ندما. يهوي اخيرا ثم يضيع بين الغبار والرمل. ومن بعيد يتنامى صوت ناي موجع يحدو مراثي الحرب. أيضاً تتوضح الظلال، وينجلي رويداً الغبار فيبدو سيف أبي العباس، ورمح الثقفي آخذاً الرقاب التي حان قطافها، وجلدعبدالله بن الزبير وهو يسلخ بعد أن صلب على أبواب مكة. قميص ابن عفان مضرّج بالدم يلوح في يد عائشة، ومعاوية يغتصب الخلافة بقوة السيف والمكر. وخيول

هولاكو تضرب بهمجية صدر العراق. يثب الدم من ظهر دجلة. تختلط السيوف بالرماح بالاكباد التي تُلاك تحت أسنان النساء. ينحدر الزمن، ينحدر. تتقلص الصحراء. تقترب. يدفعها زلزال مجنون. يصل بها مشارف الشام. ثم يتحد الزمن ويتكثّف منحلاً في بؤرة الذاكرة).

[]

اتابع مسيري وسط دمشق الحزينة. في ممرات الموت. لا بيت. والذعر سيدي الذي يسوقني، وفي سمعي واني الروائح والطلقات، والتوابيت المحمولة، آتية من كل فج عميق.

كالموت هادئة ذاكرة التاريخ. راقدة تحت قدمي قاسيون. عين مغمضة وعين مفتوحة ابدا.

عبر هذا الجنون اطل وجهه ومعه سفر الزمن القديم: عد الى السهول والأرض. عد الى بيتك القديم.

– انت رجل مات من سنين وانا أرفضك.

وقال: لست جيل الحرية والمطر وفقراء الأرض.

– من أكون اذن ؟

– عابر في تاريخ الدم والثارات.

– اهذا عصر السناتور مناحيم ؟

– انت لا تريد ان تكون واقعيا. أنت في عصر الخيانة والموت.

– اغرب عن وجهي ايها الرجل العتيق.

– انا أبوك.

– من ألفي عام مات أبي.

– لكنه كان رجلاً.

– كان بدويا يصلح لعصره.

اسير. انعطف من شارع الى آخر، ماراً فوق الدروب قرب جميع المحطات التي عرفتنا.

موجة ريح تلفحني فيتغلغل في وطن النفس صفاء مبارك. تحمل الريح رائحة

منى العذبة. أوشوش للرائحة: باسمهم سامحينا يا عزيزتي. وفي ليل الرصاص ينحدر الدمع.

المدينة دوي. والنفس تحمل الجنازة مرتقية بها نحو قاسيون. أمرّ على منازلهم ومرافىء ممراتهم. تحت الاشجار، فوق الحجارة، حاملا عبق الصحاب الذين تحدثوا عن منى وما عرفوا سرها. صحابي الذين احببت. أحبابي الذين تاهوا في الصحارى بعد ان فقدوا ذاكرتهم فالتقطتها في الغفلة دمشق، وما بكتْ عليهم. وتنهمر الطلقات فأحسّها تمرق في جدار جمجمتي. أبرياء آخرون يهوون في المنحدر العميق، العميق. والسيناتور بيغن يقهقه. كالطلقة أسمع صوته: «العرب يمرون في دور الشيخوخة وهذه الدورة للعبرانيين».

– «لم ينته الزمن وروح البدوي سارية في الريح والنسل». صدى صوت خفي قادم من عصارة الأرض الداخلية.

ويتوقف ناي راني عن النشج، يتوقف الرقص، ثم يطل فوق جسد ديانا المطعون.

في ليلتي الأخيرة امضي، بعد ان عرفتهم عن كثب وبُعد، ودمشق ما تزال تزخّ رصاصاً وقلبي يزخ أسى، ذاكراً الآن وداع امي القديم ودموعها: أنت تذهب الى بلاد بعيدة مجهولة. ما الذي لك فيها ؟

– قديمة انت يا أمي وانا لا استطيع ان اشرح لك لماذا امضي.

– اعرف. انت مثله. تضع روحك على كفك. لن تعود الا محمولاً.

– لو تفهمين معنى الوطن يا أماه !

[]

(بيت قديم مبني بدعامات من حطب. مطلي بالحوّار. الدعامات تبدو مائلة، والحوّار عتيق كشطَ الزمن مناطق منه، والبيت يبدو مائلاً وشيك السقوط. هكذا بدا لي من الخارج. أرى نفسي داخل البيت. معي أخي ونسوة أخريات بينهن امرأة تشبه امي لا أعرفهن. البيت من الداخل رطب مظلم متهرّىء، يحتوي سراديب مجهولة. اتوقع داخل الحلم انه مسكون بجن أو حشرات فأبدو خائفا. انا واخي نطعم طائراً جميلاً على الأرض. بعد حين أرى الطائر يثب نحو سلة في الجدار ويتكوّم على نفسه وينام. بين لحظة واخرى اتوقع حضور أبي. «داخل الحلم

أدرك انه ميت». اشعر بالضيق وانا أشم رائحة روث الحيوانات فأرى نفسي في الخارج فوق أرض صغيرة محروثة نصف حراثة فيها شجرات متفرقات. تين. مشمش. دراق. أحاول ان اقطف فأرى الثمار تسقط على الأرض. الثمار تبدو صفراء وكأنها سقطت من زمن بعيد. قربي يمر رجل. احدس انه ابي. احاول مناداته فلا أقوى. معصوب ومضمّد في أكثر من مكان من جسده. شعور خفي ينتابني انه عائد من المقبرة. مرة اخرى انظر الى البيت الموشك على التداعي فتنتابني حالة غمّ. في لحظة هلامية تعادل عشر الثانية تمتزج صورة البيت بصورة أبي المضمَّد بضمادات بيضاء. مرة أخرى أرى نفسي في الداخل. البيت نفسه. للحظة أتمنى لو انني املك بيتاً قوياً جديداً غير هذا البيت. أبي يتحرك داخل البيت القديم ولا يتكلم كأنما يريد اثبات وجوده بيننا وانه لم يمت. لا أتحدث معه ولا ألمسه. فقط أراه وفي داخل كل منا احساس بأنه الآخر قد تغيّر.

نمر قرب البيت. نخرج من البيت ونعبر الممرّ. انظر الى ابي فلا أراه. لا أهتم لغيابه. فجأة يحدث هرج وصخب في ساحة مجاورة. في السماء غيوم كالحة. الناس يصرخون ويولون الادبار. قنابل وطائرات. يداهمني شعور داخلي دون ان انظر الى الوراء بأن البيت هدمته رجّة القصف.

في ساقية جوار الساحة أرى ابي ممدداً. مرة ثانية مات. احاول ان أرفعه عن الأرض فلا استطيع. جسده ثقيل وقاسٍ كعمود من الجبس. الناس رحلوا. هدّوء جنائزي يسود المكان المقفر. اشم رائحته في الفراغ والأرض. الجثة ما تزال في الساقية. أتركها وأسير وحيداً. تواجهني حديقة السبكي بكل حقيقتها. قليل من الناس عبروا جوار الحديقة. عبرت الصالون. كنت أرى جيداً الآن. استلقيت على السرير بكامل ثيابي. وما عدت أتذكر شيئاً).

ملاحق خاصة

ملحق (١)

من مراثي إرميا

«كيف جلستْ وحدَها المدينةُ الكثيرةُ الشّعب
كيف صارت كأرملة العظيمة بين الأمم.
كلّ أصحابها غدروا بها. صَاروا لها اعداء.
طرقُ صهيون نائحةٌ لعدمِ الآتينَ الى العيدِ. كلُّ ابوابها خربةٌ. كَهَنتُها يتنهدون. عذاراها مُذَلَّة وهي في مرارة. قد أدركَها كلّ طارديها بين الضيّقات.
صارتْ رؤساؤها كأيائل لا تجدُ مرْعى فيسيرون بلا قوة أمامَ الطاردِ.
صارَ مُضَايقوها رأساً، واعداؤها أيسَر، لأن الربّ أعنَتَها لكثرة معاصيها. اطفالها سارُوا مسبيّين أمامَ وجهِ المضايقِ.
بَسَطت صهيونُ يديها. لا معزّي لها. أمَرَ الربُّ على يعقوبَ ان يكونَ مُضَايقوه حواليه.
اسمعوا يا جميعَ الشعوب. وانظرُوا الى حزني.
عذاراي وشُبّاني ذهبوا الى السبي.
كيف غطى السيدُ بغضبهِ ابنةَ صهيونَ بالظلامِ.
ألقى من السماء الى الأرض فجرَ اسرائيل ولم يذكرْ موطىء قدميهِ يومَ غضبهِ.
ناخَتْ في الأرض أبوابُها.
أهلكَ وحطّمَ عوارضَها.
أنبياؤها أيضًا لا يجدونَ رؤيا من قبلِ الربّ.
تحني عذارى أورشليمَ رؤوسهنّ الى الأرضِ.
كلّت من الدموع عيناي. غلَت أحشائي.

انسكبت على الأرضِ كبدي. على سُحْقِ بنت شعبي لأجل غَشيانِ الأطفال والرضَّع في ساحات القَريةِ.

يقولون لأمهاتهم أين الحنطةُ والخمرُ، يغشى عليهم كجريح في ساحات المدينة اذ تُسكبُ نفوسُهم في أحضان أمَّهاتهم.

يَا سورَ بنتِ صهيونَ اسكُبي الدَمعَ كنهرٍ نهاراً وليلاً.

اضْطَجَعَتْ على الأرض في الشوارعِ الصِّبيانُ والشيوخُ.

عذاراي وشبابي سَقطوا بالسيفِ.

قد قتلتُ في يومِ غضبكَ. ذبحتُ ولم تُشفِقْ.

الذين حضنتُهم وربيتهم افناهم عدوّي.

لصقَ لسانُ الراضع بحنكهِ من العطشِ.

الاطفال يسألون خبزا وليس من يكسرُه لهم.

الذين كانوا يأكلون المآكلَ الفاخرةَ قد هلكوا في الشوارعِ.

الذين كانوا يتربّون على القُرمز احتضَنوا المزابلَ.

وقد صارَ عقابُ بنتِ شعبي أعظَمَ من قَصاص خطيّةِ سدومَ التي انقلبتْ كأنه في لحظةٍ ولم تلقَ عليها أيادٍ. كان نذرُها انقى من الثلج واكثرَ بَياضاً من اللبن. واجسامُهم أشدّ حمرة من المرجان.

جرزُهم كَالياقوت الأزرق.

صارت صورتُهم أشدَّ ظلاماً من السواد.

لم يُعرَفُوا في الشوارع. لصق جلدُهم بعظمهم. صارَ يابساً كالخشب.

كان قتلى السيف خيراً من قتلى الجوع لأن هؤلاء يذوبون مطعونين لعدمِ اثمارِ الحقل.

أيادي النساءِ الحنائنَ طبخَت أولادهُنَّ.

صاروا طعاماً لهنّ في سحق بنتِ شعبي.

أتمّ الرب غيظَهُ.

سكبَ حموَ غضبهِ واشعلَ ناراً في صهيونَ فأكلت أسُسَها.

من أجلِ خطايا انبيائها وآثامِ كهنتِها السافكينَ في وسطها دمَ الصديقينَ.

تاهُوا كعُمي في الشوارع وتلَطّخوا بالدمِ حتى لم يستطعْ أحدٌ ان يمَسَّ ملابسَهم.

قَرُبَتْ نهايتُنا. كَمُلَت أيامُنا. لأن نهايتَنا قد اتتْ.

قد صارَ ميراثُنا للغرباء.

آباؤنا اخطأوا وليسوا بموجودين ونحنُ نحملُ آثامَهم.

جلودُنا اسودّت كتنّور من جراءِ نيرانِ الجوعِ.

أذلّوا النساءَ في صهيونَ. العذارى في مدنِ يهوذا.

اخذوا الشبّانَ للطحنِ والصبيانَ عثروا تحتَ الحطبِ.

مضى فرح قلبنا. صار رقصُنا نوحاً.

سقط اكليلُ رأسنا.

ويلٌ لنا لأننا قد اخطأنا.

من أجلِ هذا حزنَ قلبُنا»

«الكتاب المقدس اصحاح ١ و٢ و٤ و٥».

ملحق (٢)

للحزن وقت وللرعد وقت

- ١ -

مَنْ يعيدُ الفرحَ للذين غمرَهم حُزن
من يُلحمُ الأجزاءَ التي مزّقها الرصاصُ والريحُ
من يُطعمُ الخبازينَ خبزَهم المعجونَ بحرارة دمهم؟
من أقصاها إلى أقصاها
جسْتُ المدينة.
الشوارعَ والمخادعَ والمحطّات
عصورَ الصعاليكِ
وعصور الفتحِ
العرافين وأزمنةَ الحكمة،
سألت: كيف حدثَ التحوّلُ؟
الليلَ والنهارَ
الجفافَ والبرقَ
جلدَ الأرض المشقق والمطرَ
سألتها: لماذا؟
الصمتُ مدينةٌ عربيةٌ مغلقةٌ
والأرضُ ضمائِدُ فوقَ جُرحٍ يَنِزُّ
والليلُ والنهارُ
زهرةٌ براعمُها بالقتلى تتفتّح،
يا لها من أجوبةٍ موسيقاها

رعّافةٌ بالحزن
في زمنِ العربِ الآفل.

- ٢ -

مُرْتَجةٌ تبدو المسامّ
والعطبُ شراعٌ مُبحر.
ملوكُ الزمنِ الغابر
سفينةٌ مصدّعةٌ
والبرُّ بعيد
آه. من يوقفُ هذه الريح العمياء.
دوارُ البحرِ أصابَ البحارة
والموجُ هاجمٌ كهضابٍ متحركة.
المرافئُ غمَرَها الضبابُ وضوضاءُ البحر،
وها هي الأقراش النّهمة تلوح بين تِلالِ الماء.
لو أن المدنَ تصغي
لو أن الضجيجَ أقلُّ
لو الرغبةُ تجدُ دربَها داخلَ المسامّ
لو ذلك المأخوذُ يطرفُ نحوي بالبصرِ
لقلتُ....
لكني وحدي خارجَ حلقاتِ الذكر،
خارجَ الدوار
والضوضاء تتنامى.
الرغبةُ المخصيّة أنا
والمأخوذَ فارسٌ أعمى
يدورُ
وظلامُ الإرثِ القديم مَلِكٌ
يحتزّ عنقَ الحرية في وضَحِ النهار.

- ٣ -

عندما عشِقْتُ قراءَة التاريخِ
نسيتُ نفسي
بطارقَ والمتنبي زهَوْتُ بين الناسِ،
قلتُ: أبا ذرّ سيّدُ العدلِ المنفي
وحمزة فتى الفتيان.
قلَّبت الصفحات من محمّدَ حتى الحجّاج
وتلوتُها عن ظهرِ قلب
فأعطاني المعلمُ بطاقةَ تشجيع،
يالله ما كان أعظمَ كتبَ التاريخ
آه. كم كانَ فرحي القديمُ عظيماً.
أيتها الامجادُ المتألقةُ كجُرح
أيتها الامبراطورية التي ما كانت تغيبُ الشمسُ عنها
يا ظلالَ الأسلافِ المنسيين،
هل ترينَ جيداً أمجادَ اليوم
وهل تميزينَ تماماً لونَ هذا الزمن؟

- ٤ -

لماذا جلدي موشومٌ كأفعى
ولماذا أبوابي ضاعَتْ مفاتيحُها؟
من الذي كسرَ رُمحي ودفنَهُ في الرمل
ولماذا أقول: اليومَ خمرٌ وغداً خمر؟.
صوتي هل هو صوتي
وهل حربي هي الحربُ إياها
الا ما الذي دهَا القبيلةَ
ولماذا ربيعة بن مكدَّم عاد فزّاعةَ طيورِ

لا حيّاً ولا ميتاً يخيف؟
كل ذلك الزمنِ المتألّق :
العشقُ والتراتيلُ والفتوحُ ،
الشعرُ والشجاعةُ والسَّخاءُ ،
هزائمُ كِسرى وقيصَرَ وريشارد قلب الأسد ،
تطفو الآن على سطحِ النيلِ والأردنِ والفراتِ
زوارقَ أطفالٍ في نهارٍ محتلّ .
الآن ما لون هذا الزمن
الآن ما لون العربي؟

— ٥ —

غيرَ الصدى لا أسمع
مبحوحاً داخِلَ الأوردة
غير الظِّلال لا أرى ،
شموسُنا انكسفتْ
جياع ومقرورون عبر صحارى الثلج
وما عاد للإنسان بيت .
تيه والعربي بلا مُدن
وطنٌ دامسٌ ولا نجم
زمانٌ موحِش ولا أنس
صحراء ...صحراء . والرياحُ عَفَتْ آثارَ الابل ،
ألا من ينزعُ من عروقِ القلبِ هذا المِبضَعَ المسنون؟!
لو ان الأرض تدور
لأشرقت الشمس .
لو أنَّ الشمسَ تظهرُ وتختفي
لأطَلَّ القمر ،

لو انّ هنا انساناً
لاجتاحَهُ غَضَب .
الأرضُ لا تدور
الشمسُ لا تُشرق
القمرُ لا يطِلّ
الانسان لا يغضَب
في أي أوقيانوسٍ نحنُ
وما اسمُ هذه القارّة؟

— ٦ —

عوني هنا ولترحل كلُّ القوافل
فأنا لا قبيلةَ لي
وثقوني عارياً إلى هذهِ الصخرة
اِمضُوا في مهرجانِ الريح .
خذُوا أكفانكم وكلَّ مجدِ الاسلاف
خُذُوا الراياتِ وكتبَ التاريخِ والحماقات
وامضُوا ،
سمّوني الميتَ الحيّ
وامضُوا ،
انحدِروا صوب المنجى
واتركوا لي رائحتكم
وحفنةً من رمادِ المدنِ المحترقة .
خذُوا غالي الثمنِ خفيفَ المحملِ
ودعُوا لي الأرض ولُعَبَ الأطفال ،
المصاحفَ والأناجيلَ خذُوها أيضاً
واتركوا لي رائحةَ النساء في أثوابِ العرس
خلُّوا لي الموسيقى .

على هذهِ الصخرةِ باقٍ
في مهبّ ريحِ الغزوِ باقٍ
عنقي ممدود
ووجهي للموت مُشْرَع ،
عيناي بحرٌ تودّعانِ شمسَكُم الآفِلة
وقلبي حَمامةٌ خضراء ،
تنتظرُ الطلقة .

- ٧ -

ها همْ قادمون ،
أعرِفُهم من نشيد «الها تكفاه»
تحتَ آباطِهِمْ سيفٌ وكتاب
وفي عُيونهم وميضُ القتل .
من ضفافِ المسيسبي والرّاين
طلائعُ بعثةِ روتشيلد تقتحِمُ ثغورَ الفقَراء
تحت رايةِ صليبٍ جديد .
ها هي الأسطورةُ القديمةُ تُبعث
تصيرُ مجداً مُخضَّباً بالغزو .
بحبرٍ من أوردَةِ الأطفال
يُسجِّل التاريخ
والحقّ الذي عفا عليه الزمنُ
يطلعُ من سطورِ التوراةِ
رصاصاً ومستعمَرات .
ها همْ يقتربون
أصواتُهم رعدٌ : «أنا احاربُ إذن أنا موجود»
وأنا هنا موثق ... موثق .
لقد وصَلَ الغُرَباءُ ، المنفيّونَ ، القَتَلة .

- ٨ -

كعذراءَ تحت جسدِ مُغْتَصِبٍ ساديّ
تهوي أرضُ السلامِ والشمسِ ،
فوق سهوب المدينةِ المأسورةِ الفقيرة ، الخضراء ،
المدينة التي لم تكنْ تملكُ حتى الأكفان لموتاها ،
ينتشرُ جراد ،
محنةٌ أخرى تدقّ أبوابَ العرب
ظلام جديد يخيّمُ على البلادِ الحزينة .

- ٩ -

في وطنِ الغاباتِ
القاتلُ هو السيّد ،
في زمن النسيانِ
النصرُ للذاكرة ،
وفي زمنِ السجودِ الخانعِ
الظهورُ للعقل .
في ذلك الزمن المُختَلّ
والرصاص يُدّخرُ في المستودعات السرّية
والبنادقُ من ما وراء البحار تُحشى
داخل صناديقِ الزُّهور
وبين قُمصان الأطفال ،
كانت مدنُ العربِ تهتزُّ في حلقاتِ الدراويش
وفي سُرِرِ النساء المُستَحِمّات
بالحليبِ والويسكي .
في ذلك الزمنِ الضائع الاسم
كانت شمسُ الصحراء النبوية
معقولةً على هامِ أميرِ

يحرسُ الوطنَ والنبيّ ،
وفي ذلك الزمنِ الخائنِ
بيع اللهُ والوطنُ
بثلاثينَ استرليني .
مغلوبةٌ كانت المدنُ
والفقراء مُهَانونَ
مُغلقاً كانَ المستقبلُ
والمفتاحُ في رأسِ ميناحيم بيغن
المتوقدِ الذاكرة
ليلٌ خريفيّ كان يولّي
وصباحُ أحمرُ كان ينبلجُ :
– واذلاّه
من كانَ فاتحاً بالأمسِ
هوذا يُفتحُ الآن .

– ١٠ –

على الحجَارةِ وأينما مرُّوا
رسَمُوا وشْمَهم ،
المطرَ والعشبَ وتقاويمَ الفصولِ
حتى الريحَ ، سمّمُوها .
صادُوا الفرحَ من حناجر الأطفال ،
وبين أفخاذ الفتيات الحرائرِ
زرعُوا العَارَ ،
في الأطعمَة دسُّوا الحزنَ
وبدل الملاحِمِ صيَّروا الأشعارَ
مراثي ؛
في الحلمِ هبطُوا

حوّلوا الرغبة إلى كابوس ؛
بين الفتى وعروسه
انتصبُوا كالرُّمح
وكَرَامٍ لا يخطىءُ طعَنُوا رعْشَةَ الجنس .
بين العربي وجذرِه
وقفُوا .
سدُّوا سريانَ النسغ
وضوءَ الشمس حجَبوه
لقد بدأ فصدُ الدم من النيل إلى الفُراتِ
في ذلك اليوم الجارح .

– ١١ –

يا أطفالَ المدنِ العريقة
يا مَنْ كانَ مِن نسلِكم رجالٌ أشِدّاءُ في ماضي الأزمنة ،
لا تنسُوا الدمَ الذي ساحَ عبرَ آلافِ الأعوام ،
الدمَ الذي غارَ في الأرضِ
وسقَى النُّسوغَ ،
الدمَ الذي سَرى مع الجداول
فأحيا الزرع ولوَّنَ الأراضي ،
دمَ الفلاحين ، والغزو ، والثارات ،
وتذكّروا أكثر دمَ التاريخِ الحديثِ
الذي أُهرِقَ صباحَ الخامسِ من حزيران .
في ذلكَ الصباح المشمس
غارَ دمٌ كثيرٌ عبرَ شقوق الأرض .
على القتلى لم تُتل آيةٌ
قرب الأفواه المشققة من الظمأ
سُفِحَ الماء .

الأرضُ ارتوَتْ
لكنّ الجرحى – وا أسفاه – نَفَقُوا
بالعطش.
في ذلك الصباحِ المشمسِ انكسرَ رمحُ العربي
وكبَا جوادٌ آخر،
لقد بدأَ الاغتصابُ
في الظهيرة هذه المرة.

– ١٢ –

المضيُّ موتٌ والبقاءُ موت
وأنا آخِرُ الصّقور
عِناداً أنا باقٍ هنا
وليسَ من أجلِ النصر
يسألني الغزاةُ: أينَ قومك؟
أقول: بالرملِ والريحِ امتزَجُوا
صاروُا البحر.
– ولِمْ بقاؤُكَ وحدَكَ؟
أقولُ: أنا والصحراءُ شمسٌ وأشعة.
– ما عادَ لكم زمن.
أقول: زمني يجيءُ بعد الموتِ،
من الرعدِ يولد ومن البحر.
من الشمسِ يأتي ومن الصّدى.
الحياةُ في الموت
والموت هو المهدي.
– وصيتُكَ؟
– أنْ أشاهدَ المدينَة المُجتاحة

– وبعدَها؟
– احرقوني ثم ذرّوا رمادي في الصحراء.

– ١٣ –

في الظهيرةِ عبرْتُ المدينةَ،
سِرتُ تحتَ وشاحِها الغسَقي
هبَطْتُ حزْنَها،
تحتَ الاغتصابِ كانت ممدَّدة
وسماؤها الحِداد،
وهادئة بدتْ وكالبحرِ صامتة
لكن عينيها كانتا تلمعَانِ
مثلَ حدِّ السيف.
على جبينها قرأت وشمَ المغول،
وفي خطوطِ الجبين سمعتُ ثغاءَ الأطفال،
الذين قطّعت أياديهم وأرجلهم ورُمُوا في الآبار.
بين الثديين انتصَبَ مشوّهو النابالم
الرجالُ الذين قتلهمُ الظمأ
استحالوا مائدةً شهيةً للنسور والكلاب.
تحتَ أظافرِ أرصفتِها المُقتلعة
سمعْتُ أنينَ الأمواتِ – الأحياء
الذين حملتهُم شاحناتُ اشْتيرن والهَاغَانا
إلى ساحات الاعدام.
على أسلاك الكهرباء
كان كلُّ الوطن
مدلًّى.
أوغلْتُ،
دخلْتُ باطِنَها البعيد

مفتّشاً عن بقاياهم.
دلّوني على رجل ملامحُهُ غريبة
يقفُ في ساحةٍ ويصرخُ،
يدُه ترتعشُ بين مقبضِ السيفِ
ومقبضِ الخزائن
يبيع ويشتري،
يثمل ثم ينامُ ملءَ جفونه.
ممسوسٌ هذا الرجلُ
وضَجِر
يغنّي وهو يبكي
ويضحكُ وهو ينزِف
وإذ يمَلُّ ألعابَهُ
يَنْتضي سيفَهُ الخَشَبي
ويَنْتحِر.

– ١٤ –

حزينةٌ كانتِ المدينة
وفي خاصرتها جُرح.
سألتُ الجُرحَ: أهذا زمانُ السبي، زمانُ التيه؟
هل عصرُ العربي يولّي، وهلَ آذنتْ
شمسُهُ على الأفول؟
طويلٌ هذا الليلُ طويل
والفصولُ بطيئةٌ.. بطيئة
فهل احتُلَّ الزمنُ أيضاً؟
ضيِّقَةٌ مفارقُ الدروب
والغضبُ ضاق
ناس الآن ضاقُوا.

الأحياء بالأمواتِ تساووا،
والخطواتُ بالخطواتِ تتعثر،
العينُ من العينِ تَخْجَل
والوجهُ في الوجهِ تُهمَة
حتى القهرُ لم يعدْ يجدُ دَرْبَه
داخل المسامِّ المُرْتجَة
حزيناً وعميقاً أتاني صَدَى الجُرح:
للحزنِ وقت
وللرعدِ وقت.

ملحق (٣)

من مذكّرات مُنَى

«في برودة مفاصلي عُرِيٌّ لا حدود له. ممرغ جسدي على اجمل الدروب ونور مختنق أحسه في الهواء وفي مفاصلي. تسلقت أعماقي الملوثة بالسادة والفقراء، وظللْتُ نفسي بفرسان لا وجود لهم. بحثتُ عن نفسي في الشوارع والمحطات في البشر والالم فما لقيت في طريقي غير الزمن الخائن. وجدت طفلاً يرقص كبهلوان، ويهزج. عيناه برّاقتان وعميقتان كما البحار تماماً. توقف عن الرقص وتوقفت عن الغور في أعماقي ومشينا. كانت حدود أرصفتنا دماء وغباراً ورملاً. آه. ما أروعَنا في هذا المضي السريع. ما أعظمَ ان نلتقط معاً موسيقى الشرايين ونحطّم العتمة ونمشي متسلقين قرونَ الحكمة، متمرغين بدماء القدر الضبابية لنجد أبدع ما نريد ونحن لا نريد شيئاً حقاً.

تمسكْتُ بمعصمه وشددتُ، وتمسّكَ بشناشيلِ قدمي المثقوبتين وارتقى معي درجَ الزمان. هذا الصبيّ المعقود الأصابع توقفَ عن الغناء عندما توقفتُ عن البحثِ. التصق بي كالموت والتصقت به كالأفكار وخرجنا من سهادنا البالي من أجل ولادةٍ مغتسلةٍ بالثلج والشمس. اننا ننعم بالراحة ونوشّي أجسادنا بالفضة والنجوم، ونظهر أمام بصر العالم حبّتين من رمل فوق شطآنٍ عاريةٍ ساخنةٍ. نشيحُ بوجهينا عن العالم والزمن ونقرأ معاً الكلمات المتدفقة من الغصون، وكأننا ضباب عذب يمضي بجسد الحياة».

١٠/٢٧ الساعة الثالثة بعد الظهر

«أين أنت أيها الشاعرُ الرقيق فأنا بحاجة اليك أكثر من ذي قبل. بحاجة لأن تضمني إلى صدركَ. بحاجة إلى أن أبكي فوق عنقك أكثر من بكاء كلِّ أطفال العالم لأشعر بعدها بالراحة والفرح، لا تقلْ شيئاً أيها الشاعر فأنا ما زلتُ سَكْرى بحبّكَ الأبيض. أين أنت الآن. في أي مكان؟ سكين الفصام تكوي نفسي، ومديةُ الرحيل والمسافات تطعن جسدي. لماذا أنا وأنت غريبان؟!!»

١٠/٢٩

«فراغ.. فراغ. ظلمة موحشة كالقبر تخيم على روحي. ارتعاشاتُ الدم في مفاصلي تهز الجراح التي انفَغَرَتْ منذ الازل.

سأحفرُ كهفاً في هذه الأرض المطعونة. سأحفره في جدار العقم الحاضر علَّ مستقبلاً يطل بعد ليالي الألم».

١١/٩

«صامتةٌ، كاتمةٌ أسراري، أجوبُ العالم. ليس من أحد يدركُ حقيقتي. لكنكِ قد تعلمينَ وأعلم أنا. وربما لا تعلمين ولا أعلم أنا. لماذا أهبُّ من أحلى ساعات نومي لأرصدَ وأتابع الصمتَ والاخيلةَ التي تتراكض على شاشة الذاكرة! بامكاني في هذه اللحظة معانقة أية طفلة أصادفها وأناديها: ابنتي. اذ ذاك ستبارك النجومُ المتلألئة فوق رأسي صدقَ مشاعري. أي حلوتي! ما الليل؟ ما الموت؟ ما الحب؟ ما الخطيئة؟ ما الخوف؟ ان فرحي بعودتك يساوي لقاء المحاربِ العائدِ لبيتهِ القديم».

١٠/٢٧

«عندما يرتفع الجدار بيني وبينكَ يشتعلُ حزني. لا استطيع ان أُفصح لك ولهذا لا أجدُ لي ملجأ إلا الهربَ منك. كم أودّ وأنا جالسة الآن في هذه الباحة ان تمّر في شارعي علّك ترى وجهي الموشّى بالكآبة، وقلبي الذي يرتعش بحبك بشكل خاص.

قافلةٌ من الدموع تنهمرُ في قلبي، وآلامي تشعُ كالأضواء الذهبية. أواه ما أوسع الكون وما أضيقَ فرحي. لا أريد أن أترك خلفي أي شيء وانا اهاجر. الليل تلاشى والنهار مغطى بأقنعة رمادية وأنا أندفع رويداً رويداً في طريق الموت. الموت جليلٌ وكريه بدرجة واحدة. أريد أن أموت في أي مكان. في أي شارع. ولا أريد أن يعرفَ ذلك من تحبه نفسي.

نفسي حزينة وعلى روحي يخيم ضبابٌ عميق. أخاف السفر إلى البلاد النائية ومع ذلك فهذا حلم جميل عذب.

في لحظات يأسي أرى رؤى جديدة. رؤى عن البدء الاول. أنا وأنت آدم وحواء في جنة مات كل من فيها. ونحن نعيدُ صياغةَ العالم من جديد. آه. العالم

القديم كم أشعر بالحزن عليه وبالشفقة. انني أكفّنهُ بالرحمة وهذا أقصى الحب. أسير بزهوٍ في تلك الجنة. أبحث عن منابع الفلّ ورائحة الأطفال. أتمرغ فوق العشبِ. العشب الذي يشبه في طراوته وحنانه ذراع رجل أحببته. إن قلبي ضائعٌ إلى ما لا نهاية. أيه. شابكْ يديكَ بيدي واضغطْ خفيفاً ودعْ أعماقي تهتز بالحزنِ المبدع. فعمّا قريب سنفترق».

سقوط

مُتعبةٌ هي الشمس فوق مدينتي. انها تسير بترهّل يَشي بالموت. قلبي امرهقٌ وعيناي تبحثان عن عينيك في صحارى مجهولة المدى. انظر إلى النجوم هذه الحقيقة القديمة التي نعرفها جيداً. لننسها قليلاً ونرنُ إلى الأرض علّنا نكتشف مكامنَ الخلل في نفوسنا. النفوس التي اعتكرت بطمي الزمن. آه. انظر أيها العاشق الوحيد كيف يتشكل الحزنُ عبر أيامنا كما يتشكل الطحلب على جدران القلاع العتيقة. ان ذلك يمزق القلب ويقهر العقل. تُرى أحياتُنا مجرد سقوط متواصل؟

جملةٌ

زَحْزِحْ هذه الصخرة القاسية عن قلبي، فلن أكونَ بعد ذلك عنيدةً ولا مبالية. سأكون لك وحدك في ذلك الوقت.

هزيمة

«ما دامَ الموت يهزِمُنا في أي مكان فلا بأسَ أن نعيش حياتنا كما نريد».

بلا تاريخ

«النسيان، مجرد وهم. قبرٌ لأفكاري ومستقبلي. انني غارقة في قرار سحيق والحب الممتنع يغريني من الداخل. أحلم بأزهار وعشب وريح ملونة لأن الموت هو الحقيقة النهائية. قبل أن تأخذني الى كهف بعيد وترميني على التراب، أريد أن أكتب قصيدة طويلة مُصَاغةً من أشعةٍ خالدةٍ ربما تضمّد جروحَ الآخرين. وتذكّرهم بأن عليهم أنِ ينعموا بحياتهم إلى أن يأتي زمن الاحتضار».

ثَمَنُ الذكريات

«من يشتري مني ذكرياتي بحبّ أبيض وشوقٍ أحمرَ ولهفةٍ سوداء ورعَشَات رمادية. أنا هنا على رصيف الحياة أمشي تحت أبط الزمن وكأنني في صدر حبيبي. من منكم يشتري؟ الأسعارُ متهاودة والذكريات كثيرة وأنا أعيش في زمن مفاجيء أبيعُ أملاكي قبل الرحيل. أنا على قارعة الطريق شجرةٌ بلا حارس. أنشر ذكرياتي كما ينشر الباعة المتجولون بضائعَ عَرَباتهم».

١٢/١٣

بصخب الريح العاصفة أمشي اليك. بولعٍ أودُّ لو اقاسمُكَ عواطفك أيها الصديق. الشوارع التي عبرنا تعبق برائحتنا، وكلماتُنا القليلة امتصتْها الأشجار والجدران في ذلك الشتاء الحزين. سلالتُكَ في دمي. فجأة قررت ان اعطيك طفلاً وأنا أعرف ثمنَ ذلك. إنني مشتتة في هذه الأيام لكن فكرة انتقال دمكَ إلى صُلبي تملؤني بزهوٍ يقاربُ احتفالَ الموت. رحلة مباغتة كسبتُ منها الكثير. البحرُ والبراري حيث أوغلْنا. أعطيتكَ في لحظةٍ كالبرق جسدي ونفسي. من زمن بعيد وأنت ترغب ذلك وأنا أقول لك لا جدوى من هذا الالحاح، لكن حزنكَ العميق يومذاك اجتاحَني حتى الحَمَل.

كل شيء لديّ ملوّن ومنعش. كل شيء مضيءٌ الآن. آه لو تستطيع الآن أن تحضَرَ لنمضيَ سريعاً سريعاً خارج هذه المدينة المسمومة. خارج هذا الزمن الخانق. ثمة أفكار قديمة. ذكريات مصبوغة بالدم تحاول أن تطلّ عليّ في هذه اللحظة وأنا أحاول إبعادها. العالم الجديد الذي تحدثنا عنه يهبّ في نفسي. بعيداً. بعيداً. قرب خلجان مغسولةٍ بالموج والشمس. جبال نائية وأدغال وموسيقى تنبثق من العشب والفرح الجديد. آه. أيّ شيء أبدَعُ من هذا. ان نعيدَ حكاية الكونِ من جديد.

استطراد

بيني وبينك بَرْزَخٌ وأنا عاجزةٌ عن العبورِ إليكَ.

١/١

لقد تعفّن الفرح في هذا الزمن الضيق. وكل الألوان استحالتْ إلى لون

القار. الصوت مخنوق على حواف الحنجرة. والجميع أصبحوا عشاقاً يحملون مرايا، وكلٌ يقول في غرفته الخاصة: يا ربّ نفسي. لقد امتلأ العالم بالخونة والسفاحين وباعة جرائم الشرف المنتَهَك. لا أحد يجرؤ أن يقول: لا. الشوارعُ معبأة بمكسوري الظهور. العيون خبَا وميضُها. صارت كهوفاً للذلّ من كثرة ما مارسَتْ غضّ الطرف. العفنُ في كل مكان. في النفوس والاجساد. في الكلمات والمواقف. الشجر والحجارة والريح تضجّ بروائح قذرةٍ لا تُطاق. وقلب الانسان هنا يُقايض من أجل زوجته. آه. الوطن معتلّ فهل من يغسُلُ الهواء؟

اعترافٌ

عندما تنتظرني ولا آتي، أستطيعُ أن احدسَ بأحزانكَ القمرية. أنا لن آتي. تاريخنا المشروخُ يقول ذلك، والعينان المتألقتان في عصر العيون المطفأة تقول ذلك. وأنا أعرف ذلك، ولهذا أهفو اليكَ بصمتٍ دون أن أفصِحَ. ان نسلكَ يستلقي في بحار دمي. نسلُكَ الشقيُّ المنسي من الله والزمن. من ألوف الأعوام أعرف مدى حزنك ولهفتكَ لاعتناقي. لكن حبَّنا البائس ليس أكثر من صيحة مذعور في وادٍ خالٍ. آه أنت مقيم وأنا مسافرة. سأهجركم جميعاً تاركةً لكم الندم. لقد أحببتك وكرهتك بدرجة واحدة. هل تستطيع أن تحلّ هذه المعادلة؟

هروبٌ

ربما كنتُ أنتمي بجسدي فقط إلى هذا العالم. هل هذا يفسر انشطار الانسان هنا بين الحاضر والمستقبل؟

يوم خاص

الحزن يعمّ الأرض. الآلام تعرَّت كما الشمس، والأطفال حزانى في مخابئهم السرية حيث يتوسدون أرض الموت والحياة. أين طفلي الذي أكله العنكبوت والبنسلين. طفلي الذي مزّقته المشارطُ.

قبل لحظات كنتُ أتوسّد منضدة العمليات في غرفة محشوّة بالسكاكين ورائحة الكلوروفورم. أوثقوني بالأحزمة وفتحوا ساقي. أيها الطبيب الجزار: قف قليلاً قبل أن تحرّك آلاتك الحادة. هناك بعض لحظات أريد أن اكتشفها. فجأة اقتربت امرأة متشحةٌ بالسواد ووضعت المخدّر على أنفي. امرأة قاسية الملامح لا تعرف كيف

تبتسم. وهذا الرجل الانساني الذي يعرف بمهارة كيف يمزق الرحمَ ويشرطُ الأطفال دون أن يرفّ له جفن. ببرود يدسّ رزمة من النقود في جيب زوجته. هل سيغفر لي العالم ما حدث. لا بد من ذلك يا صديقي لا بدّ.

ارتقيت درج المشرَحة وتوسدْتُ بهدوء. اقترب المخدر ممدوداً كالنطع بين يدي المرأة القاسية الملامح. ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦... الغيبوبة. نصف غيبوبة. شيء حاد كالسيف يخترقني فيسري الألمُ من الرحم إلى القلب. دوارٌ مسكون بالفولاذ يسحقُ جسدي الذي أحببت. كوابيسُ ونعوشٌ محمولة نحو مقابرَ بعيدة مظلمةٍ. صوتُ طفلنا الذي سيُولد مشوَّهاً يصيحُ فلا يُسمَعُ صوته. ما الفائدة؟ لن تكبَرَ ولن تنموَ. مثلك مثلُ أطفال بلادي الذين لا يَنْمُونَ. لن تقرأَ أشعاراً وترى وشمَ الدم على جباهِ الملايين الذين قضوا وهم أحياء. لن تدخنَ وتثملَ وتطاردَ الفتيات، ولن تكون لك أحصنةٌ وسيوفٌ من خشب.

انني أستيقظ بعد أن انتهى كلّ شيء، كما ينتهي الربيع وأيام الآحاد العذبة. لقد انتهت المذبحة، والطفل الذي وُلِدَ الآن مرميٌ في صينية بيضاء. كتلة من اللحم والدم الممزق لا علاقة لها بالآدميين. لقد ولدتِ الأرضُ المطعونة طفلاً عليلَ الجسدِ عليلَ النفسِ.